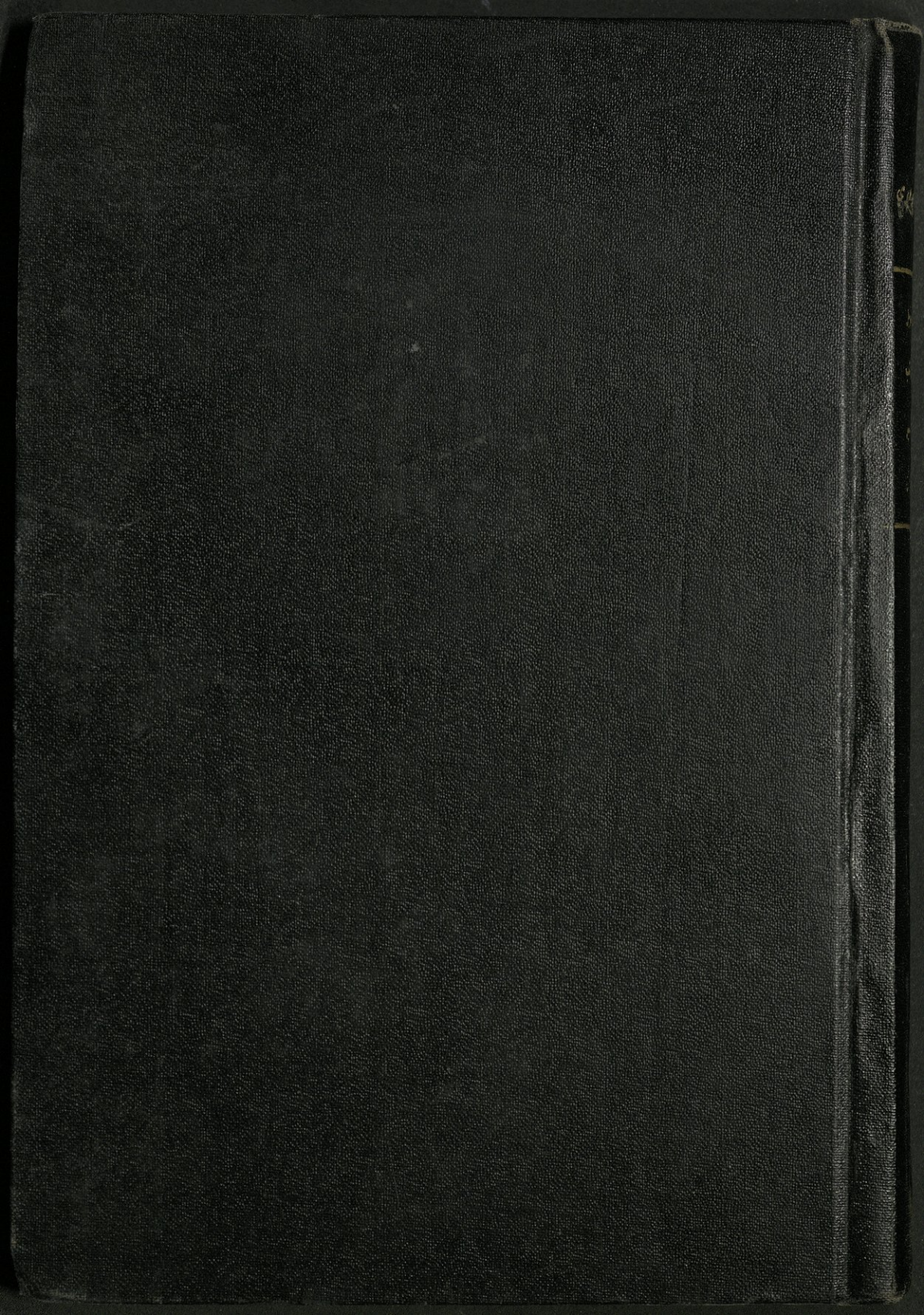
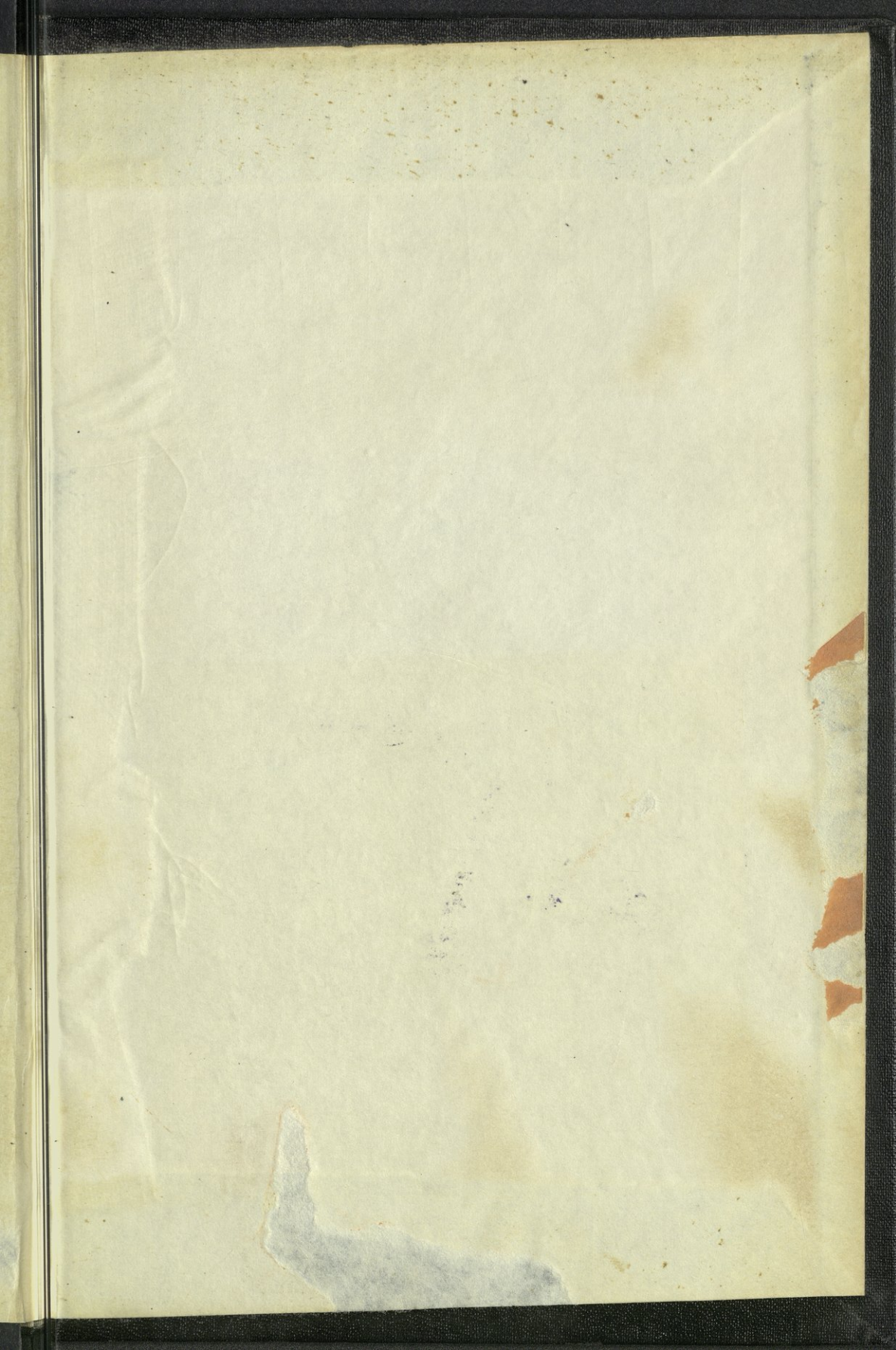






297.207:D21hA

V.1

الدرديري، يحيى أحمد •

هداية القرآن لبني الانسان •

297.207

D 21 h A

v.1

SAFET LIB
1 FEB 1970

Cat. 2100. 52

297.207

D218A

V.1: C.1

هداية القرآن
لبنى الإنسان

42



مَوْجَزٌ مِنْ خُبَرِ نَفْسِ الْقُرْآنِ

تأليف

يحيى حميد الدرديري

ذِكْرُ فِي الْحَقِّقِ وَلَيْسَ أَنْفِيسُهُ فِي الْعِلْمِ الْيَسِيرِ

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٥٠ - ١٣٦٩

79565

المطبعة السلفية

Cat. Mus. 52



تفسير القرآن



موجز منيخب

وَهَذَا كِتَابُ أَرْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَكُمْ لِرُحْمَؤُنَّ ۝ فَمَنْ أَتَّبَعَ هَذَا
فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ
كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْشَى ۝ وَكَذَلِكَ نُخَذِّبُ مِنَ
الْأَشْرَفِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۝ (فَرَأَيْتُمْ كَمْ
يَقَامُ الْكِتَابَ يَحْيَى الْجَمَلُ لَدْرِي)

لَمِيتْ كَمَتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على رسل الله أجمعين

وبعد فان القرآن الكريم كتاب الله تعالى ، وهو عقد بينه وبين خلقه ، ورباط بين السماء والأرض ، فيه علم وإرشاد ، وهداية ورشاد ، ونظام ينظم حياة الانسان في حركاته وسكناته ، وأقواله وأفعاله ، كما يضع نظام الأسرة والجماعة والحكومة والانسانية ، ويهديها إلى أقوم سبل السعادة .

يخبرنا القرآن الكريم — في بيان واضح وبرهان ساطع — أن كل قوة من قوى هذه الأرض ، وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها خلق خاضعا للانسان ، وخلق الانسان مستعدا لتسخيره لمنفعته ، وأن العلم هو الوسيلة لخلافة الأرض وتسخيرها له ، بل تسخير مافي العالم من أرض وهواء وماء وسماء .

علم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة لأنه أقامهم على سواء المحجة . وجدير بصاحب اليقين أن يطالب به خصمه ويدعوه إليه ، وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح : قالوا بالدليل ، وطالبوا بالدليل ، ونهوا عن أخذ شيء من غير دليل وعلم الناس استقلال الفكر مع المشاورة في الامر .

وضرب لنا الامثال من سير الغابرين ، لتكون عبرة لنا في حاضرتنا ومستقبلنا ، فاستخلف آدم عليه السلام في الأرض بعد أن علمه الاسماء كلها ، وعن طريق العلم استتب له الامر ، وخضعت له الملائكة ، وسخر في خدمته نواميس الطبيعة . وجاء يوسف عليه السلام فكان رسول المال والجمال ، فزهّد في المال وعف في الجمال ، وأنقذ

مصر وما حولها من مجاعة أنت على الأخضر واليابس ، وهلك فيها الزرع ، وجف منها الضرع . وجاء داود عليه السلام فكان رسول الصنعة والجهاد ، والزهد والرشاد ، وانتصر على أهل البغي والفساد . وكان بعده سليمان عليه السلام ، وكان له من الملك ما لم يكن لأحد من قبله ولا من بعده ، فعلم منطق الطير ، وسخر له الريح ، وكان له من السلطان في عالم الشهادة والغيب فسخر الجن له . وجاء بعدهم من الأنبياء والمرسلين من كانوا فيه المثل العالی لتحرير شعوبهم وأممهم من نير الاستعباد ، وهدايتهم إلى ما فيه الخير والرشاد ، وكان خاتمهم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فكان المثل الكامل في جميع نواحي الحياة البشرية : نبيا ورسولا ، زوجا وأبا ، صاحباً ومرشداً ، محارباً ومجاهداً ، مقبياً ومسافراً ، في العسر وفي اليسر ، في الصحة والمرض ، في الحرب وفي السلم

كل هذا بيان واضح للمسلم بأنه خلق ليكون سيداً في الأرض ، وخليفة لله على هذه اليابسة . فهم ذلك المسلمون الأولون . وكان للمرأة حظ الرجل في العلم وتكاليف الحياة (ولهن مثل الذي عليهم بالمعروف ، وللرجال عليهم درجة) وتلك هي الرياسة الرشيدة ، والزعامة السديدة . وأخذوا بأسباب الرقي في الهداية الخلقية العظيمة ، والعلم النافع ، وبذل النفس والنفيس في الدفاع عن الحق ، فسادوا الأرض وأضاءوا مشعل الحضارة في القرون الوسطى ، وأخذت عنهم أوروبا الكثير من علومهم ومعارفهم التي هي أساس حضارتهم اليوم .

ودارت الأيام دورتها ، واستقام المسلمون ، واشتغلوا بملاذاتهم وشهواتهم ، فصرقهم عن الجهاد وبذل المال والنفس في سبيل الله ، أي في سبيل خيرهم وإسعادهم ، والحرص على حريتهم واستقلالهم . وقد أُنذِرهم الله تعالى وحذرهم وأوعدهم سوء المصير ، فقال تعالى : ﴿ هَٰؤُلَاءِ نَتَّبِعُهُمُ هَٰؤُلَاءِ مَا نَدْعُوهُمَ لِأَسْوَاقِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ : فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ . وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخْشَىٰ لِنَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾

بخل الشبان بنفوسهم ، والأغنياء بأموالهم ، والعلماء بقدوتهم وعلومهم ، وأصحاب

الجاه بجاههم ، وعاش كل عابدا لشهوته ، ضعيفا مستذلا في أمته . وكانت النتيجة أن نفذ الله وعيده ، وهذا هو الشرط الجزائي في كتاب الله لكل جماعة تتكبد عن هداية الله ، فضرب المسلمون في مصر والسودان والهند بالاستعمار البريطاني ، والمسلمون في شمال أفريقيا بالاستعمار الفرنسي والاسباني ، والمسلمون في اندونيسيا بالاستعمار الهولندي جزاء ما فرطوا . وهذا هو الاستبدال . نزعت سيادتهم وحريتهم ، وذهبت لغيرهم ممن هم أقوى عزيمة ، وأشد شكيمة ، وأكثر علما وتضحية وبذلا

يجب أن يعترف مسلمو اليوم أن الاسلام دين الرجولة الكاملة ، لا دين الخنوة والميوعة المتبرمة . دين إصلاح وتعمير ، لا دين إفساد وتدمير . دين أعمال ، لا دين أقوال وجدال

عرف الاسلام بأنه دين الفطرة السليمة والمبادئ القويمة ، يدعو إلى التوحيد في يسر ، ويأمر بالمعروف في هواة ، وينهى عن المنكر في حزم ، ويأمر بالعمل الصالح في كل زمان ومكان ، لأنه دليل الايمان الصحيح وحجته الواضحة ، ويدعو إلى التضحية والبذل لقوام الهيئة الاجتماعية وسلامتها من عبث العابثين ، وبقائها قوية لا يطمع فيها المستهترون ، ولا يتناول عليها الطامعون

قوام الاسلام صحة الايمان وصالح الأعمال ، وقوام المسلم صدق اليقين والبذل في إعلاء كلمة الدين وان تكون كلمة الله هي العليا ، وما انتشر الاسلام ولا ساد المسلمون إلا بهذا ، وبهذا وحده اعتر الاسلام والمسلمون .

عرف الاسلام لنا طريق الحياة الكاملة ، وأعلننا أن الجسم وقوامه الصحة والعافية لا تنال إلا بأطيب الطعام والشراب في غير تبذير ولا تقتير ، فأمر بأكل الطيبات من الرزق لنعمل صالحا ، وقد أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (سورة المؤمنون) كما قال تعالى : ﴿ كُنُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ (سورة الأعراف) لنؤدى واجباتنا المادية والروحية ، كما أبان لنا الحياة الروحية وقوامها العلم والطهارة فقال تعالى ﴿ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (سورة طه) وكما قال تعالى ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا فَتَكُونُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (سورة الإسراء) وقال أيضا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ

التَّوَّابِينَ وَبِحَبِّ الْمَظْهَرِينَ) (سورة البقرة) وهذا يشير إلى طهارة النفس والجسم معاً .

لما كانت العزة من أكبر معالم الرجولة ، وهي لا تقيم إلا في النفوس المنية الموصوفة بالبذل والتضحية ، فرض على كل مسلم البذل والتضحية : بذل المال وتضحية النفس في سبيل الخير والحق ومحاربة الشر وهزيمة الباطل .

فرض الاسلام على كل مسلم قادر أن يحمل سلاحه ويعد العدة لحماية نفسه ودينه وعرضه وماله ووطنه فقال تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة)

لحماية مبادئ الاسلام ونصرة المسلمين فرض لازم في عنق كل مسلم قادر .
والجهد في سبيل الحق ونصرته أعلى مراتب العبادة ، وفيه أكثر آيات القرآن الكريم .

بذل المال والنفس هما قوام حماية الاسلام وعزة المسلمين ، اعتمد بهما المسلمون في الصدر الأول فكملت لهم الرجولة ، وسادوا الدنيا ، واستخلفهم الله في الأرض فقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَسْتُمُوهُمْ وَأُخْرِمُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقِتْلِ ، وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَالْحَرَامَاتُ قَصَصٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَاحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة البقرة)

أمرنا الله تعالى في صريح العبارة بأن ندفع عن أنفسنا العدوان ، وببذل المال والنفس في صيانة حقوقنا والاحتفاظ بمحريتنا ومبادئنا ، وحذرنا من التهاون والبخل

لأنهما طريق الذل والاستعباد والتهلكة ، كما دعانا تعالى إلى الاحسان في العمل — أى وضع الأشياء مواضعها — وتقدير الأشياء في نصابها ، في غير إسراف أو تقتير أو ظلم أو تفريط

والمعنى : إذا لم تبذلوا في سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم أنفسكم ، وفي سبب النزول عن أبي ايوب الأنصاري قال : نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الاسلام وكثر ناصروه ، قال بعضنا لبعض سرأ : ان أموالنا قد ضاعت ، وان الله قد أعز الاسلام ، فلو أقننا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل الله يرد علينا ما قلنا ، وأنفقوا ، الآية ، وكانت التهلكة الإقامة على الأموال واصلاحها وتركنا الغزو .

والأمر بالاحسان على عمومه ، أى أحسنوا كل أعمالكم وأنفقوها فلا تهملوا إتقان شيء منها . ويدخل فيه التطوع بالانفاق .

فالاسلام يدعو بصريح العبارة إلى الكرامة والذود عنها والقتال في سبيلها ، ويعلمنا جليا أن الحياة ما هي إلا معركة دائمة لا يبق فيها إلا الأصلح والأقوى ، فهو يدعو كل مسلم لأن يكون مصلحا ، ولأن يكون قويا ، حتى ينعم برجولته وحرية . وان تنازع البقاء سنة من سنن الوجود الخالدة ، وإن بقاء الأمثل لا يكون إلا بالقوة والمحاولة في نصره الحق والفضيلة والدفاع عنهما دفاع المستميت ، وبهذا يمكن حرد الفساد في الأرض ، يعزز ذلك في القرآن الاذن للمسلمين بالقتال في سورة الحج ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور ﴾ (سورة الحج)

فهذا إرشاد إلى تنازع البقاء والدفاع عن الحق وأنه ينتهى بيقام الأمثل وحفظ الأفضل .

وعما يدل على هذه القاعدة من القرآن المجيد قوله تعالى في سورة الرعد :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَّةٍ أَوْ مُتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُ ۚ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكِكُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ فهو يفيد أن سيول الحوادث ونيران التنازع تقذف زبد الباطل الضار في الاجتماع وتدفعه ، ويبقى الحق النافع الذي ينمو فيه العمران . وقد أوضح القرآن الكريم في كثير من الآيات أن الحق يزهق الباطل ، والحق صفة من صفات الله عز وجل ، وعليه قام الوجود ، وبه يبقى ، ومن غيره يفنى . فلا بد لهذا الحق من الانتصار والظهور مهما قويت عوامل الباطل وتراكت سحبه بعضها فوق بعض ، قال تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ ، ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ سورة الاسراء

فرض على كل مسلم قادر أن يستكمل عدة الكفاح في الحياة ابتغاء النصر ، وابتغاء أن يعيش عزيز الجانب ، عليه أن يقوى جسمه بمختلف الرياضة وانتقاء خير الأغذية وأحسنها ، وتجنب الأمراض وأسبابها ، وأن ينمى عقله وحياته الروحية بالتحلى بالفضائل والتخلي عن الرذائل . وقد أبان القرآن الكريم كل الوسائل النافعة وأمر بها كما نهى عن الوسائل الضارة وهدى إلى اجتنابها فقال تعالى ﴿ أُنِ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ سورة النحل . هذه الآية وحدها كافية لأن تغير طريق الحياة الدنيا ، وتهدى إلى أعلى مقامات الرفعة والشرف ، وهي وحدها كافية لأن تكون أساس العمران وداعية للوثام ونشر السلام . فأى موجود لا يرعى العدل فهو هالك .

إذا لم يقيم الإنسان العدل مع نفسه في طعامه وشرابه ونومه ويقظته وحرركاته وسكناته فقد أقسد جسمه وأضعف روحه وهلك مع المسرفين . وإذا لم يقيم الإنسان العدل مع من حوله ومن يعامله حلت بينه وبينهم الخصومة والعداوة وامتدت إليه الأيدي بالأذى واستحوذ الهم والغم على نفسه بالتلف والعطب . وإذا لم يحسن الإنسان عمله فهو مرود عليه بالخسران .

إذا لم يحسن الإنسان مع الناس ناصروه العدوان ، فبالعدل تستقيم الأمور كلها ،
وبالاحسان تبلغ درجة الكمال والنمو والزيادة ، وبالمعروف تتألف القلوب وترتبط
برباط المحبة ، وبالبعد عن الفحشاء والمنكر والبغى تستأصل عوامل الشقاق والخلاف
والحسد وأصول الفساد في الأرض .

ومن راعى أوامر القرآن الكريم واتبعها سلك منهج الرشاد ، وسار في طريق
الساد ، وعاش في الدنيا سيداً كريماً ، وفارقها وهو على خير الصفات وأحسن
الأخلاق .

مبادئ الاسلام تحقق في المسلم الرجولة الكاملة إذا اعتصم بها وعمل على حسب
مقتضياتها .

فلا بد للمسلم الصادق من :

(١) التخلق بالفضيلة : الصدق في القول ، والاخلاص في العمل ، وانجاز الوعد ،
وكتمان السر ، وحسن المعاشرة والمعاملة .

(٢) البذل والتضحية في النفس والمال في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ،
وأن يحارب كل فساد وتدمير ، ويعمل على كل إصلاح وتعمير ، ويعمل على تحقيق
كل خير لصالح المجتمع

(٣) الاعتصام بالله وبكتابه وهديه ، فيحل حلاله ، ويحرم حرامه . وقد قال
تعالى ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هُدى إلى صراطٍ مستقيم ﴾ . سورة آل عمران
بهذه الصفات والأخلاق ساد المسلمون في الصدر الأول ، واستخلفهم الله في
الأرض ، فكانوا خير الخلفاء ، وأحسن الناس سيرة وأقومهم عدلاً .

ولكن هل المسلمون اليوم على هذه الصفات ؟ !

هل المسلمون اليوم قائمون بما يفرضه عليهم دينهم ، فإذا حدثوا صدقوا ، وإذا
وعدوا أنجزوا ، وإذا اتهموا وفوا وكتموا ، وإذا عاملوا أحسنوا ، وإذا عاشرنا
بروا ؟ !

هل المسلمون اليوم يضحون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الحق وازهاق الباطل

ونصرة الضعيف والمظلوم ؟ ويتعارفون على البر والتقوى ، ويبدلون فيما هو نافع ومفيد للصالح العام ؟

انظر إلى أحوال البلاد الإسلامية تر الباطل حقا والحق باطلا ، يضحى الأفراد بالمبادئ السامية في سبيل المال والجاء والشهوة الجامحة وارواء النفس بأحط الشهوات .

أين هي الكرامة يامعشر المسلمين وقد غلبتم على أمركم وضاعت بلادكم واستعبدتكم شهواتكم وأنتم تعاملون في كافة أنحاء الدنيا معاملة الخسف والهوان ؟

أين هي الحمية للكرامة والحرية ، وقد سلبكم المستعمرون الحرية والاستقلال ، وصرتم تتداولكم الأيدي الغاصبة كما يتداول القصاب ذبائحهم : يبيع ويشترى فيها وهي لا علم لها بمن يكون مالكمها ، ولم يكون ثمنها ؟

هل اعتصم المسلمون بكتاب الله الكريم فأحلوا حلاله وحرموا حرامه ؟

إن سنة العصر هي إتيان الفاحشة جهارا ونهارا :

١ — تفتح الخماير برخص رسمية ، ويحمى شارب الخمر بقواعد دستورية

ب — يباح الزنا ، ويستحسن الكذب ، ويكره الصدق ، وتصير الغيبة حديث المجالس ، وتعد الصلاة وفاعلها من بقايا العصر القديم ، وبعبارة موجزة أحل الكثير من المسلمين ما حرمه الله ، وحرموا ما أحله الله ، وكرهوا القنال والنضال ، واستحبوا العمى والضلال على النور والهدى ، فأصبح المسلم لا يرى إلا نفسه ، ولا يعمل إلا لارضاء شهواته بكل ما أوتي من الوسائل : صحت أو فسدت ، حرمت أو حلت

حاد المسلمون عن طريق الله فضلوا .

اعتصموا بغير الله فذلوا .

غلبتهم شهواتهم فتنخشوا ، وأصبحت أخلاق الرجال أشبه بأخلاق النساء ، يبددون أوقاتهم في قيل وقال ، وإضاعة المال ، وفيما ليس فيه فائدة .

وقد حذرهم الله تعالى في غير آية أنه لا يستخلف في أرضه ضعيفا مختثا ولا جبانا

برعديدا ولا مفسدا يؤثر حب نفسه وحب المال والنساء على مرضاة ربه والدفاع عما أمر به ، ومن أخذ إلى حب الدنيا ورضى بها فقد أثر ذل الحياة على عزها ، وعرض نفسه لنزع مافي يده واستخلاف غيره . فقال تعالى منذرا :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُم إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ، إِلَّا تَتَفَرَّوْا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة التوبة

وقد حقق الله وعده في المنافقين في صدر الاسلام واستبدل بهم من هم خير منهم من المسلمين الصادقين الذين نصروا الاسلام وأعزوه ورفعوا رايته عالية .

وهذه سنة الله الخالدة لا يرث الأرض إلا من كان صالحا ولو كان كافرا ، ولا يذل ولا يستعبد إلا من كان غاملا مخشيا ولو ادعى الاسلام ولبس ثوب المصلين وتزين بحلة الصائمين وتزعم المتعبدين والمتعبدين

الاسلام دين ايمان وعمل ، لا دين رياء وكسل . دين حق وتضحية ، لا دين باطل ومجبنة . دين فتوة وإصلاح ، لا دين خنوة وافساد . دين أمانة وعفة ، لا دين خيانة وفجور . دين يرعى الباطن كما يرعى الظاهر ، فهو طهارة الأخلاق وطهارة الأجسام . يحارب الفحش ويمتقه ويغض الرذيلة يعلن الحرب عليها جهارا نهارا في غير خوف ولا وجل

الله طيب ولا يقبل إلا الطيب ، هو رب قلوب لا رب مظاهر فارغة جوفاء ، أبان لنا عن سمة واضحة جليلة من أخذ بها فاز وسلم ، ومن تركها خاب وندم . فليعرض المسلمون أنفسهم على كتاب ربهم اليوم يروا أن القرآن الكريم حجة عليهم لا لهم ، وأنهم حاربوا الله بالعصيان فباموا في حياتهم بالفشل والخذلان ، فهم الفقراء في مالهم ، المستعبدون في أوطانهم ، الأذلاء في عشيرتهم وبين أولادهم ، بأسهم بينهم لا على عدوهم ، ليس لهم كرامة فترعى ولا دعوة فتستجاب ، استهانوا بحرمات الله واستباحوها ظلما وعدوانا ، فأهانهم وسلط عليهم من يسومهم الخسف والهوان ، فهم أضعف من أن يحاربوا دودة القطن وهي أهون جنود الله ، سلطها على الأرزاق

فأكلتها ومحتتها ، وسلط عليهم الأولاد والنساء وهى الناحية الضعيفة فى البنیان العالمی فأتلفوا المال والنفس ، وسرى العطب والفساد إلى كل شیء فأصبح وبالا وخسارا ، ومقتا وغضبا یبعث الألم والأسى . وهكذا إذا فسدت نفس الانسان فسد معها كل شیء ، وإذا صالحت صلح معها كل شیء ، ومن خاف الله خافه كل شیء ، ومن لم يخفه أخافه من كل شیء . ولو اتبع المسلمون دينهم حقا لتغير حالهم من إفساد وتدمير إلى إصلاح وتعمير ، وكانوا المثل العليا للمدنية الفاضلة التى لا تقوم إلا على الخير ، ولا تفعل إلا الخير لصالح الوطن والانسانية جمعاء

ان ميزة الاسلام التى انفرد بها هى أنه يساير التطور ويطاول الزمن ، فلا يمكن أن تكون فيه مناقضة للمدنية الصحيحة ولا معارضة للتقدم الحق

قال المسيو (بارتلى ستيلير) : « إن القرآن قد بقى أجمل أثر للغة التى نزل بها . ولم أر ما يشبه ذلك فى جميع أدوار التاريخ الدينى للعالم الإنسانى . وهذا الأمر يفسر التأثير العظيم الذى أحدثه هذا الكتاب على العرب الذين اعتقدوا بأن محمدا فى معارفه الساذجة لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب ، وأنه لا بد أن يكون قد أملاه عليه الملك جبريل تلك التعاليم هى التى رقت عقول الملايين من الناس . ولا تزال ترقى كل يوما شعوبا متأخرة بأشراؤها الحقائق الكبرى الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والخلقية والبيئية . وإن تمضى سنوات قليلة حتى تصبح افريقيا كلها دائنة للإسلام . والمائة والعشرون مليوناً من المسلمين فى آسيا الذين يزدادون كل يوم عددا لأدلة حيوية على عظمة ديانة الله (يريد الإسلام)

لم يأت محمد لمخافة التوراة والانجيل فإنه يقول بأن هذين الكتابين قد أنزلا من السماء مثل القرآن لهداية الناس الى الحق ، وان تعاليم القرآن جاءت مصدقة لهما وليكنه لم يأخذ منهما

وقد رفض جميع الرموز والأساطير ودعا الى عبادة إله واحد قادر رحمن رحيم كما يصفه بذلك فى رأس كل سورة

وقد أمر بخمس صلوات فى اليوم ليضطرب الانسان للتخلي عن اشتغالاته المادية لحظات فى اليوم ليرتفع فى خلها الى مولاه . وأمر أن لا تجعل العبادة وجهة لأغراض ذاتية ، فان الله أعلم بما هو أصالح لنا . وقد أوجب على المسلم أن يتصدق بحصة من

إيراده . وتلك غير الصدقة الاختيارية . وأوجب حماية المرأة بالاعتراف لها بحقوقها البيتية التي كانت غير معترف بها الى عهده بمنعه أو بتهذيبه مبدءاً تعدد الزوجات . وحسب الإطلاق بتحريم قتلهم تخلصاً من إعالنتهم ، وهي تلك العادة القديمة التي كانت منتشرة . ورعى حق الرقيق ، فأمر بمعاملته كعضو من الأسرة . وقد كان أول من قرر مبدءاً المساواة أمام العدالة بين جميع المسلمين ، من أغنى الناس وأقواهم الى أفقرهم وأضعفهم . وحرم المرققة والقتل والاكرام ، ومنع شرب الخمر والميسر

وقد أعلن محمد (ﷺ) بأن للانسان حياة مستقبلية فيها عقاب وثواب أبديان ، ولكن رحمة الله تدع آملاً للمذنبين في أن لا تكون عقوباتهم أبدية

الى أن قال : ان الدين الاسلامي قد أحدث رقياً عظيماً جداً في تدرج العاطفة الدينية ، فقد أطلق العقل الأنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد بين أيدي الكهنة من ذوى الاديان المختلفة ، فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ، يجازى فيها على أعماله . وباله واحد يمكنه أن يعبد ويرتفع بروحه اليه دون أن يضطر لتوسيط وسيط . . .

ثم إن محمداً بتجريمه للصور في المساجد وكل ما يمثل الله قد خالص الفكر الانساني من وثنية القرون الأولى الخشنة ، واضطر العالم بهذه الصورة أن يرجع الى نفسه ، وأن يبحث عن الله خالقه في صميم روحه ، وأن يرتفع اليه عقب ذلك بالعبادة القلبية المملوءة بالاحترام والشكر والحب

ان الناس لم يلمتقوا للترقى العظيم الذى أوجده الاسلام من الوجهة الأدبية . فإن ذلك الترقى تحقق بعيداً عنا في أمم اعتدنا أن نصفهم بالبرابرة لانهم ليس لديهم مثل أفكارنا ولا عقائدنا . ولأنهم متأخرون عنا من الوجهة العلمية والعقلية . ولكن مع هذا كله يجب الاعتراف بان هذه الحركة الدينية قد ساعدت وتساعد كل يوم لأنارة عقول أمم

والاسلام الخالص من كل التعاليم الخاصة بالشعوب الطفلة ومن كل الشروح الضالة لأقوال النبي يظهر لنا أنه أعظم ما يدركه الإنسان عن العلاقات التي يجب أن توجد بين الإنسان وخالقه ، وأكثرها انطباقاً بين الطبيعة والمنطق ، (١)

(١) منقولة عن (مجلة الأزهر) المجلد الرابع ص ٣٦٤ وما بعدها

وكتب الاستاذ مارسيل كابي وهو من أشهر كتاب فرنسا في جريدة (لافلش)
التي تصدر في باريس عن القرآن ما يأتي : « القرآن » كتاب موحى به ، وهو يفوق
ما عرف من هذا النوع كثيرا ، فإن العقيدة الروحية التي يبثها تصلح أن ينعكس نورها
على الحياة الاجتماعية ، وهذا سر قوة الاسلام وساحته ووحدته

و « القرآن » باسم الايمان الثابت على وجه الاطلاق يحمل للناس بدون سفسطات
بيانية ولا خيالات غير طبيعية أصول العدالة والنظام الاجتماعي الذي يخضع كل فرد
لمراعاة أدب الاجتماع . ويفرض على الجماعة حماية الأفراد ، وهو بهذا الأسلوب
يوافق في جوهره أحدث القواعد الاجتماعية العصرية

وكتابه قد نظم حدرد وحياة كل فرد وحياة المجموع

فهو يتناول الإنسان من يوم ميلاده ويتبعه الى يوم وفاته مراعيًا كل صغيرة
وكبيرة من حياته : غذائه وطهره وصلواته المصحوبة بحركات متناسقة ، وصومه
السنوي المطهر في شهر رمضان ، وزواجه وطلاقه ، وواجباته البيئية والاجتماعية ،
اي ما يجب على كل فرد للجماعة ، وما يجب على الجماعة لكل فرد ... (١) ، الخ

رب قائل يقول : اذا كان الاسلام كما تقولون فلماذا تأخر المسلمون وهذا كتابهم
بين أيديهم لم يتغير ولم يتبدل ؟ الجواب : ان الذي وقف في سبيل تقدم المسلمين
هو جهلهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وإعراضهم عنه ، وانغماسهم في الشهوات
والملاذات ، فباعوا دينهم بدنياهم ، وعاش كل لنفسه ، لأن الاسلام سهل مرن صالح
لكل زمان ومكان لا يتمرد على الطبيعة ولا يقف حجر عثرة في سبيل التقدم والحضارة
الحقة ، بل على النقيض من ذلك يدفع بمعتقيه الى أن يتبوءوا ذروة المجد ليسكونوا
في مصاف أرقى الأمم حضارة ومدنية .

قال أحد المفكرين الفرنسيين المنصفين المسيوديينه يصف طبيعة الاسلام : « لا
يتمرد الاسلام على الطبيعة التي لا تغلب ، وإنما هو يسير قوانينها ويزامل أزمانها

(١) قل عن العدد الصادر في ١٧ ابريل سنة ١٩٣٧ من جريدة لافلش التي تصدر في
باريس بتوقيع مارسيل كابي مترجمة بمجلة الازهر مجلد ٥ ص ٢٧٩

على أن الاسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وأن لا يتمرد عليها ، وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا وتطبيقا في إصلاح ونظام ورضاء ميسور مشكور ، حتى لقد سمي القرآن (بالهدى) لأنه المرشد الى أقوم مسالك الحياة ، ولأنه الدال على حسن مقاصد الخير ،

وقال الدكتور هورتن الألماني : لا نجد بالاسلام سدا يمنع نفوذ الثقافة الغربية اليه ، بل نرى أن له استعدادا غير محدود لقبول الثقافة ،

وانقل للقارئ نبذة مما كتبه الاستاذ الأمريكي الشهير (درابر) في كتابه (التنازع بين العلم والدين) :

قال جيبون (عند ذكر الحماية والرعاية التي بذلها المسلمون للعلوم) : كان أمراء المسلمين في الاقاليم يناظرون الملوك في حماية العلم والعلماء ، وكان من نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمي في المسافة الشاسعة التي بين سمرقند وبحارى الى فاس وقرطبة . ويروى عن وزير لاحد السلاطين أنه تبرع بمائتي ألف دينار (١٦٠٠٠٠ جنيه) لتأسيس كلية علمية في بغداد وأوقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنويا ، وكان عدد الطلبة فيها ستة آلاف لا فرق بين غنى وفقير .

فكان فيها ابن السيد العظيم وابن الصانع الفقير على السواء ، وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤنة دفع أجر التعاليم ، ويعطون الاساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة . وكانت المؤلفات الجديدة الأدبية تنسخ وتجمع سدا لحاجة العلم وشهوة الأغنياء في جمع الكتب ، (١)

هذه نبذة صغيرة من تاريخ الاسلام نحو العلم والتعليم يوم أن أخذ المسلمون بتعاليمه واتباع هدايته ، وليراجع من أراد الكتاب الذي الفنائه مكانة العلم في القرآن ، اذا أراد المزيد

وقال مستر ولز الانكليزي أكبر مؤرخي هذا العصر :

(١) « مكانة العلم في القرآن » تأليف الدكتور يحيى أحمد الدرديري ص ٨٣

كل دين لا يسير مع المدنية في كل طور من أطوارها فاضرب به عرض الحائط
ولا تبال به . لأن الدين الذي لا يسير مع المدنية جنباً الى جنب هو شر مستطير على
أصحابه يجرهم الى الهلاك . وان الديانة الحققة التي وجدتھا تسير مع المدنية أنى سارت
هي الديانة الاسلامية . واذا أراد الانسان أن يعرف شيئاً من هذا فليقرأ القرآن .
ان كثيراً من أنظمتہ تستعمل في وقتنا هذا . وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة . واذا
طلب منى أحد القراء أن احدد له الاسلام فأنى احدثه بالعبارة التالية : الاسلام هو
المدنية . وهل في استطاعة انسان أن يأتيني بدور من الأدوار كان فيه الدين الاسلامى
مغايراً للمدنية والتقدم ؟

ان محمداً هو الذى استطاع في مدة وجيزة لا تقل عن ربع قرن أن يكتسح
دولتين من أعظم دول العالم ، وأن يقلب التاريخ رأساً على عقب وأن يكبح جماح
أمة اتخذت الصحراء المحرقة سكناً لها . واشتهرت بالشجاعة ورباطة الجأش والأخذ
بالبثار واتباع آثار آبائها . ولم تستطع الدولة الرومانية أن تغلب الأمة العربية على
أمرها . فمن الذى يشك أن القوة الخارقة للعادة التي استطاع محمد أن يقهر بها خصومه
هي من عند الله ؟

أساس الإصلاح الذى ندعو اليه جميع المسلمين في مشارق الارض ومغاربها هو
أن يكون القرآن الكريم قبلتهم للتخلق بأخلاقه ، وأن يأخذوا ما يصلح لهم من
وسائل المدنية الغربية الحديثة وغيرها في الصناعة والتجارة والزراعة والعلوم ، وما
يرقى شأنهم ويعلى قدرهم ويحفظ مجدهم ويبقى حقهم

فإذا أراد المسلمون أن يستعيدوا ما كان لهم من عز وسلطان ، وأن يكونوا
خلفاء الله في الأرض ، فليصطالحوا مع ربهم ، وينفذوا ما جاء في كتابهم ، وذلك
بإصلاح نفوسهم ، والتوسل إلى رقى أمهم بالعلم والعمل ، والجهاد في سبيل حريتهم
واستقلالهم ، وتقوى الله في سرهم وعلائقهم ، وإقامة العدل بينهم وبين مواطنيهم ،
ورحماء بكل من سالمهم من انسان وحيوان .

ولهذا كان لزاماً على كل مسلم ومسلمة أن يقرأ كتاب الله ، وهو العهد (الكثرتا تو)

بينه وبين خالقه ، وينفذ ما جاء فيه من أمر ونهي ، كي يسود في الحياة عن معرفة بطرق علاجها وحل مشاكلها .

وقد وضعنا هذا التفسير الموجز بعد ، وهو منتخب من تفاسير علمائنا الأعلام وفقهائنا السكرام ، وقد اقتصرنا فيه على هداية القرآن التي هي الغرض الأول ، وتركنا ما عداه من نحو وصرف وبلاغة وبيان ، حتى لا نصرف ذهن القارئ عن الهدف المقصود من الهداية .

وإن معاني القرآن عامة وشاملة ، فلا يعد ويوعد ويعط ويرشد أشخاصاً مخصوصين ، وإنما ينيط وعده ووعيده وتبشيريه بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التي توجد في الأمم والشعوب ، سواء كان ذلك في الماضي أو الحاضر أو المستقبل . وإذا كان الدين ضرورياً لكل إنسان وفي كل زمان ، فنحن الآن في أشد الاحتياج إليه كاحتياجنا للماء والهواء والغذاء ، إن الدين طمأنينة عاطفة ، إنه الملجأ من العاصفة ، ومصائب الدنيا بدون الدين فراغ وجفاف وخداع وياس . ومن مزايا الدين أن يربطنا بمن حولنا في العالم رباطاً محكمًا يسيطر عليه الخالق ، ويربط دنيانا بآخرتنا في نظام شامل ، وهذا من غير شك مبعث أنس وطمأنينة لا يشعر بهما الكافر الملحد . فإذا وفقنا إلى ما نرى إليه فذلك فضل الله ، ويرجع ما علمنا إلى أصحاب الفضل من ساداتنا العلماء السالفين جزاهم الله عنا خير الجزاء ، وإلا فاستغفر الله فيما قصر عنه الفهم وزل فيه القلم ، وكفاني حسن القصد وشرف القاية ، والله أسأل الهداية والتوفيق لما فيه خير الإسلام والمسلمين والإنسانية جمعاء والحمد لله رب العالمين .

الدكتور يحيى أحمد الدرديري

سورة الفاتحة

مكية ، وآياتها سبع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

التفسير

(بِسْمِ اللَّهِ) قيل : المراد تضمين الاستعانة ، فتقديره استعينوا بأن تسموا الله
بأسمائه الحسنى ، وتصفوه بصفاته العلى . وقيل : المراد استعينوا بالله ، أى باسم الله
أقرأ وأتلو ، لأن الذى يتلو التسمية مقروء كما أن المسافر إذا حل أو ارتحل فقال
باسم الله والبركات كان المعنى باسم الله أحل وباسم الله ارتحل . و (الله) علم لذات
الواجب الوجود ، ولم يطلق على غيره . و (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من
الرحمة على طريق المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من الرحيم . والمعنى تعليم العباد كيف
يتبركون باسمه وكيف يحمدهونه ويمجدونه ويعظمونه .

(الحمد لله رب العالمين) الحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل ، فهو سبحانه
يستحق الحمد باجمعه . إن الله سبحانه وتعالى يحمد لذاته باعتباره أنه مصدر جميع
الوجود الممكن وما فيه من الخيرات والنعم . ويحمد لصفاته باعتبار تعلقها وآثارها
فى الوجود . وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : الحمد لله هو الشكر لله
والاستخذاء له والاقرار له بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك .

(رب) معناها السيد المربي الذي يسوس مسوده ويريه ويدبره .

(العالمين) جمع عالم وهو كل موجود سوى الله تعالى . وأريد به جميع الكائنات الممكنة ، أى انه رب كل ما يدخل فى مفهوم لفظ العالم . والعالم للغيب والشهادة وما تبصر وما لا تبصر من أرض وسما وانس وحيوان ونبات وجاد وملك وجان ما علمت وما لا تعلم . والله سبحانه هو المحيط بجميع هذه العوالم (قال فرعون وما رب العالمين) فاجابه موسى عليه السلام (قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) وقال تعالى (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى (رب العالمين) قال : إله الخلق كله ، السموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن ومن بينهن مما يعلم وما لا يعلم .

ومعنى الآية : ان الاوصاف الجميلة والثناء الحسن كلها لله الذى تحق له العبادة لكونه قادرا على أصول النعم وفاعلا لها ، ولكونه منشئا للخلق ومربيا لهم ومصالحا لنشأتهم . وفى الآية دلالة على ومجوب الشكر لله على نعمه ، وفيها تعليم لعباده كيف يحمده .

(الرحمن الرحيم) قال القرطبي : وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين بأنه الرحمن الرحيم ، كأن اتصافه رب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه والرغبة اليه فيكون أعون على طاعته وأمتع ، كما قال تعالى (نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وان عذابى هو العذاب الاليم) . و (الرحمن) هو المفيض بالغعم بسعة وتجدد لا منتهى لها و (الرحيم) الثابت له وصف الرحمة لا تزايله أبدا ، فربوبية الله ربوبية رحمة وإحسان ، وهذا ما يجعل الخلق يقبلون على اكتساب مرضاته منشرحة صدورهم ومطمئنة قلوبهم .

(مالك يوم الدين) يوم يدين الله العباد بأعمالهم ، لا يملك أحد معه فى ذلك اليوم حكما كملكهم فى الدنيا ، والله سبحانه ملك يوم الجزاء وهو الآخرة (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) وهذا هو يوم القيامة يدين الناس بأعمالهم : إن خيرا بخير ، وإن شرا فشر ، إلا من عفا عنه .

وهذه الآية دالة على إثبات المعاد ، وعلى الترغيب والترهيب ، لان المكلف اذا تصور ذلك لا بد أن يرجو ويخاف

(إياك نعبد) أى نخضع بالعبادة ، ولا نعبد إلا إياك ، فلا يعبد غيرك ، وليس لمخلوق طاعة فى معصيتك

(وإياك نستعين) . وبه وحده يستعين الانسان على ما عجزت قدرته عن أدائه ، وعلى النجاح فيما قدر عليه . أى وإياك نستوفق ونطلب المعونة على عبادتك ، وعلى أمورنا كلها . والتوفيق هو أن يجمع بين جميع الأسباب التى يحتاج اليها فى حصول فعل .

(اهدنا الصراط المستقيم) أى الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه ، أى ومنه يطلب الهداية الى الطريق المستقيم ، وهى سنته وأحكامه ، وجمله ما يوصلنا الى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وتعاليم .

(صراط الذين أنعمت عليهم) بالايمان الصحيح ، والعمل الصالح ، وثمرتهما وهى سعادة الدارين . أولئك المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، أى صراط الذين أنعمت عليهم فضلا وإحسانا منك .

(غير المغضوب عليهم) المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به ، والذين بلغهم شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه ، انصرفا عن الدليل ، ووقفوا عند التقليد ، بايثارهم الباطل على الحق ، وترجيحهم الشر على الخير ، ومنهم المنافقون والمشركون . قال تعالى (ويعذبُ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) ومنهم اليهود كما ورد فى الحديث الصحيح . وغضب الله فسروه بلازمه وهو العقاب ، وقيل هو إرادة الانتقام من العصاة وإنزال العقوبة بهم ، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك اذا غضب على من تحت يده .

(ولا الضالين) والضلal فى لسان العرب هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق ، وأولئك هم الذين لم يعرفوا الحق البتة ، أو لم يعرفوه على وجهه الصحيح

الذى يقرن به العمل . قال تعالى ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فخبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴾ ومنهم النصارى كما ورد في الحديث الصحيح . ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها « آمين » ومعناها : اللهم استجب . اشتملت هذه السورة الكريمة - وهى سبع آيات - على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاد عبده الى سؤاله والتضرع اليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له ، وتوحيده بالالوهية تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم إياه الهداية الى الصراط المستقيم وهو الدين القويم ، وتثبيتهم عليه حتى يقضى لهم بذلك الى جواز الصراط يوم القيامة المفضى بهم الى جنات النعيم فى جوار النبين والصديقين والشهداء والصالحين ، واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة وهى كثيرة متعددة من إصلاح النفس والولد والبيت والوطن والانسانية حتى ينعم الإنسان بسعادة الدنيا والآخرة والتحذير من مسالك الباطل لئلا يمحشر مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون .

سورة البقرة

مدنية ، إلا آية ٢٨١ فنزلت بمضى في حجة الوداع

عدد آياتها مائتان وست وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الْم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا
أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

التفسير

(الْم) اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور ، فقيل : هي سر
الله في القرآن . والله في كل كتاب من كتبه سر ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله
بعله . ولا يجب أن يتكلم فيها . ولكن تؤمن بها وتقرأ كما جاءت .

وقيل : ذكر الله تعالى هذه الحروف احتجاجاً على الكفار ، وذلك أن الرسول
صلوات الله عليه لما تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو بسورة
واحدة فمجزؤا عنه ، أنزلت هذه الحروف تنبيها على أن القرآن ليس إلا من هذه
الحروف ، وأنتم قادرون عليها ، وعارفون بقوانين الفصاحة ، فكان يجب أن تأتوا
بمثل هذا القرآن ، فلما مجزؤتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من البشر .

وقيل : إن الله تعالى أقسم بهذه الحروف المعجمة لشرفها من حيث أنها أصول
اللغات ، بها يتعارفون ، ويذكرون الله ويوحّدونه . واقتصر على البعض والمراد الكل

كما تقول قرأت الحمد وتريد السورة كلها ، وأقسم الله بها أن هذا الكتاب هو المثبت في اللوح المحفوظ

وقيل : انها أسماء للسور ، وقيل غير ذلك

(ذلك الكتاب) أى كتاب معروف معهود للنبي ﷺ بوصفه ، وذلك العهد مبنى على صدق الوعد من الله بأنه يؤيده بكتاب تام كافل لطلاب الحق بالهداية والارشاد في جميع شئون المعاش والمعاد . فأشار بذلك إليه (١) .

والإشارة البعيدة بالكاف يراد بها بعد مرتبته في الكمال وعلوها عن متناول قريحة شاعر أو مقول خطيب قوال . والبعد والقرب في الخطاب الإلهي إنما هو بالنسبة إلى المخلوقين .

(لا ريب فيه) أى لا شك فيه ، ولا ريبه تعريه ، لا في كونه حقاً لا بآتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا من جهة كونه من عند الله تعالى وفي كونه هادياً ومرشداً

(هدى للمتقين) المراد بالهداية هنا الدلالة على الصراط المستقيم للجميع والقبول من المتقين . (والمتقون) الذين يحذرون من الله العقوبة في ترك ما يميل الهوى إليه ، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء به أى بامثال أمره ، واجتناب نهيه ، واتقاء عذابه وعقابه .

ولما وصف القرآن بانه هدى للمتقين بين صفة المتقين فقال :-

(١) هذه الإشارة ذكرت في عدة مواضع من القرآن الكريم فقد جاءت في دعوة سيدنا ابراهيم عليه السلام حينما كان يرفع الفوائد من البيت (يعنى الكعبة) اذ قال (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم) وقال ﷺ : أنا دعوة ابراهيم ، وقال تعالى في موضع آخر من سورة البقرة (كما أرسلنا فيكم رسولا منهم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)

(الذين يؤمنون بالغيب) الإيمان : هو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها واستسلامها . وآيته العمل بما يقتضيه الإيمان

(والغيب) ما غاب عنه عنهم كذات الله تعالى وملائكته والدار الآخرة

(ويقيمون الصلاة) إقامة الصلاة : الاتيان بهذه العبادة الروحية البدنية على أكمل وجه ممكن . وللصلاة صورة وروح ، فصورتها عبادة الأعضاء ، وروحها عبادة القلب

وقوام الصلاة الذي يحصل بالإقامة هو التوجه إلى الله تعالى والخشوع الحقيقي له والإحساس بالحاجة إليه

(وعما رزقناهم ينفقون) الرزق ما انتفع به . والانفاق (الصرف) هنا يشمل النفقة الواجبة على الأهل والولد بالعدل والقسطاس ، وصلة ذوي القربى ، وصدقة التطوع ، وهذه تكون للفقراء والمساكين أو لمصلحة من مصالح المسلمين ومنفعة من منافعهم العامة كبناء المدارس لمحاربة الجهل والمستشفيات لمحاربة المرض وإنشاء مهمات تعارفية ومؤسسات اقتصادية لمحاربة الفقر حتى تكون الأمة عزيزة الجانب قوية السلطان ، والله العزة والرسولة وللمؤمنين

(والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) والذين يؤمنون بما أنزل إليك : ويراد بالإيمان الإيمان التفصيلي لكل ما أنزله الله تعالى في القرآن على محمد ﷺ (وما أنزل من قبلك) فيكفي فيه الإيمان الاجمالي بالكتب والرسول . وفي هذا دلالة على أن كل الأديان السماوية دعت إلى التوحيد ، وأن مصدرها واحد وهو الله عز وجل ، وأن القرآن جاء يدعو لربط الإنسانية بعضها ببعض

(والآخرة هم يوقنون) المراد به الحياة الآخرة حيث الجزاء على الأعمال ويتضمن كل ما وردت به النصوص القطعية من الحساب والجزاء بالجنة والنار . و (اليقين) هو الاستقاد المطابق للواقع الذي لا يقبل الشك ولا الزوال

(أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) أولئك أي الذين هذه صفتهم

على هدى من ربهم . هذه الآية للفرقة الأولى ، فقد أشعر الله قلوبهم الهداية بما آمنوا به من الغيب وأقاموا الصلاة وأنفقوا بما رزقهم الله فهم على رشاد ونور من ربهم . وأما الفرقة الثانية ، وهم المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ فعلى هدى تشترك فيه الفرقة الأولى لكن على وجه أكمل لأنها مؤمنة بالقرآن وعاملة به . وقوله على هدى تعبير يفيد التمكن من الشيء كتمكن المستقيم عليه . وإلى الفرقة الثانية وقعت الإشارة الثانية « أولئك هم المفلحون » كما هو ظاهر وهم المفلحون (الفائزون) بالفعل لا تصافهم بالإيمان الكامل بالقرآن وما تقدمه من الكتب السماوية واليقين بالآخرة ، وعلى هذا يكون المعنى : أولئك هم المقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة

*

وأهداف القرآن في هذه الآيات المتقدمة :

(١) انجاز وعد الله لرسوله ولمن سبقه من الرسل بارسال كتاب فيه هداية وإرشاد لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا شك فيه ولا فيما نزل به (انظر آية ١٢٨ و ١٥٣ من سورة البقرة)

(٢) تقسيم أصحاب الفطرة السليمة الذين تقبلوا هداية إلى قسمين :

(أ) أهل الكتاب في وصفهم الله تعالى بالإيمان بالغيب والقيام بما أمروا به من صلاة وزكاة ، ولما جاءهم ما عرفوا (القرآن) آمنوا به

(ب) وغير أهل الكتاب ، وهم الذين صدّقوا بالقرآن وما جاءت به الكتب السماوية من قبله وباليوم الآخر

(٣) هذه الهداية التي تقبلها المتقون بالتصديق والعمل بما جاءت به لهم كانت طريق الفوز والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ
 اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنْ

النَّاسَ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

التفسير

(إن الذين كفروا) هذا بيان لحال القسم الثاني من أقسام الناس تجاه هداية القرآن .

والكفر : ستر الشيء ، وتغطيته ، وإخفاؤه . والكفر هنا عبارة عن
وجود ما صرح الكتاب المنزل أنه من عند الله ، أو وجود الكتاب نفسه ، أو
النبي الذي جاء به ، وبالجملة وجود ما علم من الدين بالضرورة .

والمعنى : أن من جحد الله أو أنكر وحدانيته أو أنكر شيئاً مما أنزله على رسوله
أو أنكر نبوة محمد ﷺ أو أحد من الرسل فهو كافر . نزلت في مشركي العرب وقيل
في اليهود

(سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) والمعنى أن الذين كفروا ولم يدخلوا في
قسم المؤمنين الذين تقبلوا الحق لما جاءهم لرسوخهم في الكفر ، يستوى الإنذار
وعدمه بالنسبة إليهم في الواقع . والإنذار : إعلام مع تخويف

(لا يؤمنون) هذه جملة مفسرة لتساوى الإنذار وعدمه في حقهم ، أي لا
يصدقون ولا يذعنون لما جاء به القرآن الكريم

(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) ختم أي طبع
هذا التعبير مثل لمن تمكن الكفر في قلوبهم حتى فقدوا الدواعي والأسباب التي

تعطفهم إلى النظر والفكر في أدلة الايمان ومحاسنه ، ختم الله على قلوبهم فلا يعقلون ولا يدخلها غير ما رسخ فيها ، وخص القلب بالختم لانه محل الفهم والعلم وهو لب الانسان وآلة عقله وشعوره . وعلى سمعهم فلا يسمعون آيات الله المنزلة سمعاً تأمل وتفقه . والغشاوة ما يخطى به الشيء . والمراد أن أبصارهم لا تدرك آيات الله المبصرة والدالة على الايمان .

وقد أسند الختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلى الله تعالى لانه بيان لسنته تعالى في أمثالهم ، وعبر عنه بالماضى للدلالة على أنه أمر قد فرغ منه ، وهو لا يدل على أنهم مجبورون على الكفر ولا على منع الله تعالى إياهم فيه بالقهر ، وإنما هو تمثيل لسنته تعالى في تأثير تجربتهم على الكفر وأعماله في قلوبهم ، بأنه استحوذ عليهما وملك أمرها حتى لم يعد فيها استعداد لغيره كما تقدم . ولذا لم يستد الغشاوة إلى فعله سبحانه حتى لا يكون هو سبحانه منعه من إبطار آياته ، ولكن أهواهم منعتهم

(ولهم عذاب عظيم) ان الأعراض عن هدى الاسلام وما أرشد اليه من إصلاح المعاش والمعاد جزؤه الضنك وفقد العزة والسلطة في الدنيا والعذاب العظيم في العقبي وعظمة العذاب ، أى أنه بالغ حد العظمة كماً وكيفاً ، فهو شديد الايلام طويل الزمان .

ينقسم الناس إزاء هداية القرآن إلى أقسام ذكرنا منها ثلاث فرق ، فرقتان لهما فيه هدى - إحداهما المتقون ووصفهم بأنهم (الذين يؤمنون بالغيب) الخ ، ومنهم الذين كانوا يدعون الخيفين ، والمنصفون من أهل الكتاب الذين كانوا ينتظرون إشراف نور الحق ليهتدوا به كما تقدم . والثانية هي المذكورة في قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) الخ ، وهم كل من آمن بالنبي ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم على التحقيق .

ويوجد بازاء هاتين الطائفتين طائفتان أخريان لا ترجى هدايتهما بالقرآن ، الأولى منهما هي المشروح حالها في قوله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) الخ ، وهم الذين غلبتهم شهواتهم على أمرهم فعاشوا في أسرها فطمست نور بصيرتهم فعموا عن طريق الهداية ولجوا في طريق الغواية والضلالة وهي كما قدمنا

وتنقسم إلى قسمين : جاحدين لا يسمعون ، ومعاندين يعرفون الحق ولا يذعنون . وهذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها هي المبينة لحالة الفرقة الرابعة وهي فرقة من الناس توجد في كل آن وفي كل عصر

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)

ومدلول الآية أن من أظهر الايمان — واعتقاده بخلافه — لا يكون مؤمنا ، لأن الايمان لم يكن له أثر في أخلاقهم وأعمالهم ، فصلاتهم وصدقاتهم إنما مبعثها رثاء الناس وحب السمعة ، وهم من وراء ذلك ينغمسون في الشرور كالافساد والكذب والغش والخيانة والطمع وغير ذلك من الرذائل التي حكها عنهم الكتاب ، وهذه الأعمال تدل على أنهم لا يؤمنون بالله كما يجب ويرضى

(يخادعون الله والذين آمنوا) والخداع العمل الظاهر الذي لا يصدقه الباطن ، إذا قصد به إرضاء آخر . ولما كان إخفاء شيء عن الله تعالى محالاً فسروا خداعتهم لله هنا وهناك بأنها خداع في الصورة لا في الحقيقة ، وذلك أنه شرع أن يعاملوا معاملة المؤمنين ، ولكنهم لا يجزون جزاءهم في الآخرة ، بل يكونون في الدرك الأسفل من النار ، وخداعتهم للمؤمنين ، لأنهم اتخذوهم أعداء وهم عاجزون عن إظهار عداوتهم .

(وما يخدعون إلا أنفسهم) لأن ضرر عملهم خاص بهم ، وعاقبته وبال عليهم وحدهم .

(وما يشعرون) أي لا يعلمون أن وبال خداعهم راجع عليهم

فكل مؤمن بالله وباليوم الآخر ومع ذلك يصدر في عمله عن شهواته ولا يمتنع لإيمانه عن ركوب خطيئاته فاعتقاده إنما هو خيال ، لا يعلو عن لفظ في مقال ، ودعوى عند جدال . فاذا ركن إلى هذا المعتقد فهو خادع لنفسه ، مخادع لربه ، يظن أن علام الغيوب ، لا ينظر إلى مافي القلوب ، !

(في قلوبهم مرض) أي ان نفوسهم خرجت عن حد اعتدالها ، وأصبحت بما يخل كمالها من نفاق وجمل وارتياح وشك .

(فزادهم الله مرضاً) بعد ما جاءهم الهدى من ربهم ، ووجدوا من زعزعه في أنفسهم . ولكن أخذتهم العزة بالاثم فأبوا الايمان ، ونأوا عن القرآن . وقد كانت الآيات تنزل تترى أى آية بعد آية ، فكلموا كفروا بآية ازدادوا بعد ذلك كفرا ونفاقا (ولهم عذاب أليم) أى عذاب مؤلم فوق هذا المرض .

(بما كانوا يكذبون) فى دعواهم الايمان بالله واليوم الآخر ، فإنهم لم يصدقوا بأعمالهم ما يزعمونه فى حالهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَأْمُونًا كَمَا مَنَّ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا مَنَّ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

التفسير

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ) يعنى المنافقين . وقيل اليهود ، والمعنى اذا قال لهم المؤمنون (لا تفسدوا فى الارض) بصدكم عن سبيل الله من آمن ، وطعنكم فى الدين ، وتنفير الناس عن اتباع محمد والاخذ بما جاء به من الاصلاح . وأى افساد فى الارض أعظم من التنفير عن اتباع الحق ، وعن الاعتصام بدين فيه سعادة الدارين ؟

(قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) والمعنى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تفسدوا فى الارض إذا وكبروا معصية الله وقيل لهم لا تفعلوا كذا وكذا قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ عَلَى الْهُدَى مُصْلِحُونَ

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمَفْسُدُونَ ﴾ ردأ عليهم وتكذيباً لهم . أى هم الذين آثروا الباطل على الحق وصدوا الناس عن الهداية ودعواهم الى الضلالة

﴿ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ فان هذا إفساد غرز في طبائعهم بما تمكن فيها من الشبهة بتقليد رؤسائهم الذين أشربوا عظمتهم . فهم يظنون أن ما هم عليه من النفاق وإبطان الكفر صلاح وهو عين الفساد ، وقيل لا يشعرون بما أعد لهم من العذاب وسوء الخاتمة في الدنيا والآخرة

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أى صدقوا بمحمد ﷺ وشرعه كما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب كعبد الله بن سلام وأمثاله من علمائكم .

﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ السفه معناه الطيش وخفة العقل وضعف الرأى ، ويعنون بالسفهاء أتباع النبي ﷺ ومؤمنى أهل الكتاب .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾ أى وحدهم دون المؤمنين المصدقين بالله وبكتابه وبرسوله وثوابه وعقابه .

﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أن السفه محصور فيهم ، ومقصود عليهم .

﴿ وَإِذَا لقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ كان أو أشك النفر يدهنون في دينهم ، فإذا لقوا المؤمنين قالوا : آمنا بما أنتم به مؤمنون ، ﴿ وَإِذَا خلوا إلى شياطينهم ﴾ من دعاة الفتنة وعمال الفساد وأنصار الباطل الذين يصدون عن سبيل الحق بما يقيمون أمامه من عقبات الوسوس والأوهام .

﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾ أى إنا معكم على عقيدتكم وعملكم ، وإنما نستهزئ . بالمسلمين ودينهم ، فكشف القرآن هذا اللون وهذه الذبذبة ، وقابلهم عليها بما هدم بنياهم وفضح بهتانهم فقال ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أى ينتقم منهم ويعاقبهم ، ويستخر بهم ويجازيهم على استهزائهم ، فسميت العقوبة باسم الذنب

﴿ وَيَمْدَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ العمه عى القلب وظلمة البصيرة والحيرة في الكفر أن يطيل لهم المدة (الارخاء) ويمهلهم في ضلالهم وكفرهم متحيرين

مترددين ، ليزدادوا طغيانا فيزدادوا عقابا .

(أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أولئك القوم يعني المنافقين اختساروا الضلالة على الهدى لفائدة عاجلة لهم بازائها يشتغون الحصول عليها من الناس ، وليس أحسن من يشتري الضلالة بالهدى ، نخسرانه مضاعف بما فقد وبما أخذ (فما ربحتم تجارتهم) التجارة هنا هي المشار إليها باشتراء الضلالة في الدنيا ، إذ لم تثمر لهم ثمرة حقيقية ، بل خابوا وخسروا باهمالهم النظر الصحيح الذي لا تقوم المصالح ولا تحفظ المنافع إلا به

(وما كانوا مهتدين) أي مصيبين في هذه التجارة ، لأنهم باعوا فيها ما وهبهم الله من الهدى والنور بظلمات التقاليد وضلالات الأهواء والبدع التي زجوا أنفسهم فيها .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ (١٧) صَمَّ بَكْمٍ عَمَى فُهِمٌ لَا يُرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبُعَهُمْ فِي مَآذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذِرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلًّا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَاهُ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

التفسير

(مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) المثل والمثيل ، كالشبهه والشبيه ، وهو عبارة عن قول يشبهه قولا آخر أى بينهما مشابهة ليعين أحدهما الآخر ويصوره . ولما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقب بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان .

واستوقد النار طلب وقودها بفعله أو فعل غيره

والوجه في التمثيل أن من يدعى الإيمان بكتاب نزل من عنده قد طلب بذلك الإيمان أن توقد له نار يتهدى بها في المشبهات ، ويستضيء بها في ظلمات الريب والمشكلات . ﴿ فلما أضأت ما حوله ﴾ بما أودعته من الهدى والرشاد ، وكاد بالنظر يمشي فيها على هداية وسداد هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث ، وعصب عينيه شيطان الغرور ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ أي ذهب عنه نور الاسلام وهدايته ، وأطبق عليه جو الضلالة ، بل طفيء فيه نور الفطرة السليمة .

﴿ وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ أي لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ، هذا المثل مضروب لفريق لا ترجى هدايته ، لأنه سد على نفسه جميع أبواب الهداية فلا يثق بعقله ولا بحواسه ولا بوجوده إذا خالفت تقاليده . ولذلك عقبه بقوله تعالى ﴿ صم بكم ﴾ أي أنهم فقدوا منفعة السمع الذي يؤدي إلى النفس ما يليق به من الحجج والبراهين ، فكأنهم صم لم يسمعوا . وبكم فقدوا منفعة الاسترشاد بالقول والسؤال وطلب الحكمة من معاهدها ، فلا يسألون بيانا ولا يطلبون برهانا ﴿ عمى ﴾ أي فقدوا خير منافع الأبصار وهو نظر الاستضاءاة والاعتبار ، ﴿ فهم لا يرجعون ﴾ عن ضلالتهم ، ولا يخرجون من ظلماتهم .

﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾

هذا مثل الفريق الثاني من الناس المتردد والمتشكك لا يبغي الهداية ، وإنما يبغي النفع والفائدة له على حساب فقد دينه وفطرته ، فهو يتردد بين القبول والرفض . والمراد من الصيب المطر والسحاب ، وهو الإيمان والقرآن ، فكأن الصيب يحوي الأرض فكذلك الإيمان والقرآن يحويان النفوس . والرعد هو الأشياء الشاقة على المنافقين ، وهي التكالييف الشاقة من الصلاة والصوم وترك الرياسات والجهاد وترك الأدبان القديمة والانقياد لمحمد ﷺ مع شدة استنكافهم عن الانقياد له . فكأن الإنسان يبالغ في الاحتراز عن المطر الصيب الذي هو أشد الأشياء نفعا بسبب هذه الأمور المقارنة ، فكذلك المنافقون يحترزون عن الإيمان والقرآن بسبب هذه

الأمور المقارنة.

والمراد من قوله ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ أنه متى حصل لهم شيء من المنافع وهى عصمة أموالهم ودمائهم وحصول الغنائم لهم فانهم يرغبون فى الدين ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أى متى لم يجدوا شيئاً من تلك المنافع يكرهون الايمان ولا يرغبون فيه ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ على أنه تعالى جعلها لهم ليتوسلوا بها إلى الهدى والفلاح ، إلا أنهم صرفوها إلى الحظوظ العاجلة . وسدوها عن الفوائد الآجلة ، ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التى يجعلونها لأنفسهم ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ
مِنَ الشَّجَرِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي
رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا
النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * (٢٤)

التفسير

﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ : اثر ما ذكر الله تعالى من علو طبقة كتابه للكريم ، وتحزب الناس فى شأنه إلى ثلاث فرق : (مؤمنة) به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام ، و (كافرة) قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق ، وأخرى (مذبذبة) بينهما بالخادعة والنفاق ، ووصف كل فرقة منها بما لها من النعوت والأحوال ، وبين ما لهم من المصير والمآل ، أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات

هزأ لهم إلى الاصغاء ، وتوجيهها لقلوبهم نحو التلقى ، فأمرهم كافة بعبادته ، ونهاهم عن الاشرار به . وهذه الدعوة هي أساس بناء الانسانية العامة الكاملة بأن لها ربا واحدا يعبد دون غيره ، والكل متساوون امام هذه العبادة التي تقتضى الطاعة لأمره واجتناب نهيها ، قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس ﴾ سواء كانوا من أهل الكفر أو من أهل الإيمان ﴿ اعبدوا ربكم ﴾ جميعا عبادة خشوع وإخلاص وأدب وحضور ، كأنكم تنظرون إليه وترونه ، فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم . والإخلاص في العبادة باستحضار معنى الربوبية ، فإنه هو ربكم الذى أنشأكم فيما لا تعلمون ، وغذاكم بنعمه ، ونماكم بكرمه ، فإن هذا الرب العظيم ﴿ الذى خلقكم و ﴾ خلق ﴿ الذين من قبلكم ﴾ قد رباكم كما ربي سلفكم ، ووهبكم من الهدايا مثل ما وهبهم ، فمن شكر منهم ومنكم زاده نعمنا ، ومن كفر بهذه النعم جعلنا عليه نقما

يقول تعالى لجميع عباده : اعبدوني ملاحظين معنى الربوبية والمساواة في المواهب الخلقية التي توهمكم للسعادة الحقيقية ﴿ لعلمكم تمقنون ﴾ فإن العبادة على هذا الوجه هي التي تعدكم للتقوى أى تصيرون في ستر ووقاية من عذاب الله ، وذلك بامتثال أمره واجتناب نهيها . وذكرهم ببعض خصائص الربوبية التي تقتضى الاختصاص بالعبودية فقال ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾ بما مهدها وجعلها صالحة للافتراش والاقامة عليها والارتفاق بها لأجل منفعتكم ﴿ والسماء بناء ﴾ متناسكا لكيلا تقع على الأرض فتسحقكم . والسماء مجموع ما فوقنا من العالم ، والبناء وضع شيء على شيء بحيث يتكون من ذلك شيء بصورة مخصوصة . وقد كون الله السماء بنظام كمنظام البناء وإنما ذكر السماء والأرض جل ثناؤه فيما عدد عليهم من نعمه التي أنعمها عليهم لأن منهما أقواتهم وأرزاقهم ومعاشيهم ، وبهما قوام دنياهم ، فأعلمهم أن الذى خلقهما وخلق جميع ما فيهما وما هم فيه من النعم هو المستحق عليهم الطاعة ، والمستوجب منهم الشكر والعبادة ، دون الأصنام والالوثان التي لا تضر ولا تنفع ثم ذكر نعمة الامداد الذى تحفظ به هذه الأجساد وهي مادة الغذاء التي بها النمو

والبقاء فقال : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ أى غذاء وأقواتا . الثمرات ما يحصل من النبات نجما كان أو شجرا . وإذا كان الزارع والغارس يبذر البذر ويغرس الفسيل ، فالله هو المنزل للمطر الذى يسقى به ، والله وحده هو القادر على إنباء الزرع وإثماره

وبعد أن عرفنا الله تعالى بأنفسنا وبنعمته علينا وعلى سلفنا ، وبعد أن عرفنا بذاته الكريمة وبآثار رحمته ومننه العظيمة ، صرنا جديرين بأن نعلم أن العبد عبد فلا يعبد ، وأن الرب رب فلا يشرك به قال ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ والانداد جمع ند ، وفسر بالشريك وهو المضارع والكشف والعدل ، أى لا تجعلوا لله أندادا من سلفكم المخلوقين مثلكم تطلبون منهم مالا يطالب إلا منه وهو كل ما تعجزون عنه ولا يصل كسبكم اليه ، لا تفعلوا ذلك فانهم فى العبودية مثلكم ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أى حال أنكم تعلمون أنه لاند له ، لأنكم إذا سئلتهم : من خلقكم وخلق من قبلكم ؟ ومن يرزقكم من السماء ؟ ومن يدبر الأمر ؟ تقولون : الله . فلماذا تستغيثون إذن بغير الله ؟ وتدعون غير الله ؟ . نهام الله تعالى أن يشركوا به شيئا ، وأن يعبدوا غيره ، ويتخذوا له ندا وعدلا فى الطاعة فقال : كما لا شريك لى فى خلقكم وفى رزقكم الذى أرزقكم وملكى اياكم ونعمتى التى أنعمتها عليكم فكذلك فأفردونى بالطاعة وأخلصوا لى العبادة ، ولا تجعلوا لى شريكا وندا من خلقى ، فانكم تعلمون ان كل نعمة عليكم فهمى منى

وبعد أن بين الله أحوال الناس ، وموقفهم إزاء الدعوة الاسلامية إلى التوحيد ، تحداهم بالكتاب الذى يدعو اليه ويناضل عنه ، ذلك الكتاب لا ريب فيه فقال :

﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾

عبر عن كون الريب يان للايدان بأن من شأن هذا التنزيل أن لا يرتاب فيه ، لأن الحق فيه ظاهر بذاته . والتنزيل من مادة نزل وتفيد أن القرآن نزل بنجوم متفرقة . من مثله : الضمير فى مثله لعبدنا ، أى فان أحد عن يماثل الرسول بالامية يقدر على الاتيان بسورة فليفعل ، فالله سبحانه قال لمن حاجه فى نذبه محمدا ﷺ من

الكفار : فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن من كلامكم أيتها العرب كما أتى به محمد بلغاتكم ومعاني منطقتكم

قال تعالى ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ الذين يشهدون لكم أنكم أتيتم بسورة من مثله ،
 أى ادعوا كل من تعتمدون عليه ليشهد لكم ﴿ من دون الله ﴾ أى ادعوا كل أحد
 غير الله ليؤيد دعواكم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فى دعواكم : يعنى بذلك ان كنتم فى
 شك فى صدق محمد ﷺ فيما جاءكم به من عندى أنه من عندى فأتوا بسورة من
 مثله ، وليستنصر بعضهم بعضا على ذلك إن كنتم صادقين فى زعمكم

﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ أى فإن لم تأتوا بسورة من مثله وما أتم بفاعلين
 لأن هذا ليس فى طاقة المخلوقين ، فجمله ﴿ ولن تفعلوا ﴾ جملة تفيد تقوية الدليل
 وتقرير عجزهم أى لا تقدرّون على ذلك ولا تطيقونه ﴿ فاتقوا النار ﴾ وهى موطن
 عذاب الآخرة وهى من عالم الغيب تؤمن بها ولا نبحث عن حقيقتها ، أى فاتقوا أن
 تصلوا النار بتكذيبكم رسولى بما جاءكم به ﴿ التى وقودها الناس والحجارة ﴾ الوقود :
 ما توقد به النار ، والحجارة : المراد بها الأصنام . لأن أكثر أصنامهم كانت من
 حجارة . وإنما قرن الناس مع الحجارة لأنهم كانوا يعبدونها معتقدين فيها أنها تنفعهم
 وتشفع لهم فجعلها الله عذابهم فى نار جهنم

﴿ أعدت للكافرين ﴾ والمراد بالكافرين الذين لا يقيمون دعوة الأنبياء عليهم
 السلام ، والذين ينحرفون عن أصولها بعد الأخذ بها لبدع يبتدعونها وتقاليد
 يحدّثونها . وأعدت : أى هيئت النار لمثل هؤلاء .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 كُلًّا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا
 وَلَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مُمْسِقَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)

التفسير

قال تعالى ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ لما ذكر الله عز وجل جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا ، وبين أن الخير المفرح السار للذين آمنوا بما جاء به القرآن .

﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أى أن الذى يستحق البشارة هو من جمع بين الايمان والعمل الصالح الذى ترشد إليه الفطرة السليمة ويهدى إلى تحديده الكتاب العزيز وسنة الرسول المتبعة .

﴿ أن لهم جنات ﴾ أى لهم بساتين ، والمراد دار الخلود ، تؤمن بها بالغيب ولا تبحث عن حقيقتها .

﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ والمناسبة ظاهرة ، فان البساتين حياتها بالأنهار ، ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا ﴾ أى كلما رزقوا أى أطعموا من الجنات رزقا (طعاما) من بعض ثمارها ﴿ قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ﴾ أى هذا الذى وعدنا به فى الدنيا جزاء على الايمان والعمل الصالح

﴿ وأتوا به متشابها ﴾ أى ان رزق الجنة وثمرها يتشابه على أهلها فى صورته ويختلف فى طعمه ولذته

﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أى بما فى نساء الدنيا من الأحوال المستقذرة كالحيض والدرن ودنس الطبع وسوء الخلق . والتطهر يستعمل فى الأجسام ، والأخلاق ، والأفعال .

﴿وهم فيها خالدون﴾ أى يمكثون فيها ولا يخرجون منها ولا هي تفنى بهم
فيزلوا بزوالها وإنما هي حية أبدية لا نهاية لها

﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾

أى إن الله تعالى لا يترك ضرب مثل ما من الأمثال حياء منه ، سواء كان بعضها
بعوضة أو أصغر منها حجماً وأقل عند الناس شأنًا ، لأنه خالق كل شيء

وذلك جواباً عنه جل ذكره لمن أنكر من منافق خلقه ما ضرب لهم في المثل
بموقد النار والصيب من السماء على ما نعمتهما به من نعمتهما ، فقد قال المنافقون إن الله
أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال فانزل الله هذه الآية . وقيل إن معنى إن الله لا
يستحي أن الله لا يخشى أن يضرب مثلاً أى إن الله لا يخشى أن يصف شيهاً لما شبه به
الذى هو ما بين البعوضة إلى ما فوق البعوضة من الحق

﴿فأما الذين آمنوا فاعلموا أنه الحق من ربهم﴾ أى فأما الذين صدقوا الله
ورسوله فيعرفون أنه ليس نقصاً ، وإنما هو صدق وحق ، لأنه مبين للحق

﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾

أما الجاحدون فيجادلون في الحق ويذهب جدلهم إلى قياس رب العالمين بمتنطعي
المتأدين . وينكرون على ربهم المثل والقياس ، ولا ينكرونه على أنفسهم وعلى الناس

﴿يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً﴾

أى يضل بالمثل أولئك الذين يجعلونه شبهة على الإنكار والريب ويهدى به الذين
يقدرون الأشياء بغاياتها وهم المؤمنون ويحكمون عليها بحسب فائدتها

﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾

والفسوق : الخروج . أى يضل به الخارجين عن هداية الله تعالى في سنته في
خلقه التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر وبكتابه

الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ
تَرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ
فَنَسَّاهُنَّ سَمِيعًا وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

التفسير

﴿الذين ينفقون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أى الذين يفسدون ما أبرمهم الله من
العهد «الميثاق»، وهو ما أخذهم به بمنحهم هذه السنن المعهودة للناس بالنظر والاعتبار
أو العقل والحواس المرشدة إليها، ونقضه عبارة عن عدم استعمال تلك المواهب
استعمالاً صحيحاً، والعهد: فطرى خلقى، ودينى شرعى. والميثاق: اسم لما يوثق به
الشيء ويكون محكاً يعسر نقضه. والله تعالى قد وثق العهد الفطرى بجعل العقول بعد
الرشد قابلة لادراك السنن الالهية فى الخلق، ووثق العهد الدينى بما أيد به الانبياء من
الكتب، فمن أنكر بعثة الرسل ولم يمتد بهديهم فهو ناقض لعهد الله، فاسق عن
سننه فى تقويم البنية البشرية وإتمامها

﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ ما هو الشيء الذى أمر الله أن يوصل؟
قيل: الإشارة إلى دين الله وعبادته فى الأرض وإقامة شرائعه وحفظ حدوده، فهى
عامة فى كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل..

﴿ويفسدون فى الأرض﴾ أى يعبدون غير الله تعالى ويجورون فى الأفعال إذ
هى بحسب شهواتهم لا ضابط لها وليس فيها عدل فىرتكبون المعاصى ويمنعون الناس عن
الايان بحمد ﷺ وبالقرآن وهذا غاية الفساد، لأنهم فقدوا هداية الفطرة وهداية
الدين وكان عاقبة أمرهم أنه سيحل عليهم الخسران، وحصره فيهم بقوله ﴿أرسلك

هم الخاسرون ﴿ بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة . والخاسرون الناقصون أنفسهم حقوقها - بمعصيتهم الله - من رحمته ، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه ، فكذلك الكافر والمنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كان الى رحمته . ثم قال تعالى على وجه التعجب - لكن فيه تبييت وتعنيف لهم - :

﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ أى بأى صفة من صفات الكفر (الجحود) بالله تعالى تأخذون ، وعلى أى شيء فيه تعتمدون ، وحالكم في موتكم وحياتكم تأبى عليكم ذلك . وبين هذه الحال بقوله : ﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ أى كنتم قبل النشأة الأولى من حياتكم الدنيا أمواتا منبهة أجزاؤكم في الأرض ، فخلقكم أطواراً من سلالته من طين ، فكنتم بالطور الأخير في أحسن تقويم ﴿ ثم يميتكم ﴾ بقبض الروح الحى الذى به نظام حياتكم ، فتتحلل أبدانكم ، وتعود إلى أصلها الميت ، وتنبث في طبقات الأرض . ﴿ ثم يحييكم ﴾ حياة ثانية كما أحياكم بعد الموت الأولى ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ فينبئكم بما عماتم ويحاسبكم على ما قدمتم ويجازيكم به

﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ أى جعل كل ما فى الأرض مهيباً لنا ومعداً لمنافعنا . وللانتفاع بالأرض طريقان : أحدهما الانتفاع بأعيانها فى الحياة الجسدية ، وثانيهما النظر والاعتبار فى الحياة العقلية . وإننا ننتفع بكل ما فى الأرض برها وبحرها من حيوان ونبات وجماد ، وما لا تصل إليه أيدينا ننتفع فيه بعقولنا بالاستدلال به على قدرة مبدعه وحكمته . والتعبير بفى يتناول ما فى جوف الأرض من المعادن بالنص الصريح

﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ والمراد أن إرادته توجهت إلى مادة السماء . يقال استوى إلى الشيء إذا قصد إليه قصداً مستوياً خاصاً به لا يلوى على غيره

﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ فأنهم خلقهن فجعلن سبع سموات تامات منتظمت الخلق

(وهو بكل شيء عليم) أى هو المحيط بكيفية التكوين وحكمته وبما ينفع
الناس بيانه . وكيف يصح أن ينكر عاقل على الله سبحانه وهو العليم بكل شيء أن
يرسل من يشاء من خلقه لهداية من شاء من عباده ؟ فهذا الآخر يتصل بأول الآية في
تقرير رسالة النبي ﷺ وإبطال شبه الذين أنكروا أن يكون البشر رسولا ، والذين
أنكروا أن يكون من العرب رسول ، وهذا اعتراض الجاهلين على من هو بكل شيء
عليم .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ
يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ (٣٠)

التفسير

ان أمر الخلقة وكيفية التكوين من الشؤون الإلهية التي يعز الوقوف عليها كما هي .
وقد قص الله علينا في هذه الآيات خبر نشأة الانسان على نحو ما يؤثر عن أهل
الكتاب من قبلنا ، ومثل لنا المعاني في صور محسوسة . وأبرز لنا الحكم والأسرار
بأسلوب المناظرة والحوار كما هي سنة مخاطبة الخلق وبيان الحق . وهذه الآيات تجلي
حجة الرسول ودعوته من حيث إن الملائكة إذا كانوا محتاجين إلى العلم ، ويستفيدونه
بالتعليم من الله تعالى بالطريقة التي تناسب حالهم ، فالبشر أولى بالحاجة إلى ذلك منهم ،
لأن طبيعة البشر جبلت على أن يكتسبوا كل شيء اكتسابا . وهي من جهة أخرى
تسلية للنبي ﷺ ببيان أن البشر أولى من الملائكة بانكار ما لم يحيطوا بعلمه حتى
يعلموا ، وأنهم جبلوا على أن يتوبوا ويرجعوا بعد أن يخطئوا أو يذنبوا . وأن
الافساد في الأرض ، ووجود الحق ، ومناصبه الداعي إليه ليس بدعا من قومه ،
ولنما هو حيلة أهل الفكر وطبيعة البشر . أى فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء

المكذبين ، وترشد المسترشدين ، وتأتى أهل الدعوة بساطان مبين . وهذا الوجه هو الذى يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ الملائكة خلق الله من عالم الغيب ، يؤمن به ولا نبحت عن حقيقته ﴿ جاعل ﴾ خالق . و ﴿ خليفة ﴾ سماه الله بهذا الاسم لأنه يخلف الله فى الحكم بين المكلفين من خلقه .

وبادرت الملائكة إلى السؤال واستفهام الاستغراب : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فيغفل بذلك عن تسديحك وتقديسك

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أى نزهك عما لا يليق بصفاتك ، ونمجذك بلا غفلة ولا فتور .

ولا شك أن هذا السؤال نشأ من فهم المعنى المراد من الخليفة ، وما يقتضيه من العلم غير المحدود والارادة المطلقة ، وكون هذا العلم المصروف للارادة لا يحصل إلا بالتدريج ، وكون عدم الاحاطة مدعاة للفساد والتنازع المفضى إلى سفك الدماء

والانسان مهما أوتي من العلم فهو قليل بالنسبة للعلم الالهى ، ولذلك أجاب الله الملائكة بالعلم ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مِثْلَ مَا تَعْلَمُونَ ﴾ فأثبت لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاه عنهم ، ثم أظهر لهم أن الانسان يكون خليفة بالعلم وما يتبعه

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

التفسير

(وعلم آدم الأسماء كلها) علم معناه عرف ، وآدم سمي بهذا الاسم لأنه خلق من آدم الأرض ، وإنما سمي إنسانا لأنه نسي

والأسماء هي ما يرى بعلم الأشياء ، وهي العلوم المطابقة للحقائق

والمعنى أن الله تعالى أودع في نفس آدم علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين - والعلم الحقيقي هو إدراك المعلومات نفسها . والآلفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح ، فهي تتغير وتختلف ، والمعنى لا تتغير فيه ولا اختلاف

علم الله آدم كل شيء ، ولا فرق في ذلك بين أن يكون له هذا العلم في آن واحد أو في أوقات متعددة ، والله قادر على كل شيء . ثم إن هذه القوة العلية عامة للنوع الآدمي كله ، ويكفي في ثبوت هذه القوة فهم معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال

(ثم عرضهم على الملائكة) أي أطلعهم اطلاعا اجماليا بالالهام الذي يليق بمجالتهم على مجموع تلك الأشياء .

(فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء) المسميات ، والغرض من الإنباء بأسمائها الإبانة عن معرفتها (إن كنتم صادقين) أي إن كان هناك موقع للدهشة والاستغراب من جعل الخليفة في الأرض من البشر

(قالوا سبحانك) أي تنزيها لك . والمعنى : تقدسك وتنزهك أن يكون عليك قاصرا فمخلق الخليفة عبثا (لا علم لنا إلا ما علمتنا) وهو محدود لا يتناول جميع الأسماء ولا يحيط بكل المسميات (إنا أنك أنت العليم) بخلقك (الحكيم) في صنعك

(قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) أمر الله تعالى آدم أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه ، تنبيها على فضله وعلو شأنه ، فكان أفضل منهم

وفي هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله ، وفي الحديث « إن الملائكة لتضع
اجنحتها رضا لطالب العلم ، أى تخضع وتتواضع ، لأن الله تعالى أكرمها ذلك لآدم
عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب

(فلما أنبأهم بأسمائهم) قال الله تعالى للملائكة (ألم أقل لكم لاني أعلم غيب
السموات والأرض) ومن كان هذا شأنه فلا يخلق شيئا سدى ، ولا يجعل الخليفة
في الأرض عبثا . وفي هذه الآية دليل على أن أحدا لا يعلم الغيب إلا ما أعلمه الله أو
من أعلمه الله تعالى ، فالمنجمون والكهان وغيرهم كذبة

(وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) والذي يبدونه هو ما يظهم — ر أثره في
نفوسهم ، وأما ما يكتمون فهو ما يوجد في غرائزهم وتنطوى عليه طبائعهم

وقد قضت سنة الله في كتابه بأن يبرز لنا الأشياء المعنوية في قالب العبارة
اللفظية ، ويحلى لنا المعارف المعقولة بالصور المحسوسة ، تقريرا للأفهام وتسهيلا
للاعلام ، ومن ذلك أنه عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا ، وما أودعته فطرتنا مما نمتاز
به على غيرنا من المخلوقات . فعلينا أن نجتهد في تكميل أنفسنا بالعلوم التي خلقنا
مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق ، لتظهر حكمة الله فينا . ولعلنا نشرف
على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ، ومعنى سجودهم لأصلنا ، كما عرفنا الله أيضا أن
خلافة الأرض وسيادتها وصلاحها لا يكون إلا عن طريق العلم ، وهذه من سنن الله
الخالدة إلى يوم القيامة ، والتاريخ في ماضيه وحاضره أكبر شاهد ، فساد المسلمون
في ماضيهم إلا عن طريق العلم ، وما ضعف المسلمون الآن واستكانوا إلا عن طريق
الجهل وإعراضهم عن العلم . وفي القرآن الكريم الآيات البينات ، والأدلة الواضحات ،
يزيدها إيضاحا قول رسول الله ﷺ : « إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت
الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معا فعليك بالعلم ، وقال أيضا « العلم فريضة على
كل مسلم ومسلمة ، وورد أيضا « اطلب العلم من المهد إلى اللحد ، فمن تخلف عن طلب
العلم فقد تخلف عن ركب الحضارة والتقدم ، واستهدف للشقاء والاستعباد

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
الْكَافِرِينَ (٣٤)

التفسير

بعد ما عرف الله الملائكة بمكانة آدم ووجه جعله خليفة في الأرض أمرهم بالخضوع له ، وعبر عن ذلك بالسجود ، وهو سجد لا نعرف صفته ، ولكن أصول الدين تعلمنا أنه ليس سجد عبادة ، إذ لا يعبد إلا الله تعالى . والسجود في اللغة التطامن والخضوع والانقياد

(فسجدوا إلا إبليس) أى سجد كلهم أجمعون إلا إبليس ، وهو فرد من أفراد الملائكة كما يفهم من الآية وأمثالها ، فان قصة الآية ٥٠ من سورة الكهف ناطقة بانه كان من الجن (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) وجميع هؤلاء المسميات بهذه الأسماء من عالم الغيب ، لا نعلم حقائقها ، ولا نبحت عنها ، ولا نقول بنسبة شيء إليها ما لم يرد لنا فيه نص قطعي عن المعصوم .

(أبى) السجود والانقياد أى أمتنع عن فعل ما أمره (واستكبر) يعنى التكبر وهو الظهور بصفة الكبرياء التى من آثاره الترفع عن الحق

(وكان من الكافرين) قيل كان هنا بمعنى صار من الكافرين ، والواجب على المسلم فى مثل هذه الآية الايمان بمضمونها مع التفويض والحمل على أنها حكاية تمثيل ، ثم الاعتبار بها بالنظر فى الحكم التى سيقمت لها القصة

قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده تعقيبا على تفسير هذه الآية :

إن كل قوة من قوى هذه الأرض ، وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها ، خلق خاضعا للإنسان ، وخلق الإنسان مستعدا لتسخيره لمنفعته ، إلا قوة الاغراء بالشر ،

وفاموس الوسوسة بالاغراء الذى يجذب الانسان دائماً إلى شر طباع الحيوان ،
ويعيقه عن بلوغ كماله الانسانى .

فالظاهر من الآيات أن الانسان لا يغلب هذه القوة ولا يخضعها مهما ارتقى
وكمل . وقصارى ما يصل اليه الكاملون ، وهو الحذر من دسائس الوسوسة والسلامة
من سوء عاقبتها بأن لا يكون لها سلطان على نفس الكامل يجعله مسخراً لها وتستعمله
بالشروع كما قال تعالى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ وقال عز وجل : ﴿ إن
الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ (١)

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا
تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَازْلَهَمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا
كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى
حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)
قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (٣٩)

التفسير

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ و « اسكن » من السكنى وهو المبيت

(١) الجزء الاول من تفسير المنار للمرحوم العلامة السيد محمد رشيد رضا . ص ٢٧٥

والاقامة والاستقرار . والسكنى لا تكون ملكا . وهذا تنبيه على الخروج . و « الجنة » هي البستان أو المكان الذى تظله الأشجار بحيث يستتر الداخل فيه ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها . وإن الأوصاف التى وصفت بها الجنة الموجودة بها لا تنطبق على ما كان فى جنة آدم ، ومنها كون عطاياها غير مجذوذ ولا مقطوع وغير ذلك .

﴿ وكلا منها رغدا حيث شئتما ﴾ أى أكلّا واسعا رافها هنيئا من أى مكان منها إلا شيئا واحدا نهما عنه بقوله ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ أى لا تدنوا منها ، أى لا تأكلا من هذه الشجرة . وإنما علق النهى بالقربان منها مبالغة فى تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه . و « الشجرة » لا يعلمها إلا الله . فتكونا من الظالمين : أى الذين ظلموا أنفسهم وتعدوا حدود الله

وأصل الظلم فى كلام العرب وضع الشيء فى غير موضعه ، والظلم يقال فى مجاوزة الحق فيما يكثر وفيما يقل

﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ أى حوّلهما وزحزحهما عن الجنة ، أى أذهبهما وأبعدهما عنهما ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ أى من المكان العظيم الذى كانا مستقرين فيه فكان الذنب متصلا بالعقوبة اتصال السبب بالمسبب . ثم بين الله تعالى كيفية الإخراج بقوله ﴿ وقلنا اهبطوا ﴾ يعنى آدم وزوجه وإبليس . والهبوط معناه الانحدار على سبيل القهر ، ولا يبعد أن تكون تلك الجنة فى ربوة فسمى الخروج منها هبوطا ، أو سعى بذلك لأن ما انتقلوا إليه دون ما كانوا فيه . أو هو كما يقال هبط من بلد إلى بلد كقوله تعالى لبني إسرائيل : ﴿ اهبطوا مصرا ﴾ - وإذا استعمل فى الإنسان الهبوط فعلى سبيل الاستخفاف

﴿ بعضهم لبعض عدو ﴾ أى متعادون يبغى بعضهم على بعض

﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أى إن استقراركم فى الأرض ومتاعكم بالعيش والانتفاع به فيها ينتهيان إلى زمن محدود وليسا بدائمين

ثم قال ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ تلقى قيل معناه فهم وفطن ، وقيل قبل

وأخذ . والمراد هنا أفهمه الله إياها ، فأنا بآية اليه بها . وهذه الكلمات هي كما في سورة
الأعراف ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾

تاب آدم بذلك وأنا بآية إلى ربه ﴿ فتاب عليه لأنه هو التواب الرحيم ﴾ وتاب
العبد أى رجع إلى طاعة ربه . والمعنى أى قبل توبته . وبين سبب ذلك بأنه تعالى
هو التواب ، أى الذى يقبل التوبة كثيرا ، فمهما يذنب العبد ويندم ويتب يتب
الرب عليه ، وبأنه هو الرحيم بعباده مهما يسيء أحدهم بما هو سبب لغضبه تعالى
ويرجع إليه فإنه يخصه برحمته . وبرحمته إياه إقالة عثرته وصفحته عن عقوبة جرمه

والتوبة فى الشرع ترك الذنب لتبجحه ، والندم على ما فرط منه ، والعزيمة على
ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك بالاعادة . فمضى اجتمعت هذه الأربع
فقد كملت شرائط التوبة

﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا ﴾ أى فقد انتهى طور النعيم الخالص ، وادخلوا فى
طور لكم فيه طريقان : هدى وضلال ، وإيمان وكفران ، وفلاح وخسران

﴿ فاما يأتينكم منى هدى ﴾ من رسول مرشد وكتاب مبين ﴿ فمن تبع هداى ﴾
الذى أشرعه وسلك طريقى المستقيم الذى أحدهد ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ من وسوسة
الشیطان ، ولا مما يعقبها من الشقاء والخسران

﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على فوت مطلوب أو فقد محبوب ، لأنهم يعلمون بهذه
الهداية أن الصبر والتسليم مما يرضى الله تعالى ويوجب مشوبته

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أى الذين أشركوا . والآية هى العلامة
الظاهرة ، قال الراغب وحقيقته لكل شىء ظاهر ملازم لشىء باطن يعرف به
ويدرك بإدراك حسيا . والمعنى : وأما الذين كفروا بآياتنا التى تجعلها دلائل الهداية
وحجج الارشاد ، بأن جحدوا بها وأنكروها ولم يذعنوا لصدقها ، ﴿ أولئك أصحاب
النار هم فيها خالدون ﴾ هم أصحاب النار هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ، أى وهم فى
خوف قاهر وحزن مساور

يَبْنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفَ بِعَهْدِكُمْ
وَأَيُّ فَارِهِبُونَ (٤٠) وَمَا مَنُونَا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ
بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَقُونَ (٤١) وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبُطْلِ
وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَاتَّمَّ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا
مَعَ الرَّائِعِينَ (٤٣)

التفسير

لا يزال الكلام في الكتاب وكونه لا ريب فيه ، وبيان أحوال الناس وأصنافهم
في أمره . وهو في هذه الحالة يخاطب الأمم والشعوب الموجودة في البلاد التي ظهرت
فيها النبوة تفصيلا ، فبدأ بهذه الآيات بذكر اليهود للمعنى الذي نذكره

(يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) : إسرائيل لقب نبي الله
يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام . قيل معناه الأمير المجاهد مع الله ،
والمراد ببنيه ذريته .

اختص بني إسرائيل بالخطاب لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب السماوية ،
والمؤمنة بالأنبياء المعروفين ، ولأنهم كانوا أشد الناس على المؤمنين ، ولأن دخولهم
في الاسلام حجة على غيرهم من النصارى ، وكانوا يسمون شعب الله كما في كتبهم ،
وذكر القرآن أن الله اصطفاهم وفضلهم ، وكان الواجب عليهم أن يكونوا أكثر
الناس لله شكرا ، وذلك بأن يؤمنوا بكل نبي يرسله لهدايتهم ، ولكنهم جعلوا النعمة
حجة الإعراض عن الايمان ، وسبب إيداء النبي ﷺ ، لأنهم زعموا أن فضل الله
تعالى محصور فيهم ، وأنه لا يبعث الأنبياء إلا منهم ، ولذلك بدأ تعالى خطابهم
بالتذكير بنعمته :

(اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) الذكر بالقلب ضد النسيان ، والمعنى : لا تغفلوا عن نعمتى التى أنعمت عليكم ولا تناسوها . ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون ، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب والمن والى ، وفجر لهم من الحجر الماء ، إلى ما استودعهم فى التوراة التى منها صفة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ونعمته ورسالته ، والنعم على الآباء نعم على الأبناء لانهم يشرفون بشرف آبائهم

(وأوفوا بعهدى أوف بعهديكم) وعهد الله تعالى يعرف من الكتاب الذى نزله اليهم بأن يؤمنوا به ويرسله ويأتمروا بأمره ويتقوا عما نهى عنه ، هذا هو العهد الخاص المنصوص ، ويدخل فى عموم العهد الأكبر الذى أخذه على جميع البشر بمقتضى الفطرة ، وهو التدبر والتروى ووزن كل شئ بميزان العقل والنظر الصحيح ، لا بميزان الهوى والغرور . ولو التفت بنو إسرائيل إلى هذا العهد الإلهى العام ، وإلى تلك العهود الخاصة المنصوصة فى كتابهم ، لآمنوا بالنبي صلوات الله وسلامه عليه واتبعوا هدايته وكانوا من المفلحين . هذا هو عهد الله ، وأما عهدهم فهو أن يمكن الله لهم فى الأرض ، ويدخلهم الجنة .

(وإياى فارهبون) أى خافون . والرهبة : الخوف . والمعنى : إن كنتم تخافون فوت بعض المنافع ونزول بعض المضار بكم إذا خالفتم الجماهير واتبعتم الحق فالأولى أن لا تخافوا ولا ترهبوا إلا من بيده أزمة المنافع كلها فإن شاء أعطى وإن شاء منع ، وهو الله صاحب النعم كلها ، فارهبوه وحده ولا ترهبوا سواه

(وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم) أى صدقوا بالقرآن . فإذا نظرتم فى القرآن ووجدتموه مصدقا لما معكم فى مقاصد الدين الإلهى وأصوله وهداية الخلق إلى الحق فبادروا إلى الإيمان بهذا الكتاب وهو القرآن (ولا تكونوا أول كافر به) أى ولا تبادروا إلى التنكر له والجحود به

(ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) الآيات هى الدلائل التى أيد بها النبي صلوات الله وسلامه عليه وأعظمها القرآن ، أى لا تعرضوا عن الإيمان بهذا النبي وما جاء به وتستبدلوا بهدايته هذا الثمن القليل وهو ما يستفيدونه رؤسائكم من المرءوسين من مال وجاه وما

يتوقعه المردوسون من الزاني والحظوة باتباع الرؤساء وما يخشونه إذا خالفوهم من المهانة والذلة . وسعى هذا الجزاء قليلا لأن كل ما عدا الحق قليل وحقيق بالنسبة إليه . وهذه الآية وإن كانت خطابا لبني إسرائيل نبيها لهم فهي متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب أو بلحنه ، فمن أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به أو إثبات باطل نهى الله عنه أو امتنع من تعليم ما عليه الله وكتم البيان الذي أخذ الله عليه ميثاقه به فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا

(وإياي فاتقون) بالايان واتباع الحق والاعراض عن حطام الدنيا

(ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) واللبس الخلط ، والمعنى لا تخطئوا الحق بالمنزل بالباطل الذي تختبرونه وتكتمونه حتى يشتبه احدهما بالآخر . ولا تجمعوا الحق ملتبسا بسبب الباطل الذي تكتمونه في تضاعيفه أو تذكرونه في تأويله . و « تكتموا الحق » مجزوم داخل تحت حكم النهي ، كأنهم أمروا بالايان وترك الضلال ، ونهوا عن الاضلال بالتلبس على من سمع الحق والاخفاء عن لم يسمعه ، أو منصوب باضمار « أن » على أن الواو للجمع ، أى لا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمانهم (وأنتم تعلمون) أى حال كونكم عالمين بأنكم لا بسون كاتمون ، أو أنتم تعلمون أنه حق وأنتم من أهل العلم

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فبعد الدعوة إلى الايمان اليقيني دعاهم إلى العمل الصالح ، على الوجه النافع المرضي . فقد كانوا يصلون ، ولكنهم ما كانوا يقيمون الصلاة . لأن الإقامة هي الايتان بالشئ مقوما كاملا ، وهي في الصلاة التوجه إلى الله تعالى بالقلب ، والخشوع بين يديه ، والاخلاص له بالذكر والدعاء والثناء .

ثم أمر الله تعالى بالصلاة وبإيتاء الزكاة التي هي عنوان الايمان . والايان : الاعطاء . آيته : أعطيته . والزكاة مأخوذة من زكا الشئ إذا نما وزاد . والزكاة هي بذل المال في سبيل الله ، مواساة لعياله ، ومساعدة على مصالحهم التي هي مـلاك مصلحته ، وتطهير المال ، ونسب في نمائه وزيادته

(واركعوا مع الراكعين) والركوع معناه الخضوع . فكأنه تعالى لما أمرهم

بالصلاة والزكاة أمرهم بعد ذلك بالانقياد والخضوع وترك التمرد

وقوله « مع الراكعين » فيه الارشاد الى شهود الجماعة والخروج الى المساجد .
وثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « الذي يصلي مع الامام أفضل من الذي يصلي وحده
ثم ينام - وان صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة ، أو بسبع
وعشرين درجة »

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
(٤٤) وَأَمْسِعُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ
يُظَنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)

يَبْنِي إِسْرَئِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ
(٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً وَلَا
يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)

التفسير

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ والبر هنا الطاعة والعمل الصالح ،
ويخ الله هؤلاء القوم (اليهود) على أنهم كانوا يأمرُونَ الناس بالبر كالأخذ بالحق
ومعرفته لأهله وعمل الخير مع الغفلة عن أنفسهم وعدم تذكرها بذلك .

﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ وتتلون : تقرأون . والمعنى كيف نسيت أنفسكم
وأنتم تقرأون الكتاب وتأمرُونَ الناس باتباعه وتعرفون منه ما لا يعرفه المأمورون .
ثم انتقل معهم من تفریع الى تفریع ، ومن توبيخ الى توبيخ ، فقال : لو لم تكونوا

من أهل العلم وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم وبين ذلك ، ذاذا لكم عنه ، زاجرا لكم منه فقال :

(أفلا تعقلون) والعقل : المنع . والمعنى : ألا يوجد فيكم عقل يمنعكم عن هذا السفه ، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم . ويصح أن يكون معنى الآية : أفلا تنظرون بعقولكم التي رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم

(واستعينوا بالصبر والصلاة) الصبر : حبس النفس على ما تكره . والاستعانة بالصبر تكون بالالتفات إلى الأسباب التي تأفك الناس وتصرفهم عن هدى الشريعة ، كاتباع الشهوات . . . والصبر هنا على الطاعة وعن مخالفة كتابه ، والاستعانة بالصلاة أقرب إلى حصول المأمول وإرجاع النفس إلى الله تعالى لما لها من التأثير في الروح ، ولكنها أشق على النفس الأماراة بالسوء ، ولذلك قال الله تعالى : (وإنها لأكبيرة) إلا على الخاشعين) أى لثقيلة شديدة الوقع إلا على الخجبتين المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى .

فمن خواص الصلاة الصبر ، وهى تقى الجزع . ومن خواصها النهى عن الفحشاء والمنكر . ومن خواصها الجود والسخاء . فالمصلى الحقيقى هو البار الحقيقى الذى لا يترك الحق لأجل شهوة ، ولا لما يعرض له فى معاملاته مع الخلق من خوف وخشية . هذا أثر صلاة الخاشعين بالاجمال ، ولذلك قال تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) وقال (الذين يظنون أنهم ملاقون ربهم وأنهم إليه راجعون) أى الذين يتوقون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء ، وأنهم إليه راجعون بعد البعث لا مرجع لهم إلى غيره . وهذا إقرار بالبعث وما وعد الله به فى اليوم الآخر والصبر ثلاثة : فصبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية

(يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) ناداهم باسم أبيهم اسرائيل (وهو لقب يعقوب) الذى هو أصل عزهم ، وأسند اليهم جميعا لا إليه وحده لأن النعمة عنهم والتفضيل شملهم ، والتفضيل مناط الأخذ بالفضائل وترك الرذائل وهى نعمة كبرى .

﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أَي أُعْطَيْتُكُمْ مِنَ الْفَضْلِ - وَهُوَ الزِّيَادَةُ فِيهَا مَحْس - مَا لَمْ أُعْظَ غَيْرُكُمْ مِنَ الشُّعُوبِ . وَالْحِكْمَةُ فِي التَّذْكِيرِ بِالتَّفْضِيلِ أَن يَتَذَكَّرُوا أَن الَّذِي فَضَّلَهُمْ لَهُ أَن يُفْضَلَ غَيْرُهُمْ كَمُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمِّهِ

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ أَي وَاحْذَرُوا يَوْمًا عَظِيمًا أَمَّاكُمْ سَيَقَعُ فِيهِ الْجَزَاءُ وَالْحِسَابُ ، يَوْمٌ لَا تَقْضِي فِيهِ نَفْسٌ - مَهْمَا يَكُنْ قَدْرُهَا عَظِيمًا - عَنْ نَفْسٍ - مَهْمَا يَكُنْ ذَنْبُهَا صَغِيرًا - شَيْئًا كَحَمْلِ وَزْرِهَا أَوْ تَكْفِيرِ ذَنْبِهَا .

﴿ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ وَالْمَعْنَى لَا يَقْبَلُ مِنْهَا أَنْ تَأْتِيَ بِشَفِيعٍ يَشْفَعُ لَهَا ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا فِدَاءٌ أَوْ بَدَلٌ إِنْ هِيَ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَأْتِيَ بِذَلِكَ .

﴿ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ أَي يَنْصُرُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، فَلَا يَنْصُرُهُمْ نَاصِرٌ كَمَا لَا يَشْفَعُ لَهُمْ شَافِعٌ ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ عَدْلٌ وَلَا فِدْيَةٌ ، وَصَارَ الْحُكْمُ إِلَى الْعَدْلِ الْجَبَّارِ فَيَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا وَبِالْحَسَنَةِ أَضْعَافَهَا .

وَإِذْ يَحْجِنُّكُمْ مِنْ مَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا مَالِ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)

التفسير

هذه الآيات - كالتى قبلها واللواتى بعدها - تفصيل لنعمة الله على شعب إسرائيل

التي ذكرت من قبل بحملة . وابتدى التفصيل بذكر التفصيل (وإذ نجيناكم من آل فرعون) أى واذكروا إذ نجيناكم من فرعون ، لقب لملك مصر ، و (آله) خاصته وأهل دينه (يسومونكم سوء العذاب) أى يذيقونكم ويلزمونكم أشد العذاب (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) أى يقتلون ذكركم نسلكم ويستيقون إنائه أحياء لإضعافكم وإذلالكم المفضى إلى قطع نسلكم وإبادتكم (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أى وفى ذلكم العذاب وفى النتيجة منه - فى كل منهما - بلاء وامتحان عظيم لكم من ربكم

(وإذ فرقنا بكم البحر) أى واذكروا من نعمنا عليكم أن جعلنا لكم فى البحر طريقا يسا سلكتموه فى هر بكم من فرعون (فأنجيناكم) بعبوره من جانب إلى آخر (واغرقنا آل فرعون) إذ عبروا وراءكم (وأتم تنظرون) ذلك بأعينكم أى تنظرون الى فرق الله لكم البحر واهلاك آل فرعون فى الموضع الذى نجاكم فيه ، ولولاه لعظم عليكم خبر غرقهم ولم تصدقوه

بعد أن قرر نعمة الانجاء من استعباد الظالمين ذكر النعمة التى وليتها ، وذكرهم بما كان من كفرهم بإياها (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة) ، وقد كانت هذه المواعدة لأعطائه التوراة . ولما ذهب لميقات ربه استبطأوه ، فاتخذوا عجلا من ذهب فعبدوه . وأشار إليه بقوله : (ثم اتخذتم العجل من بعده وأتم ظالمون) أى اتخذتموه إلها ومعبودا ظالمون أى وأتم مضارون لأنفسكم بالمعصية ، حيث وضعوا العبادة فى غير موضعها ، وخالفوا موعد نبيهم عليه السلام

والظلم فى كلام العرب وضع الشيء فى غير موضعه ، ويقال فى مجاوزة الحق وبعد أن ذكرهم بذلك الظلم ذكرهم بتفضله عليهم بالتوبة ، ثم بالعمو الذى هو جزاء التوبة . فقال (ثم عفونا عنكم) أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم (من بعد ذلك لعلكم تشكرون)

هذه النعمة - وهى العفو - بدوام التوحيد والطاعة ، وهو معنى الشكر اى
 لشكروا ما أنعم الله به عليكم من العفو عن ذنبكم العظيم الذى وقعتم فيه . ثم قفى على
 هذا بذكر الكتاب - وهو المنة الكبرى - لان فيه الهداية فقال ﴿ ولما آتينا موسى
 الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾

فالكتاب هو التوراة والفرقان مافى الكتاب من الشرائع والاحكام المفرقة بين
 الحق والباطل والحلال والحرام . وقيل انه الحجة والبيان بالآيات التى أعطاه الله من
 العصا واليد وغيرها كأنه قال آتينا موسى التوراة والآيات التى ارسلناه بها معجزة له
 ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أى لعل هذا الكتاب يهتكم للاسترشاد فلا تقعوا فى وثنية
 أخرى . ومن كمال الاستعداد للهداية لفهم الكتاب أن يعرفوا أن ما جاء به محمد عليه
 الصلاة والسلام هو هدى ونور يرجعهم إلى الأصل الذى تفرقوا عنه واختلّفوا فيه ،
 وكذلك اهتدى به منهم المستبصرون وجحدته الرؤساء المستكبرون

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَقَوْمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ
 بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
 الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ
 الصَّعْقَةُ وَاتَّمَّ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)
 وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
 وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

التفسير

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ للذين اتخذوا من حلبيهم عجلا إذ كان يناجى ربه فى

الميثاقين الزماني والمكاني ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ إلهاء
عبدتموه . والقصة مفصلة في سورتي الأعراف وطه ، وذكرت هنا لدعوة بني إسرائيل
إلى الإسلام ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ والتوبة نحو أثر الرغبة في
الذنب من القلب ، وذلك بأن يقتل بعضهم بعضا ، فان قتل المرء لأخيه قتل لنفسه
﴿ ذلکم خیر لکم عند بارئکم ﴾ لأنه يطهركم من رجس الشرك الذي دنستم به
أنفسكم ، ويجعلكم أهلا لتوبته ورحمته . وقوله ﴿ قتاب عليكم ﴾ أى ففعلتم ما أمر
به موسى عليه السلام قتاب عليكم ﴿ لأنه هو التواب الرحيم ﴾ أى هو وحده
الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لها وقبولها ، وانه الرحيم بهم ، ولولا رحمته لعجل
بأهلاكم ببعض ذنوبهم الكبرى لا سيما الشرك به .

﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ أى واذكروا إذ قلتم
لنبيكم : يا موسى لن نصدق بما جئت به حتى نرى الله عيانا جهرة فيأمرنا بالإيمان لك .
﴿ فأخذكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ أى فأخذت القائلين ذلك منكم الصاعقة
وأنتم تنظرون ذلك بأعينكم .

﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ أى أحييناكم بعد موتكم ﴿ لعلكم تشكرون ﴾
ما فعل بكم من البعث بعد الموت

﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ أى ولولا أن ساق الله إليهم الغمام يظللهم في التيسه
لسعفتهم الشمس ولفحت وجوههم . والغمام هو السحاب الكثيف ﴿ وأنزلنا
عليكم المن والسلوى ﴾ ما منح من الله تعالى يسمى إيجاده انزالا ، على أن المن ينزل
كالندى وهو مادة لزجة حلوة تشبه العسل تقع على الحجر وورق الشجر مائعة ثم
تجمد وتنجف فيجمعها الناس . وأما (السلوى) فقد فسروها بالطائر المسمى السمان ،
فعنى النزول يصح فيه على حقيقته أيضا ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أى وقلنا
كلوا من الحلال واللذيذ الذى أعطيناكم

﴿ وما ظلمونا ﴾ يُقدَّرُ قبله فعصوا ولم يقلوا بالنعمة بالشكر ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ لمقابلتهم النعمة بالمعاصي . ويعنى بقوله وما ظلمونا : وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرّة علينا ومنقصة لنا ، ولكنهم وضعوا أنفسهم موضع مضرّة عليها ومنقصة لها

قال الشيخ محمد عبده : « والعبرة الاجتماعية في الآيات أن الخطاب في كل ما تقدم كان موجهاً إلى الذين كانوا في عصر التنزيل ، وأن الكلام عن الآباء والأبناء واحد لم تختلف فيه الضمائر ، حتى كأن الذين قتلوا أنفسهم بالنوبة والذين صعقوا بعد ذلك هم المطالبون بالاعتبار والشكر ، وما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنى وحدة الأمة واعتبار أن كل ما يبلوها الله به من الحسنات والسيئات وما يجازيها به من النعمم والنقم إنما يكون لمعنى موجود فيها يصح أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كإنه وقع به ، ليعلم الناس أن سنة الله تعالى في الاجتماع الانساني أن تكون الأمم متكافلة يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاءه بشقائهم ، ويتوقع نزول العقوبة به إذا فشلت الذنوب في الأمة وإن لم يواقعها هو ﴾ واتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لرقبها ، لانه يحمل الأمة التي تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفليحين » (١)

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وادْخُلُوا الْبَابَ
سَجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَفْسِقُونَ (٥٩) وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ

(١) تفسير القرآن الكريم تأليف السيد محمد رشيد رضا جزء أول ص ٣٢٢ .

مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعَ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسَهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْسُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بَايَتَ اللَّهَ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّبِّينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمَلٌ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)

التفسير

(وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ) المراد المدينة ، وهي في الأصل اسم لمجتمع الناس ، وأطلقت على الأمة نفسها - وقد أمر بنو إسرائيل بدخول بلاد كثيرة وهي نعمة أخرى إذ أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التيه (فَكَلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا) وأباح لهم الأكل عن سعة وبكثرة (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) أي ادخلوا خاشعين لله خاضعين لأمره ، وهذا معنى السجود وروحه المراد هنا (وَقُولُوا حِطَّةً)

والمراد بالحطة الدعاء بأن تحط عنهم خطايا التقصير وكفر النعم ﴿نفقر لكم
خطاياكم﴾ أى يفعو عنهم ولا يؤاخذهم بما فعلوا من الذنوب ﴿وسنزيد المحسنين﴾
ثوابا . أى من كان منكم محسنا زيد فى إحسانه ومن كان مخطئا نفقر له خطيئته . جعل
الامثال توبة للسيء وسببا لزيادة الثواب للمحسن

﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم﴾ أى خالف فريق منهم وهو
الخارج عن الطاعة وقال غير ما أمر به ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء﴾
فأنزلنا على المخالفين والعاصين رجزا (عذابا) من السماء بسبب ظلمهم وعصيانهم
﴿بما كانوا يفسقون﴾ أى بسبب تكرار الفسوق والعصيان منهم أى بما كانوا يتركون
من طاعة الله تعالى فيخرجون عنها الى معصيته وخلاف امره

﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾ أى طلب السقيا ﴿الماء﴾ لهم من الله تعالى
﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ أمره أن يضرب بعصاه حجرا من حجارة
تلك الصحراء بتلك العصا التى ضرب بها البحر فضر به ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة
عيना﴾ بعدد أسباطهم ، وذلك قوله عز وجل ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ لكل
سبط عين معلومة مستفيض ماؤها لهم . ثم أراد أن يصور حال بنى إسرائيل فى هذه
النعمة واغتيابهم بما منحهم من العيش الرغد فى مهاجرهم فقال ﴿كلوا واشربوا من
رزق الله﴾ يعنى المن والسلوى والماء كان يأتهم بلا مشقة ولا كلفة . ثم للاحتفاظ بهذا
الرزق يجب البعد عن الفساد فقال : ﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾ أى لا تنشروا
فسادكم فى الأرض وتكونوا فى الشرور قدوة سيئة للناس ، يقال عثا إذا نشر الشر
والفساد وأثار الخبيث .

﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت
الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ وسياق الآيات قبلها وما يلحق
بعد ذلك من قوله ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ الخ كل ذلك يدل على أن ما عدد من

أفأعيلهم مع تضافر الآيات بين أيديهم وتوارد نعم الله عليهم كل هذا من خطاياهم ،
ومن ذلك ﴿ وإذ قلتم يا موسى إن نصر على طعام واحد ﴾ وهو المن والسلوى ،
والعرب تقول لمن يأكل كل يوم عدة ألوان لا تتغير : إنه يأكل طعاما واحدا .
والبقول ما يطعمه الانسان من أطايب الخضر كالسكرفس والنعناع ونحوهما . والقثاء
هى أخت الخيار تسميها العامة « القته » والعدس والبصل معروفان والفوم هو الحنطة
وقال بعضهم الثوم ، وطلبهم للحنطة هو طلبهم للخبز الذى يصنع منها ﴿ قال ﴾ موسى
عليه السلام تقرىعا لهم ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ ﴾ أى أطلبون
هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وهو المن والسلوى ؟ والأدنى فى اللغة
الأقرب واستعير للاخس ، والاستبدال طلب شىء بدل الآخر

﴿ اهبطوا مصرا ﴾ من الأمصار ﴿ فإن لكم ما سألتم ﴾ أى وجدتم فيه ما
سألتم من نبات الأرض فأقدموا على محاربة من يليكم من سكان الأرض الموعودة
وعند ذلك تجدون طلبتكم فالتسوا الخير فى نفوسكم وأفعالكم . والهبوط الانحدار
على سبيل القهر . وإذا استعمل فى الانسان الهبوط فعلى سبيل الاستخفاف وتنبه على
الغضب

قال تعالى ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ فضرب الذلة والمسكنة على اليهود
هو جعل الذل وضعف العزيمة محيطين بهم كما تحيط القبة المضروبة بمن فيها . والذلة
هى الصغار « يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون » والمسكنة فى هذا الموضع مسكنة
الفاقة والحاجة وهى خشوعها وذلها .

﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ أى رجعوا به ، والمعنى استحقوا غضبه ، ومن
استحقه فقد أصابه . وتكثير الغضب دلالة على أنه نوع عظيم من سخطه جل شأنه
﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ أى ذلك العقاب بضرب الذلة والمسكنة
وبالغضب الإلهى بسبب ما جروا عليه من الكفر بآيات الله الخ فإنهم بإحراجهم
لموسى عليه السلام وإعناتهم له فى المطالب مع كثرة ما شاهدوا من المعجائب دلوا
على أن لا أثر للآيات فى نفوسهم فهم بها كفرون فى الحقيقة ﴿ ويقتلون النبيين بغير

الحق) مع أن الكتاب يحرم عليهم قتل غير الأنبياء فضلا عنهم إلا بحقه المبين فيه ، وقد ارتكبوا هذا الجرم العظيم عامدين مع علمهم بخالفته لشرع الله وكتابه (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أى بعصيانهم - والعصيان خلاف الطاعة ، والاعتداء التخطى لحدود الله ونبذها أى يتجاوزون أمر الله ويرتكبون محارمه ، ومعنى الكلام ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله من أجل كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين بغير الحق ومن أجل عصيانهم ربهم واعتدائهم حدوده أى فعلت ذلك كله بهم بما عصوا أمرى وتجاوزوا حدى الى ما نهيتهم عنه

(إن الذين آمنوا) المراد به المسلمون الذين اتبعوا محمدا صلوات الله وسلامه عليه والذين سيقبعون له إلى يوم القيامة (والذين هادوا والنصارى والصابئين) يراد به هذه الفرق من الناس التى عرفت بهذه الاسماء او الالقاب من الذين اتبعوا الانبياء السابقين وأطلق على بعضهم لفظ يهود والذين هادوا ، وعلى بعضهم لفظ النصارى ، وعلى بعضهم لفظ الصابئين

(من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) وقد تقدم شرح الإيمان واليوم الآخر فى أوائل السورة ، وعمل صالحا تصالح به نفسه وشؤونه مع من يعيش معه (فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والمعنى أن لهم أجرهم المعلوم لوعد الله لهم على لسان رسولهم ولا خوف عليهم من عذاب الله يوم يخاف الكفار والفجار ولا هم يحزنون على شىء فانهم

(وإذا أخذنا ميثاقكم) وهو العهد الذى أخذه عليهم فى قوله (وإذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا) الآيات التى ذكر معها . والمعنى قبول ما جاء فى التوراة

(ورفعنا فوقكم الطور) والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الايمان وعاهدوا موسى عليه . فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التى رأوها بعد أخذ الميثاق كان لاجل أخذ ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد ، لأن رؤية الآيات تقوى الايمان ، ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله (خذوا ما آتيناكم بقوة)

أى تمسكوا به واعملوا بحج ونشاط ﴿واذكروا ما فيه﴾ أى بالعمل على المحافظة به ﴿اعلمكم تتقون﴾ فالعمل بما يرشد اليه الكتاب يطبع في النفس ملكة مراقبة الله تعالى فتكون بها تقية نقية .

﴿ثم توليت من بعد ذلك﴾ أى أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة بعد أخذ الميثاق ومشاهدة الآيات ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ أى بتوليكم استحققت العقاب ولكن حال دون نزوله بكم فضل الله عليكم ورحمته بكم ولولا ذلك لخسرتم سعادة الدنيا وهو التمكن في الأرض المقدسة وخسرتم الآخرة وهى خير ثوابا وخير أملا

وَلَقَدْ عَلِمَ الَّذِينَ أُعِدُّوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ
(٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَقَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦) وَأَذَّكَأَ
مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ
أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ
النَّظِيرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن
شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي
الْحَرْثَ مُسَلَبَةٌ لَأَشِيَةٍ فِيهَا قَالُوا الْبَيْنُ جُنْتُ بِالْحَقِّ فَذَبَّجُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)

التفسير

(ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت) أي وأقسم أنكم لقد علمتم خبر الذين تجاوزوا حدود حكم الكتاب في ترك العمل الديوى يوم السبت ، وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يصيدوا في السبت وأمرهم أن يتجردوا للعبادة فيه وتعظيمه ثم ابتلاهم فما كان يبقى حوت في البحر الا أخرج خرطومهم يوم السبت فاذا مضى تفرقت . فحفروا حياضا عند البحر وشرعوا لها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت لانها من الصيد فكانوا يسدون مشارعها من البحر فيصطادونها يوم الأحد ، فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم . وسيأتى نبأهم مفصلا في سورة الاعراف

(فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال : ما مسخت صورهم ، ولكن مسخت قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالخنزير في قوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الخنزير يحمل اسفارا) والخنزير هو الطرد والصغار ، والأمر للتكوين ، أى فكانوا بحسب سنة الله في طبع الانسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس

(فجعلناهم نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) أى جعلنا هذه العقوبة نكالا ، وهو ما يفعل بشخص في إيداء وإهانة ليعتبر غيره ، أى عبرة ينكّل من يعلم بها أى يمتنع من اعتداء الحدود . و «النكول» هو الامتناع . وما بين يديها يراد به من وقعت في زمنهم ، كما يراد بما خلفها من بعدهم إلى ما شاء الله تعالى . أما كونها موعظة للمتقين فهو أن المتقى يتعظ بها في نفسه بالتباعد عن الحدود التي يخشى اعتداؤها

(وإذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تدبحوا بقرة قالوا ألتخذنا هزوا) قال المفسرون أول القصة مؤخر في التلاوة وهو قوله تعالى (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) وذلك أن رجلا موسرا قتله بنوعه نيرثوه وطرحوه على باب مدينة ثم جاءوا يطالبون بدينه ، فأمرهم الله أن تدبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيى فيخبرهم بقاتله

وفي هذه القصة اختلف النسق ، فذكر المخالفة بعد في قوله ﴿ وإذ قتلتم نفسا قادراتم فيها ﴾ ثم المنية في الخلاص منها في قوله ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ البحر وقدم على ذلك ذكر وسيلة الخلاص وهي ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها . ولما كان في جوابهم هذا رمى لموسى عليه السلام بالسفه والجهالة ﴿ قال أعز بالله أن اكون من الجاهلين ﴾ أى ألتجئ إلى الله واعتصم بتأديبه إياي من الجهالة والهزم بالناس وفيه تعريض بهم أى أتم جاهلون حيث نسبتموني إلى الاستهزاء ﴿ قالوا ادع ربك يبين لنا ما هي ﴾ أى ما الصفات المميزة لها ﴿ قال إنها بقرة لا فارض ﴾ أى غير مسنة انقطعت ولادتها ﴿ ولا بكر ﴾ لم تلد بالمرة والمراد بها لم تلد كثيرا

﴿ عوان بين ذلك ﴾ العوان النصف في السن ، أى لا هي صغيرة ولا كبيرة ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ تجديد للأمر وتأکید وتنبيه على ترك التعمت ، ولكسبهم أبوا إلا تنطعا واستقصاء في السؤال ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ الفاعع الشديد الصفرة بحيث لا يخاططه لون آخر .

لم يكتفوا بهذا وزادوا تنطعا إذ ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر نقشابه علينا وإن شاء الله لمهندون ﴾ وقد أرادوا بهذا السؤال زيادة التمييز للونها عاملة سائمة قال ﴿ أنها بقرة ﴾ سائمة ﴿ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ﴾ أى غير مذلة بالعمل في الحراثة ولا فى السقى ﴿ مسلبة ﴾ من العيوب أو من سائر الأعمال ﴿ لا شية فيها ﴾ أى ليس فيها لون آخر غير الصفرة الفاقعة . والشية : مأخوذ من وشى الثوب أو نسيج على لوتين

﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ أى بينت ووصفت البقرة بحيث ميزتها عن جميع ما عداها . فذبحوها أى فخصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف فذبحوها ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ مأ أمروا به لما وقع منهم من التثبط

والتعنّت وعدم المبادرة ، فكان ذلك مظنة الاستبعاد ومحلا للمجيء بعبارة مشعرة
بالتنبط الكائن منهم

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا
أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ
قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِن مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا
يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِن مِّنْهَا لَمَّا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِن مِّنْهَا لَمَّا يَنْهَاطُ مِنْ
خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ
فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْعَنُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)
وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ
بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)

التفسير

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾ هذه أول القصة المحتوية على المخالفة على ما
أُمرنا إليه ، وهى القتل ، ثم التنازع فى القاتل ، ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة
بذبح البقرة ، وما كان من إلحاحهم فى السؤال على ما سبق ، وأسند فيه القتل إلى

الآمة وان كان القاتل واحدا باعتبار ما تقدم من كونها في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد . و (التدارؤ) التدافع ، وهو يدل أنه كان خصام وانهم ، وكان كل يدرا عن نفسه ويدعى البراءة ويتمهم غيره (والله مخرج ما كنتم تكتمون) من الايقاع يقوم برآء تهمونهم بالقتل لاختفاء القاتل ، لأنه لا يخفى عليه مكرهم

(فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى) فهذا بيان لاجراج ما يكتمون ، والمراد اضربوا المقتول بجزء منها ، وقالوا انهم ضربوه فعادت اليه الحياة وأقر بالقاتل ، والاحياء هنا معناه الاستيقاظ (ويريكم آياته لعلكم تعقلون) أى تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخشوع للشرعية

(ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) والقسوة الصلابة ، ان هذه القلوب في قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها أى أشد قسوة من الحجارة ، إذ لا شعور فيها يأتي بخير ، والحجارة ليست كذلك (وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله) والتفجر : الشق الواسع ، وعبر بالشقق لخروج الماء الذى يصدق بالقليل منه

وملخص التشبيه أن قلوبكم تشبه الحجارة في القسوة بل تزيد عنها فان الحجارة الصم تتأثر في باطنها بالماء اللطيف النافع : بعضها بالقوى منه فيخرج منها الأنهار ، وبعضها بالضعيف فيخرج منه الماء ، ولكن قلوبكم لا تتأثر بالحكم والمواعظ التى من شأنها التأثير في الوجدان . والحجارة تتأثر بالحوادث الهائلة التى يحدثها الله في الكون كالصواعق والزلازل ، ولكن قلوبكم لم تتأثر بتلك الآيات الإلهية التى تشبهها ، فلا أفادت فيها المؤثرات الداخلية ولا المؤثرات الخارجية كما أفادت في الاحجار ، فذلك كانت قلوبكم أشد قسوة . ثم هددهم بقوله (وما الله بغافل عما تعملون) أى فهو سير يريك بضروب النقم إذا لم تتوبوا بصنوف النعم . وأصل الغفلة عن الشيء تركه على وجه السهو عنه والنسيان له ، فأخبرهم سبحانه أنه غير غافل عن أعمالهم الخبيثة ولا ساه عنها بل هو لها محصن ولها حافظ

﴿ أَقْطَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ رَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ الخطاب للنبي عليه السلام ومن معه من المؤمنين . والمعنى : أقطعون أن يؤمن اليهود ويظهروا التصديق ، ومن علم منهم الحق لم يعترف بذلك بل غيره وبدله . والتجريف هو إمالة الشيء عن حقه

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا . وَإِذَا خَلَا بِمَعْشِرِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ والكلام في مجموع اليهود ويوجه (الأول) إلى الذين إذا لاقوا المؤمنين قالوا آمنا يعني المنافقين من اليهود كانوا إذا لاقوا أصحاب النبي ﷺ قالوا آمنا أى صدقنا بمحمد ﷺ وبما صدقتم به (والثاني) إلى الذين يلاقيهم هؤلاء (اليهود) من قومهم ويعذبونهم على الإفضاء إلى المؤمنين بما فتح الله عليهم ، والمراد بالفتح هنا الإلهام بالشريعة والأحكام والبشارة بالنبي ﷺ ﴿ لِيَحْجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ معناه يقيمون به عليكم الحجة من كتاب ربكم وهو التوراة من حيث أن ما تحدثونهم به موافق لما في القرآن ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أن هذه حجة عليكم حيث تعترفون به ثم لا تتابعونه

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أنكر الله تعالى عليهم هذا التلون والدهان في الدين ، ولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون من كفر وكيد وما يعلنون من إظهار إيمان وود وإحاطته بما يحول في أطواء ضمائرهم .

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بآيَاتِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمْسُقَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلِ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ

عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)

التفسير

(وممنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) الأمل من
لا يعرف القراءة والكتابة ، هذا هو شأن عامتهم ، لا علم لهم بشيء من الكتاب ،
وانما هي ظنون يلهون بها ، وهذا محل الذم لا مجرد كونهم أميين ، لأن الآية تدل على
بطلان التقليد وعدم الاعتداد بإيمان صاحبه . والمعنى أنهم يعلمون من الكتاب أنه
مجموعة أمانى يمتنون أنفسهم بها ، فهم لا يأخذون منه إلا ما هو لهم ويمدهم في
غرورهم ، وأما ما ينهاتهم عن سيئات أعمالهم فكأنه غير معروف لهم من الكتاب .
وقيل منهم أميون لا يعلمون ولا يدرون ما في التوراة ، وهم يتحدثون نبوتك بالظن

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) أى
ويل وهلاك عظيم لأولئك العلماء الذين يكتبون الكتب بأيديهم ويودعونها آراءهم
ويحملون الناس على التعبد بها قائلين ان ما فيها من عند الله والاستغناء بها عن كتاب
الله الذى نفهم منه ما لا يفهم غيرنا ، يخطبون بتلك الكتب ميل العامة ويأكلون
أموالهم بالدين .

(ليشتروا به ثمنا قليلا) وكل ما يباع به الحق ويترك لأجله فهو قليل ، لأن
الحق أثمن الأشياء وأغلاها ، ولذلك كرر الوعيد فقال :

(فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون) فالهلاك والويل محيط
بهم من أقطارهم ، ونازل بهم من جانب الوسيلة وهى الكتابة ، ومن المقصد وهو
الكسب .

(وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) هذا ضرب من ضروب غرورهم

بقولهم لن تمسنا النار في الآخرة إلا أيا ما محصورة ﴿ قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ﴾ أى خبرا أو وعدا بما تزعمون ، فإن ما تدعون لا يكون إلا بناء على وعد قوى ، ولذلك عبر عنه بالعهد ، أى وإن كان الأمر كذلك فلن يخلفه ، والاستفهام للانكار ، أى لستم على عهد من الله تعالى ، ولذلك كذبهم بقوله ﴿ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ أى أم تقولون على الله شيئا ليس لكم به علم ، والمعنى أنه لا بد من أحد أمرين : إما اتخاذ عهد عند الله ، وإما القول على الله بغير علم . وإذا كان اتخاذ العهد لم يحصل تعين أنكم تكذبون على الله بجهلكم وغروركم .

﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ بلى مبظة لدعواهم ، والكسب استجلاب النفع ، وتعليقه بالسيئة أى كبيرة من الكبائر .

﴿ واحاطت به خطيئته ﴾ ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها وأخذها بجوانب احسانه ووجدانه كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجا . وقيل السيئة الكفر . والخطيئة الكبيرة . وكان السلف يقولون « المعاصى يريد الكفر »

﴿ فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ خبر « من كسب سيئة واحاطت به خطيئته » أى هم أصحاب دار العذاب في الآخرة . وتأويل الآية من أشرك بالله وأقترف ذنوبا جمّة فمات عليها قبل الإنابة والتوبة فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون أبدا

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
قُولُوا لَا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ

دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيرِكُمْ تَظْهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدُونِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَقْدُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ أَخْرَاجَهُمْ أَفْتُونُونَ بَعْضُ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضُ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ (٨٦)

التفسير

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح وما يلزمه من الأعمال الصالحات ، وهى إطاعة الله فيما أمر والبر بالإنسانية ، فإذا أتقن كل عامل عمله لخير بنى جنسه وارتقاء أمته كان هذا عملاً صالحاً ، وهذا هو المعنى العام . ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى أولئك دون غيرهم أصحابها الحقيقون بها بحسب وعد الله وفضله هم خالدون فيها . وفيه دليل على أن الوعد على الإيمان والعمل معا ، إذ لا ينفك أحدهما عن الآخر

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى واذكر أيها الرسول إذ أخذنا ميثاق (العهد) بنى إسرائيل ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وهذا النهى عن عبادة غير الله مستلزم للأمر بعبادته تعالى . ولم يصرح به لأنهم كانوا يعبدون الله وإنما يخشى عليهم الشرك به وعبادة الله أثبات توحيده وتصديق رسله والعمل بما أنزل فى كتبه . والمعنى استحلقتناهم والله لا تعبدون إلا الله ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أى وتحسنون

بأهل الدين احسانا . والإحسان نهاية البر فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية . ولما كان حب الوالدين للأولاد بمكانة من القوة لا يخشى زوالها ترك النص على الاحسان بهم ، وثق بالاحسان بمن دونهم في النسب فقال تعالى ﴿ وذى القربى ﴾ قضى نظام الفطرة بأن تكون صلة القرابة أمتن من كل صلة ، فجاء الدين يقدم حقوق الأقربين على سائر الحقوق ، وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص . والاحسان لهم صلتهم ، والقيام بما يحتاجون اليه بحسب الطاقة ، وبقدر ما تبلغ به القدرة . ثم ذكر حقوق أهل الحاجة من سائر الناس فقال ﴿ واليتامى والمساكين ﴾ واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير . وقد قدم الوصية به على الوصية بالمساكين ولم يقيد بها بفقر ولا مسكنة ، فلم أنها مقصودة لذاتها . والمساكين من يعجز عن كسب يكفيه ، ولم يكن هؤلاء الذين اتخذوا السؤال والشحاذة حرفة ومغنا . والمساكين جمع مسكين وهو من أسكنته الحاجة وذلته ، وهو أشد فقرا من الفقير عند أكثر أهل اللغة وكثير من أهل الفقه

﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ بعد بيان ما به إصلاح البيوت من إعانة الأقربين ، وما به صلاح بعض العامة من معونة اليتامى والمساكين على إصلاح بيوتهم ، بقى بيان حقوق سائر الأمة ، وهى النصيحة لهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم ، فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ وليس معناه مجرد التلطف بالقول والمجاملة في الخطاب ، فالحسن هو النافع في الدين والدنيا ، ولا شك أن في القيام بهذه الفرائض إصلاح الأمة كلها .

﴿ وقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وإنما إقامة الصلاة بالإخلاص لله ، والصدق في التوجه إليه ، والخشوع لعظمته ، والاستكانة لعز سلطانه ، وهى بهذا تكون وسيلة لإصلاح النفس . وإيتاء الزكاة أى إخراج المال لذوى الحاجة ، وذلك لإصلاح شؤون المجتمع .

﴿ ثم توليتهم لإقايلا منكم وأنتم معرضون ﴾ أى ثم كان من أمركم بعد هذا الميثاق الذى فيه سعادتكم أن توليتهم وأنتم فى حالة الاعراض عنه وعدم الاكتراث

له ﴿إلا قليلا منكم﴾ فهو استثناء لبعض من كانوا في زمن موسى عليه السلام ، أو في كل زمن فانه لا تخلو أمة من الأمم من المخلصين الذين يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم .

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ والخطاب موجه إلى اليهود والحاضرين في زمن التنزيل ، تماديا في سياق الالتفات ، وتذكيرا بوحدة الأمة ، واعتبارها كالشخص الواحد يصيب الخلف أثر ما كان عليه السلف من خير وشر ، فاستنوا بسنتهم وجروا على طريقتهم . وقد أورد النهي عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم وأوطانهم ، بعبارة تؤكد معنى وحدة الأمة ، وتحدث أثرا شريفا يبعثها على الامتثال فقال ﴿لا تسفكون دماءكم﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه ، حتى إذا سفكه كان كأنه ينجع نفسه وانتحر ييده وقال ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ على هذا النسق ، وقيل معناه لا تركبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل والإخراج من الديار ﴿ثم أقررتم وأتممتم شهدون﴾ أى إنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق وتعتقدونه في قلوبكم ، بل تشهدون وتعلنونه ، فالحجة ناهضة عليكم به .

ثم بعد بيان هذا الميثاق وتسجيله عليهم بأنهم يعرفونه ولا ينكرون منه شيئا ذكر نقضهم لإياه فقال ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ الحاضرون الشاهدون المشاهدون ﴿تقتلون أنفسكم﴾ أى يقتل بعضكم بعضا كما كان يفعل من قبلكم ، مع اعترافكم بأن الميثاق مأخوذ عليكم كما كان مأخوذا عليهم .

ويتبع هذا القتال الأسر ، ومن لوازمه الإخراج من الديار ولذلك قال :

﴿وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾ والتظاهر معناه التعاون . كان كل فريق من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالإثم كالقتل والسلب ، وبالعدوان كالأخراج من الديار . وكانوا إذا اتفقوا على فداء الأسرى يفدى كل فريق من اليهود أسرى أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه ، ويعتذرون عن هذا بأنهم مأمورون في الكتاب بفداء أسرى شعب

إسرائيل . فان كانوا مستمسكين بالكتاب فلم قاتلوا شعب إسرائيل وأخرجوهم من ديارهم وهم منهيون عن ذلك في الكتاب ؟ هذا لعب بالكتاب واستهزاء بالدين ، ولذلك قال تعالى ﴿ وإن يأتوك أسارى نفادوهم ﴾ بعد أن كنتم أسرتموهم وأخرجتموهم بالتظاهر عليهم مع العرب ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ بميثاق أغلظ من معاداتهم . قال المفسرون كان الله سبحانه قد أخذ على بني إسرائيل أربعة عهود فترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة وفداء أسراهم ، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء فوبخهم الله على ذلك بقوله ﴿ أفتمنون ببعض الكتاب ﴾ وهو فداء الأسرى ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ آخر منه وهو النهي عن القتل والإخراج ، والإيمان لا يتجزأ فالكفر ببعض كالكفر بالكل ، ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾ الخ ، أوعدهم الله كما أوعدهم من قبلهم ومن بعدهم بأنهم يعاقبون على نقض ميثاق الدين الذي يجمعهم والشريعة التي هي مناط وحدتهم ورباط جنسيتهم بالخزي العاجل - والخزي الهوان - والعذاب الآجل ﴿ ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾ فهو مع كونه من عالم الغيب معقول المعنى ، لأن من فسدت نفسه بارتكاب المعاصي ساقها إلى عذاب الله الشديد يوم لا تغني نفس عن نفس شيئا .

﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ بل هو محيط به لا يخفى عليه منه شيء ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أي جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلا من الآخرة بما فرطوا في جانب الله وأهملوا من شريعته حتى لا يتبعوا منها إلا ما يوافق هواهم ولا يعارض شهواتهم .

﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ لأن علمته ذاتية فيهم وهي ظلمة أرواحهم وفساد أخلاقهم . ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ بشفاعة شافع أو ولاية ولي من دون الله .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
الْبَيِّنَاتِ وَإِيْدَنَهُ رُوحَ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ
فَفَرِّقِنَا كَذِبَتْكُمْ وَفَرِّقَا تَقْتُلُونَ (٧٨) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ
فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا
مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ
عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بَشِّرْهُمْ بِشَرِّ مَا اسْتَشَرُوا بِهَ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ
يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبِمَا رَغَبُوا بِغَضَبٍ عَلَى الْكَافِرِينَ
عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفَّنَا نَزَلَ عَلَيْنَا
وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ
قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)

التفسير

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) شروع في بيان بعض آخر
من جنایاتهم . وتصديره بالجملة القسمية لاطهار كمال الاعتناء به . والمراد بالكتاب
التوراة فإنها نزلت جملة واحدة . وقفينا أى أتبعنا . وبالمعنى أى أرسلنا رسلا تترى .
والمراد أن الله سبحانه أرسل على أثره رسلا جعلهم تابعين له وهم أنبياء بنى إسرائيل
المبعوثون من بعده (وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَإِيْدَنَاهُ رُوحَ الْقُدُسِ) أى
المعجزات الواضحات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص أو الإنجيل . وإيدناه
بالروح المقدسة ، والمراد أن الله تعالى أرسل إليهم عيسى بعد ظهور رسل كثيرين

فيهم بعد موسى وأعطاه ما لم يعط كل رسول من أولئك الرسل من الوحي أو من قوة الروح وزكاه النفس ومكارم الأخلاق ونسخ بعض الأحكام ، وقد كان حظه مع ذلك منهم كحظ بقية الذين لم يؤتوا من المواهب مثلها أوتى به . وروح القدس : أى الروح المقدسة . والقدس الطهارة ، والمقدس المطهر ، قيل هو جبريل أيد الله به عيسى . وقيل المراد به الانجيل . وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه أيده الله به لما فيه من القوة ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم ﴾ أى بما لا يوافقها ولا يلائمها . وأصل الهوى الميل الى الشيء ﴿ استكبرتم ﴾ أى اتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات وعصيت الرسل ، واحتميت عليهم إن اندروكم ودعوكم الى أحكام كتابكم ﴿ ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ﴾ وهذا نهاية الذم ، لأن اليهود من بني إسرائيل كانوا إذا أتاهم رسول بخلاف ما يهودون كذبوه ، وإن تهايا لهم قتله قتلوه . . .

﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ والغلف جمع أغلف وهو ما يحيط به غلاف يمنع أن يصيبه شيء . والمراد أننا لا نعقل قولك ، ولا ينفذ الى قلوبنا مفهوم دعوتك ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ أى أن قلوبهم ليست غلفا لا تفهم الحق لطبيعتها وإنما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالانبياء السابقين وبالكتاب الذى تركوا العمل به وحرفوه اتباعا لاهوائهم . قليلا ما يؤمنون . إنما القلة فى الإيمان باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة وبالنسبة الى اليقين فى الإيمان وتحكيمه فى الفكر والوجدان ، وقال ابن جرير انه لم يؤمن بالنبي وما جاء به إلا قليل منهم .

﴿ ولما جاءهم كتاب ﴾ أى أن إيمانهم كان قليلا حال كونهم كانوا ينتظرون نبيا وكتابا ، والكتاب هنا القرآن ، نكره للتفخيم وقوله ﴿ مصدق لما معهم ﴾ معناه أنه موافق له فى التوحيد وأصول الدين ومقاصده ، والاستفتاح فى قوله ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ معناه طلب الفتح وهو الفصل فى الشيء والحكم بين المتحاربين ، وكانت اليهود تستفتح على مشركى العرب بالنبي المنتظر يقولون إنه سيظهر فينصر كتابه التوحيد الذى نحن عليه ويخذل الوثنية التى تتحلونها ويطلبها

فيكون مؤيدا لدين موسى ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ وهو الكتاب ،
راعهم أنه أنزل على النبي العربي خسوده ، فحملهم الحسد على الكفر به وجودا
وبغيا ، فسجلت عليهم اللعنة التي أصابتهم بكفرهم الأول بأن الكفر صار وصفا
لازما لهم ولذلك قال ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ ولم يقل عليهم لأن المظهر أبلغ
وأعم وأشمل ﴿ بثما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ﴾ بثس تستعمل
للذم ، أى بثس شيئا اشتروا به أنفسهم وهو كفرهم بما أنزل الله مصدقا لما معهم كما
كانوا ينتظرون . شرى الشيء واشتره يستعمل كل منهما بمعنى باع الشيء ، وبمعنى
ابتاعه ، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن اشتروا هنا بمعنى باعوا أى أنهم باعوا
أنفسهم بما حرصوا عليه من الكفر بغيا وحسدا للنبي وحبا في الرياسة واعتزازا
بالجنسية وبما كان لكل من الرؤساء والمرموسين من المتافع المتبادلة في المحافظة عليها ،
فهذا كله يعد ثمنا لأنفسهم التي خسروها بالكفر كأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع
﴿ بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ أى كفروا به لمحض البغى
الذى أثاره الحسد كراهة أن ينزل الله الوحي من فضله بمقتضى مشيئته . ومعنى قوله
بغيا فانه يعنى تعديا وحسدا أن الله جعله في غيرهم ﴿ فباعوا بغضب على غضب ﴾
باعوا رجعوا ، وبغضب وهو الغضب الذى استوجبه حديثا بالكفر بالنبي ﷺ ،
فوق الغضب الذى لحقهم من قبل بإعنات موسى عليه السلام والكفر به . ثم توعدهم
بعد الغضب المزدوج فقال ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ أى مقرون بالاهانة
والاذلال ، وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا تؤمن بما أنزل علينا ﴾ وإذا قيل
لهم يعنى به العهد آمنوا بما أنزل الله أى بكل ما أنزل الله ، قالوا تؤمن - أى نصدق -
بما أنزل علينا - أى التوراة - فلما آمنوا ببعض دون البعض ﴿ ويكفرون بما وراه ﴾
وهى نبوة محمد ﷺ والقرآن الكريم ﴿ وهو الحق ﴾ أى والحال أنه الحق الثابت
فى نفسه بالدليل حال كونه ﴿ مصدقا لما معهم ﴾ فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل

ولذلك قال ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين ﴾ بما أنزل اليكم وليس فيه الأمر بقتل الأنبياء بل فيه النهي الشديد عن قتل أنفسهم . والاستفهام للتوبيخ ، أى ان كنتم تؤمنون بما أنزل عليكم فكيف تقتلون الأنبياء ، وقد نهيتهم عن قتلهم فيما أنزل عليكم ؟

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بَنَسْنَا يَامُرَكُمْ بِهِ إيمَانَكُمْ أَنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ أَنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ
النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوُتَّ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ
أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ مِنَ الْعَذَابِ إِنَّ
يُعْمَرُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)

التفسير

﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ أى من بعد هذا الجيء لا من بعد موسى ، والمراد أنه لم يكن لهم عذر في ذلك الاتخاذ فإنه بعد بلوغ الدعوة وقيام الحجة ولذلك قال ﴿ وأتم ظالمون ﴾ هو حال ، أى عبدتم العجل وأتم واضعون العبادة غير موضعها ، أو اعتراض أى وأتم قوم عادتم الظلم . وأى ظلم أعظم من الشرك بالله تعالى . وحذف مفعول ﴿ اتخذتم ﴾ أى اتخذتموه إلهاً . ثم

ذكرهم هنا أيضا بأخذ الميثاق ورفع الطور كما ذكرهم به في آية تقدمت . وقد قال هناك ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ﴾ وقال هنا ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ وأمرهم في تلك بالحفظ وأمرهم في هذه بالفهم والطاعة . وقلنا في تفسير ﴿ واذكروا ﴾ أن المراد الحث به على العمل ، فالعبارتان تتلاقيان في المعنى والمراد

﴿ وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ ومعنى الآية وإذا أخذنا ميثاقكم أن خذوا ما آتيناكم بقوة واعملوا بما سمعتم وأطيعوا الله ورفعنا فوقكم الطور من أجل ذلك . ثم التفت عن خطاب الحاضرين الى الحكاية عن الغابرين فقال ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ أى أنهم قبلوا الميثاق وفهموه ولكنهم لم يعملوا به بل خالفوه تعنتا وتأولا ، وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ بل المراد أنهم بمثل من قال ذلك ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ وإشراب الشئ مخالطته إياه وامتزاجه به ، وقد قدر الأكثرون هنا مصافا محذوفا فقالوا : المراد حب العجل ، والمعنى هو إقامة الحججة على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبي ﷺ ورد زعمهم أنهم مؤمنون بشريعة لا يطالبهم الله الايمان بغيرها كما قلنا في التي قبلها ، ولذلك ختم الآية بقوله تعالى مخاطبا للنبي عليه السلام ﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن صح زعمكم أنكم مؤمنون بشريعة فبئسما يأمركم به ذلك الايمان من الأعمال التي منها عبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ والمعنى إن صحت دعواكم وصدق قولكم أنه إن يدخل الجنة إلا من كان هودا فتمنوا الموت — كالتعرض للقتل في سبيل الله — الذى يوصلكم الى دار النعيم الخالص الذى لا منازع لكم فيه ولا مزاحم ، وإن لم تتمنوا الموت فما أتم بصادقين . والتقى هو ارتياح النفس وتشوقها الى الشئ الذى تودّه وتحب المصير اليه ﴿ ولن يتمنوه أبدا ﴾ والمانع لهم من تمنى الموت هو ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ لأنهم يعرفون من أنفسهم أنهم عاصون مقترفون للذنوب التي يستحقون عليها

العقوبة ، وقد أسند الفعل إلى الأبدى لأن أكثر الأعمال تزاوُل بها ، وقد ختم الآية بقوله ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ ليبين أنهم ظالمون في حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم وأن غيرهم من الشعوب محروم منها وأن كل من كان مثلهم مفتاتاً على الله تعالى فهو ظالم مثلهم

﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ كذلك كانوا وكذلك هم الآن . ونكر الحياة للتحقير كأنه يقول أنهم شديداً حرص على الحياة وإن كانت في بؤس وشقاء . ثم خص طائفة من الناس بالذكر عرفوا بشدة الحرص على الحياة لا يؤمنون بحياة بعدها فقال ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ أى أنهم أحرص الناس من جميع الناس حتى من الذين أشركوا وهم الذين لا يصدقون بالبعث ولا العقاب ، فاليهود أحرص منهم على الحياة وأكره للموت ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ أى يتمنى لو يعمره الله ويبقيه ألف سنة ﴿ وما هو بمنزلة من العذاب أن يعمر ﴾ أى وما تعميره الطويل بمنزلة أى منجيه ومبعده من العذاب المعد له ولا مثاله فإنه ميت مهما طال عمره ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ لا تخفى عليه خافية من أعمالهم ، بل هو بجميعها محيط ولها ذاكر حتى يذيقهم بها العقاب جزاءها . والبصير العالم بالشئ الخبير به

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوْ كَلَّمَآ عِدُوًّا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَأَاهُمْ ظُهُورَهُمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا
 مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا
 يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرُ وَمَا انْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِيَابِلَ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ
 مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ
 الْمُرَةِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا
 يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
 أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
 خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَعُنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا
 وَاسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا
 أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)

التفسير

(قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك باذن الله) والمعنى إذا كان
 جبريل ينادي روحك ويخطب قلبك باذن الله لا افتئاتا من نفسه - وخص القلب
 بالذكر لأنه موضع العقل والعلم - فعداوة جبريل لا يصح أن تصد عن الإيمان بك ،
 فإن القرآن من عند الله لا من عنده . فقوله (باذن الله) حجة أولى عليهم أى يعلم

الله وإرادته وتيسيره وتسهيله ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ أى التوراة أو جميع الكتب المنزلة والآيات والرسل الذين بعثهم الله ، أى حال كونه موافقا للكتب التى تقدمته فى الأصول التى تدعو إليها من التوحيد واتباع الحق والعمل الصالح والبشارة بالنبي ، وما كان جبريل الا واسطة فى تبليغه وتنزيله ، وهذه حجة ثانية . ﴿ وهدى ﴾ أى نزله هاديا من الضلالات والبدع التى طرأت على الأديان ، وهذه حجة ثالثة . ﴿ وبشرى للمؤمنين ﴾ فإلهم تتركون هذه البشرى إن كنتم من أهل الإيمان ، لأن الذى نزل بها قد نزل بإذكار أهل الفساد والطغيان

أقام الله تعالى الحجج على حماقتهم وسخفهم فى دعوى عداوة جبريل وبيان أنها لا يصح أن تكون مانعة من الإيمان بكتاب الله ، ثم بين فى آية أخرى حقيقة حالهم فى هذه العداوة فقال ﴿ من كان عدوا لله ﴾ بكفره بما ينزله من الهداية ﴿ وملائكته ﴾ برفض الحق والخير الذى فطروا عليه ، وكرهه القيام بما يعهد به اليهم ربهم عز وجل ﴿ ورسله ﴾ بتكذيب بعض وقتل بعض ﴿ وجبريل وميكال ﴾ بأن الأول ينزل بالآيات والنذر ، ومن كان عدوا لجبريل فهو عدو لميكال لأن فطرتهم واحدة وحقيقتهم واحدة ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ أى من عادى الله وعادى هؤلاء المقربين من الله الذين جعلهم رحمة لخلقهم فإن الله عدو له ، لأنه كافر بالله ومعادله ، والله عدو للكافرين أى يعاملهم معاملة الأعداء للأعداء . والعداوة من العبد هى صدور المعاصى منه لله والبغض لأوليائه . والعداوة من الله للعبد هى تعذيبه بذنبه وعدم التجاوز عنه والمغفرة له

﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ﴾ الوحي من الله للنبي يسمى تنزيلا وإنزالا ونزولا ، لبيان علو مرتبة الربوبية ، لا أن هناك نزولا حسيا من مكان مرتفع إلى مكان منخفض . وأما كون آيات القرآن بينات فهى أنها باعجازها البشرى ، وبقرب المسائل الاعتقادية ببراهينها ، والأحكام الأدبية والعملية بوجوه منافعها ، لا تحتاج إلى دليل . فهى كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى شئ آخر يظهره . ﴿ وما يكفر بها الا الفاسقون ﴾ الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسوا فى ظلمة

التقليد . وكذا الذين ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى حسدا لمن ظهر الحق على يديه وعنادا له

(أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم) النبذ طرح الشيء وإلقاؤه ، والمراد بالعهود هنا عهودهم للنبي ﷺ . ولما كان لفظ فريق يؤم العدد القليل وكان الواقع أن الذين كانوا يرون الوفاء له ﷺ قليلين والناقضون هم الأكثرون ، أضرب عنه وقال (بل أكثرهم لا يؤمنون) فهم لا إيمان لهم أى لا عهود لهم

(ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) تقدم تفسيره فيما سبق الآية ٤١ والآية ٨٩ (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم) ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه بزعمه وإنما المراد أنهم طرخوا جزءا منه وهو ما يبشر بالنبي ﷺ ويأمرهم بالإيمان به واتباعه ، أى فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره بمن يلقى الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتمذكره وترك الجزء منه كتركه كله (كأنهم لا يعلمون) أى نبذوه نبذ من لا يعلم أنه كتاب الله ، يريد أنهم بالغوا في تركه وإهماله

(واتبعوا ما تتلو الشياطين) من الأنس في قصصها وأساطيرها أو من الجن في وسوستها أو منها جميعا على حد قوله تعالى (شياطين الأنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) قال الطبري اتبعوا بمعنى فعلوا ومعنى (تتلو) تتقوله وتقرؤه (على ملك سليمان) أى ما كانت تتلو على عهده وفى أيام ملكه اذ زعموا أن ملكه قام على أساس السحر والطلسمات وأنه ارتد فى آخر عمره وعبد الأصنام مرضاة لنسائه الوثنيات (وما كفر سليمان) وما سحر (ولكن) أولئك (الشياطين) الذين يستندون إليه ما انتحلوه من السحر وما تلبسوا به من الكفر هم الذين (كفروا يعلمون الناس السحر) ليفتنوا به العامة ، ويضلّوهم عن طلب الأشياء من أسبابها الظاهرة ومناهجها المشروعة .

والسحر فى عرف اللغة هو كل ما لطف مأخذه ، ودق وخفى . وقالوا سحره وسحره بمعنى خدعه .

وقد وصف الله السحر في القرآن بأنه تخيل يخدع الأعين فيريها إما ليس بكانن
كائنا فقال ﴿يخيل اليهم من سحرهم أنها تسعى﴾ والسحر إما حيلة وشعوذة ، وإما
صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الآكثرون ، فيسمون العمل بها
سحراً ، لخنفاء سببه ولطف مأخذه . ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الانسانية في نفس
أخرى لمثل هذه العلة .

وقد وكل الله معرفة حقيقة السحر إلى بحث الانسان وانشغاله بالعلم ، لأنه من
الأمور الكسبية ، ولو بين مسائلها بالنص القاطع لجاءت مخالفة لعلم الناس واختبارهم
في كل جيل لم يرتق فيه العلم إلى أعلى درجة ، فتكون هداية الله موضع الشك
والتكذيب .

﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ أجمل بهذه العبارة الوجيزة
خبر قصة كانوا يتحدثون بها ، كما أجمل في ذكر تعليم السحر فلم يذكر ما هو ؟ ﴿الملكين﴾
هاروت وماروت قيل هما رجلان صاحبان وقار وسمت فشيها بالملائكة ، وكان يؤمهما
الناس بالحوائج الأهلية . على أنه يمكن أن يراد بما أنزل في الانزال خاصة ، أى أن
ذلك السحر الذى ينسبونه الى الملكين لم ينزل عليهما لإنزالا من الله فينظمه اليهود في
سلك العلوم المحمودة ويزعمونه أنه حق ، وإنما هو شيء افتجراه واختراعه من عند
أنفسهما .

ثم قال ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ أى إن ما
عندنا هو أمر يبتلى به الله الناس ويختبرهم ، فلا تتعلم ما هو كفر ، فإن أصر علماء
﴿فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أى أنهم كانوا يتعلمون منهم
ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين . ولم يبين القرآن حقيقة ذلك العلم لأنه موكول
إلى بحث البشر وارتقائهم في العلم ، ولكنه لم يهمل ما يتعلق بالعقائد وبيان الحق
فيها ، ولذلك قال بعد حكاية السحر عنهم ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله﴾
أى إذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم إنما ذلك باذن الله ، أى بسبب من
الأسباب التى جرت العادة بأن تحصل بها المسببات من ضرر أو نفع باذن الله تعالى أى

بقضاء الله الذي سبق له في علم الله أنه يضره ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ يضرهم لأنه سبب في الاضرار بالناس ، وهو محرم يعاقب الله عليه ، ولما كان الضرر أكبر من النفع نفي النفع وقال لا ينفعهم . واننا نرى متحلي السحر وما في معناه أفقر الناس وأحقهم ، ولو عقل السفهاء الذين يختلفون اليهم يلتمسون المنافع لأنفسهم والإيقاع باعدائهم لعلوا أن الشقي في نفسه لا يمكن أن يهب السعادة لغيره

﴿ ولقد علما لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ﴾ أى أنهم يعلمون أن من اختار هذا واستبدله بما آناه الله من أصول الدين الحق الموصل الى سعادة الدنيا والآخرة فليس له نصيب في نعيم الآخرة من أجل أنه لم يكن له إيمان ولا دين ولا عمل صالح يجازى به في الجنة ويثاب عليه ليكون له نصيب في الآخرة أى لا نصيب لهم فيها من الخيرات وأما من الشرور فإن لهم فيها نصيبا ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ أى باعوها ، أى وبالله لبئسما باعوا به أنفسهم السحر والكفر ، فقد عرضوا أنفسهم للهلاكه وباعوها بما لا يزيدهم إلا خسارا لو كانوا يعلمون علما صحيحا .

﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير ﴾ أى لو آمنوا بكتابهم إيماننا حقيقيا ومنه البشارة بالنبي ﷺ والأمر باتباعه واتقوا بالعمل به والحفاظة على حدوده لكان ثواب الله لهم خيرا لهم من جميع ما توهموه في المخالفة من المنافع ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ علما صحيحا يظهر أثره في أعمالهم ، ولآمنوا بالنبي عليه السلام واتبعوه فكانوا من المفلحين .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا ﴾ نهاهم الله تعالى عن كلمة كانوا يقولونها ، وأمرهم بكلمة خير منها تفيد ما كانوا يريدونه منها . فكلمة « انظرنا » تفيد معنى كلمة « راعنا » فإن فيها الانظار والامهال ، وفيها معنى المراقبة وهو ما يستفاد من النظر بالعين . أذن الله تعالى لهم بهذه الكلمة « انظرنا » ، وأمرهم بالسمع للنبي عليه السلام ليعوا عنه ما يقول من الدين . وهو أمر يتضمن الطاعة والاستجابة ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ وإن سوء الأدب في خطاب الرسول هو أثر من آثار الكفر الذي يعذب عليه الانسان العذاب الموجه أشد الإجماع

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾
 الود محبة الشيء وتمنى وقوعه ، ونفيه بمعنى الكراهة ، والمعنى : ما يحب الذين كفروا
 من اليهود والنصارى ولا المشركين أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم . والمقصود
 بالخير هو الكتاب والنبوة وفيهما سعادة الدارين ﴿ والله يختص برحمته من يشاء
 والله ذو الفضل العظيم ﴾ أسند كلا من هذين الأمرين (الرحمة والفضل) الى الذات
 الأعظم لأنهما حقّه لذاته فليس لأحد من عبده أدنى تأثير في منحهما ولا في منعهما
 ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ النسخ معناه الترك ، وفيه
 المعنى الآخر هو الازالة . والمراد هنا بنسخ الآية أى نسخ حكم الآية ، وهو عام
 يشمل نسخ الحكم وحده ونسخه مع التلاوة . والمعنى : ما ننسخ من آية أى نبطلها إما
 بأن نترك حكمها فقط أو تلاوتها فقط أو نبطلها . وأما قوله تعالى ﴿ أو ننسها ﴾
 فالمراد بتركها كما كان فلا نبطلها . وحاصل الآية أن الذى نبطله فأنا نأتى بخير منه أو
 مثله .

﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ أى أنه لا يستنكر على الله كما زعم اليهود
 لأنه عما تناله قدرته . والمعنى ألم تعلم يا محمد أنى قادر على تعويضك بما نسخت من
 أحكامى وغيرته من فرائضى التى كنت افترضتها عليكم ما أشاء مما هو خير لك ولعبادى
 المؤمنين معك وأنفع لك ولهم إما عاجلا فى الدنيا وإما آجلا فى الآخرة ، أو بأن
 أبطل لك ولهم مكانه مثله فى النفع لهم عاجلا فى الدنيا وآجلا فى الآخرة وشيئه فى
 الخفة عليكم وعليهم ، فاعلم يا محمد أنى على ذلك وعلى كل شيء قدير . ومعنى قوله
 قدير فى هذا الموضع قوى ، يقال منه قد قدرت على كذا وكذا اذا قويت عليه

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
 وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ
 وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ

الكتب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما
تبين لهم الحق فأعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير
(١٠٩) واقيموا الصلوة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه
عند الله إن الله بما تعملون بصير (١١٠) وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان
هوداً أو نصرى تلك أمانتهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صدقين (١١١) بلى من
أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون
(١١٢) وقالت اليهود ليست النصرى على شيء وقالت النصرى ليست اليهود على
شيء وهم يتلون الكتب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم
يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون (١١٣) ومن أظلم ممن منع مسجداً لله أن يذكر
فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في
الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم (١١٤) ولله المشرق والمغرب فأينما
تولوا فثم وجه الله إن الله وسع علمه (١١٥)

التفسير

﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ والخطاب في « تعلم » للنبي
ﷺ والمراد به غيره من المؤمنين الذين ربما كانوا يمتعضون من كلام اليهود وغيرهم
المعترضين على النسخ . وتوجيه الكلام إلى شخص يراد به غيره شائع في كلام العرب
والمولدين ، ولذلك قال بعض العلماء : نزل القرآن على طريق قولهم « إياك أعني

واسمى يا جارة . . . واذا كان هذا الملك العظيم لله وحده يتصرف فيه بالايحاء والاختراع ونفوذ الامر في جميع مخلوقاته ، فهو أعلم بمصالح عباده ، وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبدكم بها وشرعها لهم

وقد يختلف ذلك باختلاف الاحوال والازمنة والأشخاص . فلا شك أنه لا يعجزه أن ينسخ حكماً من الأحكام ﴿ وما لكم من الله من ولي ولا نصير ﴾ أى أن وليكم وناصركم هو الله وحده ، فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴾ والمعنى هنا أن تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى قومه تيرما وإعناتا ؟ حيث سأله أن يرهبهم الله جهرة ، وسألوا محمداً ﷺ أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً . . . يحذر المسلمين ما فعل أولئك ، وقد أتبع التحذير بالوعيد فقال ﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴾ أى أن ترك الآيات الموجودة والاعراض عنها لاعتات النبي بسؤال غيرها لتكون بدلاً منها هو اختيار الكفر على الإيمان ، واستحباب العمى على الهدى . وتبدل وبدل واستبدل يدل على جعل الشيء في موضع آخر . قال الأستاذ الشيخ محمد عبده : إن سياق الآيات في نسخ الآيات ونسيانها وما جاء بعدها لا يلتزم مع تفسير المفسرين ، والمعنى الصحيح الذى يلتزم مع السياق أن الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم ، أى ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ نقيضها دليلاً على نبوة نبي من الأنبياء أى نزلها وترك نبي آخر بها أو نسيها الناس لطول العهد بمن جاء بها ، فأتينا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأتى بخير منها في قوة الاقتناع وإثبات النبوة أو مثلها في ذلك . ومن كان هذا شأنه في قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنعها جميع أنبيائه . والآية في أصل اللغة هي الدليل والحجة والعلامة على صحة الشيء ، وسميت جمل القرآن آيات لأنها باعجازها حجج على صدق النبي ودلائل على أنه مؤيد فيها بالوحي من الله عز وجل من قبيل تسمية الخاص باسم العام .

﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ والمراد بسواء السبيل الحق والخير اللذان تكمل القطرة بالاستقامة على السير في طريقهما ومن مال عن الحق وقع في الباطل لا محالة . والسواء :

الوسط من كل شيء . وقيل القصد . اى ذهب عن قصد الطريق وسمته ، أى طريق طاعة الله . ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ فهو بيان لما يضمرونه وما تكتنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الاسلام ، فتمنوا أن يجرموا هذه النعمة ويرجعوا كفاراً كما كانوا ، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به .

وفائدة هذا التنبيه أو التوبيخات أن يعلم المسلمون أن ما يبدو من أهل الكتاب أحياناً من إلقاء الشبه على الاسلام وتشكيك المسلمين فيه إنما هو مكر السوء يبعث عليه الحسد لا النصيح الذى يبعث عليه الاعتقاد . وقال ﴿ حسداً من عند أنفسهم ﴾ ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية ، وإنما هو خبث النفوس وفساد الاخلاق والجلود على الباطل وان ظهر لصاحبه الحق ، ولذلك قفاه بقوله ﴿ من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ أى بالآيات التى جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام ، وبانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبي آخر الزمان عليه .

﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ أى عاملوا الناس بالصفح والعتو ، فان هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين . وفيه إشارة الى أن الله وضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء ، لأن الصفح لا يكون الا من القوى إيداناً بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية ، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم ﴿ حتى يأتي الله بأمره ﴾ فوعدهم بأنه سيمدهم بمعونته ويؤيدهم بنصره . أى افعلوا ذلك إلى أن يأتي اليكم الأمر من الله سبحانه في شأنهم بما يختاره ويشاؤه وما قد قضى به في سابق عله ، وهو قتل من قتل منهم ، وإجلاء من أجلى ، وضرب الجزية على من ضربت عليه وإسلام من أسلم ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ وقدرته هى للنافذة التى لا يشذ عنها شيء فى العالمين . ومعنى الآية ههنا : ان الله على كل ما يشاء بالذين وصفت من أمرهم من أهل الكتاب وغيرهم قدير إن شاء الانتقام منهم بعنادهم ربهم ، وإن شاء هداهم لما هداهم الله له من الايمان ، لا يتعذر عليه شيء أراده ، ولا يتعذر عليه أمر شاء قضاءه ، لأن له

الخلق والأمر ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . وإقامة الصلاة إنما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحية في صورتها العملية ، وذلك بأشعار القلب عظمة الله وكبريائه ، فبهذا الشعور ينمو الإيمان وتقوى الثقة بالله وتنزه النفس أن تأتى الفواحش والمنكرات ، فنفوس المصلين جديرة بالنصر لما تعطيه الصلاة من القوة المعنوية ، ومن الثقة بقدرة الله تعالى .

وقد مضت سنة القرآن بقرن الزكاة بالصلاة ، لأن الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد والزكاة لإصلاح شئون الاجتماع . ثم فيها من معنى العبادة مافى الصلاة ، فإن المال كما يقولون شقيق الروح ، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله تعالى كان بذله مزيدا في إيمانه ،

فهى إصلاح روحى أيضا ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ قوله تعالى « تجدوه » هو كقوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » ، وقالوا : ان المراد أنه يرى ويجد جزاءه ، ولكن لما كان الجزاء مبنيا على أثر العمل فى نفس العامل وارتقائها به كان الجزاء بمثابة العمل نفسه . ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث

المؤمن على الاحسان فيه ويدل على تحققه فقال ﴿ ان الله بما تعملون بصير ﴾ فلا يخفى عليه منه شئ . فتخافوا أن ينقصكم من أجوركم شيئا ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا

من كان هودا أو نصارى ﴾ وهو عطف على قوله ﴿ ود كثير من أهل الكتاب ﴾ أى قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى كذلك فى أنفسهم ، وهذه عقيدة الفريقين الى اليوم ، وقد بين لنا تعالى أن هذا القول لا حجة

لهم عليه فى كتبهم المنزلة فقال ﴿ تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ﴾ والامانى جمع أمنية وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه . ثم طالبتهم تعالى بالبرهان على صدق دعواهم ، فقرر لنا قاعدة لا توجد فى غير القرآن من الكتب السماوية وهى أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه ، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها .

قال الله ردا عليهم ﴿ بلى ﴾ وهى كلمة تذكر فى الجواب لاثبات نفي سابق فهى

مبطله لقولهم ﴿لن يدخل الجنة﴾ الخ أى بلى إنه يدخلها من لم يكن هودا ولا نصارى ، وان رحمة الله مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها ، وهو ما بينه سبحانه

وتعالى بقوله ﴿من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه﴾ لإسلام الوجه لله هو التوجه إليه وحده ، وتخصيصه بالعبادة دون سواه ، والاحسان فى دار المقامة . قيده تعالى باحسان العمل الذى يكون عليه الأجر ، وتلك سنة القرآن : تقرن الايمان بعمل الصالحات لقوله تعالى ﴿ليس بآمانكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجز له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا﴾ وهذا فى معنى الآيات التى يفسرها نبي أمانى المسلمين كما نفى أمانى أهل الكتاب ، وجعل أمر سعادة الآخرة منوطا بالايمان والعمل الصالح معا . والمعنى : بلى من أخلص طاعته لله وعبادته له محسنا فى فعله فله جزاؤه وثوابه عند الله

ثم بعد أن أثبت للمسلم وجهه الى الله وهو المحسن فى عمله الآخر عند الله نفى عنه الخوف فقال ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ، ولا شك أن الخوف والأحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية ، وأسأوا أعمالهم بالأعراض عن الهداية الدينية .

﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ من الدين حقيقى يعتد به ، فالشيء فى اللغة هو الموجود المتحقق ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ من الدين حقيقى يعتد به ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أى يتلو كل منهم كتابه ، فكتاب الأولين (التوراة) يبشر برسول منهم ظهر وهو (عيسى عليه السلام) ولكنهم لم يؤمنوا به فهم مخالفون لكتابهم ، وكتاب الآخرين (الانجيل) يقول بلسان المسيح انه جاء متما لناموس موسى لا ناقضا له ، وهم قد نقضوه : ترك بعضهم أوله ، وبعضهم آخره ، فلم يؤمن به كله أحد منهم . والكتاب الذى يقرأون حجة عليهم ﴿كذلك﴾ نحو ذلك السخف والخسران ﴿قال الذين لا يعلمون﴾ من مشركى العرب وغيرهم من أهل الملل ﴿مثل قولهم﴾ فيغضب كل ملته التى جعلها جذبيته وزعم أنها هى المنجية

﴿ فأنه يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ فإنه هو العليم بما عليه كل فريق من حق وباطل ، وهو الذي يحق الحق ويجعل أهله في النعيم ، ويبطل الباطل ويبقى

بأهله في الجحيم ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ﴾ والمعنى لا أحد أظلم . وقيل المساجد هنا بيت المقدس ومحاربه ، وقيل الكعبة . وجمعت لأنها قبلة المساجد ، أو للتعظيم . وقيل المراد سائر المساجد . والآية ناطقة بوجوب احترام كل معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح ، وبتحريم السعى في خراب المعابد ، وبالحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون في خرابها - أى هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها - بكونهم أظلم الناس كما يستفاد من

استفهام الإنكار ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ وهذا خبر من الله عز وجل عمن منع مساجد الله أن يذكر فيه اسمه ، قد حرم عليهم دخول المساجد التي سعوا في تخريبها ومنعوا عباد الله المؤمنين من ذكر الله عز وجل فيها ماداموا على مناصبة الحرب إلا على خوف ووجل من العقوبة على دخولهم بها . أى فكيف يدخلونها مفسدين ومخربين ، لذلك توعد الله تعالى أولئك المعتدين الظالمين بقوله

﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ فأما خزي الدنيا فهو ما يقتضيه الظلم من فساد العمران المفضى إلى الذل والهوان ، ويعنى بالخزي العار والشر والذلة : إما القتل والسب ، وإما الذلة والصغار بأداء الجزية . وعذاب الآخرة فأنه أعلم به ، ونحن بوعدة ووعيده المؤمنين .

﴿ والله المشرق والمغرب ﴾ المراد بالشرق والمغرب الأرض كلها ، لأنهما ناحيتاها .

﴿ فإني أتولوا فثم وجه الله ﴾ أى أى مكان تستقبلون في صلاتكم فهناك وجه القبلة التي أمر الله بأن يتوجه إليها ، والمراد على كل حال أية جهة استقبلت وتوجهت إليها في صلاتك فأنت متوجه إلى الله تعالى لأن كل الجهات له ﴿ أن الله واسع ﴾ لا يتحدد ولا يحصر ، فيصح أن يتوجه إليه في كل مكان فهو يسع خلقه كلهم بالكفاية والافضال والجلود والتدبير ﴿ عليم ﴾ بالمتوجه إليه أينما كان . أى فاقصد الله حيثما كنت ، وتوجه

إليه أينما حلت ، ولا تنقيد بالامكانة فإن معبودك غير مقيد ، عليم بأفعال عبادته لا يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم .

وهذه الآية تثبت لنا قاعدة من أهم قواعد الاعتقاد وهي أن الله تعالى لا تحدده الجهات ، ولا تحصره الامكانة ، ولا يقترب اليه بالبقاغ والمعايد ، ولا تنحصر عبادته في الهياكل والمساجد ، وانما ذلك الوعيد لانتهاك حرمة الله وإبطال نوع من أنواع عبادته وهو العبادة الاجتماعية التي يجتمع لها الناس في أشرف المعابد على خير الأعمال التي تطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَه قُنُوتٌ
(١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
(١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبِهتُمْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا
أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَىٰ
عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ
اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)
الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)

التفسير

﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا ﴾ ان الله تعالى أخبرنا في موضع من كتابه بان اليهود قالت : عزيز ابن الله ، وان النصارى قالت : المسيح ابن الله . وان المشركين قالوا : ان الملائكة بنات الله ، ثم رد على مدعى اتخاذ الولد بقوله ﴿ سبحانه بل له مافى السموات والارض كل له قانتون ﴾ نزه تعالى نفسه بكلمة « سبحانه » التى تفيد التنزيه مع التعجب مما ينافى أن جميع مافى السموات والارض ملك له قانت لعزته وجلاله اى خاضع لقهره مستخر لمشيتته ، ولا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانساب اليه ، وجعله ولدا بجائسا له ، وقد يختص الله سبحانه من شاء بما شاء كما اختص الانبياء بالوحى ، ولكن هذا التخصيص لا يرتقى بالمخلوق الى مرتبة الخالق

﴿ بديع السموات والارض ﴾ البديع بمعنى المبدع . وقالوا ان الابداع هو ايجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سبق ، وإذا كان هو المبدع للسموات والارض والمخترع لهما والموجد لجميع ما فيهما فكيف يصح أن ينسب اليه شيء منهما على أنه جنس له ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿ وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ فعناه إذا أراد إيجاد أمر وإحداثه إنما يأمره أن يكون موجودا فيكون موجودا ، فكن ويكون من « كان » التامة . وذهب بعضهم إلى أن أمر التكوين يتوجه إلى المعدوم كما يتوجه إلى الموجود ، أو المراد به جعله موجودا دائما توجه اليه لأنه معلوم ، فالتعالى يعلم الشيء قبل وجوده وأنه سيوجد فى وقت كذا فمتعلق ارادته بوجوده على حسب مافى علمه فيوجد ، وشيخ الإسلام ابن تيمية يسميه « الأمر القدرى الكونى » ، وإذا كان الله تعالى هو المبدع لجميع الكائنات وهى بأسرها ملكة ومسخرة لإرادته فلا معنى لإضافة الولد اليه

﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ أى الجاهلون بالكتاب والشرائع من مشركى العرب : ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ كما كلم الله هذا الرسول مع أنه بشر مثلنا ﴿ أو تأتينا آية ﴾ من الآيات التى اقترحناها ، يعنون ما حكاه الله تعالى عنهم بمثل قوله :

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ الآيات ﴿ كذلك قال الذين خلوا من قبلهم مثل قولهم ﴾ أى مثل هذا القول ، قال الكفار الذين أرسل الله اليهم الرسل من قبلهم فى معناه ، وهو أنهم أنكروا على الرسل الاختصاص بالوحى من دونهم واقتروا عليهم الآيات تعنتا وعنادا ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ لأن الطغيان قد ساوى بينهم حتى كأنهم تواصلوا به . والتشابه هنا هو فى مكابرة الحق واستبعاد كون واحد من البشر رسولا يوحى اليه واقتراح الآيات تعنتا وعنادا .

﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ أى اننا لم ندعك يا محمد بغير آية ، بل بينا الآيات بيانا لا يدع للريب طريقا إلى نفس من يعقلها ، وقد قال ﴿ بينا الآيات ﴾ ولم يقل أعطيناك الآيات للتمفرقة والفصل بين آيات القرآن التى هى من علم الله وكلامه ليظهر بها الحق بطريق معقول بين لا يشتبه فيه الفهم ولا يحار فيه الذهن ، وبين الآيات الكونية التى هى من صنعه يستخذى لها العقل ويخضع لها الشعور بأنهم من قوة فوق قوته . وأن الآيات العلمية لا يعقلها إلا أهل الاستعداد للعلم واليقين ولذلك قال ﴿ لقوم يوقنون ﴾ وهم الذين خلصت نفوسهم من كل رأى وتقليد ، وتوجهوا إلى طلب الحق فى الأمور الاعتقادية ، وأخذوا على أنفسهم العهد أن يطلبوه بدليله وبرهانه ، فهم إذا قام عندهم البرهان اعتقدوا وأيقنوا إيقانا . ثم قال ﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ أى إنا أرسلناك بالعقائد الحقة المطابقة للواقع ، والشرائع الصحيحة إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿ بشيرا ﴾ لمن يتبع الحق بالسعادتين ﴿ ونذيرا ﴾ لمن لا يأخذ به بشقاء الدنيا وخزي الآخرة ﴿ ولا تسئل عن أصحاب الجحيم ﴾ أى فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم ، لأنك لم تبعث ملزما لهم ، ولا جبارا عليهم ، فيعد عدم إيمانهم تقصيرا منك تسئل عنه ، بل بعثت معلما وهاديا بالبيان والدعوة وحسن الأسوة ، لا هاديا بالفعل ولا ملزما بالقوة . ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ ومعناه أن اليهود والنصارى على اتحادهم فى أصل الدين قد تغضب لتقاليده . ومن اتخذ الدين جنسية لا يرضيه

من أحد شيء إلا الدخول فيها وقبول لقبها ، فقله تعالى ﴿ حتى تتبع ملتهم ﴾ مراد به ما هم عليه من التقاليد والآهواء التي غيروا بها وجه الدين الواحد حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض كما تقدم في الآيات السابقة . ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ أى أجهر بقول الحق ، وهو أن الهدى الصحيح هو هدى الله الذى أنزله على أنبيائه ، دون ما أضافه اليه اليهود والنصارى بأرائهم وأهوائهم ، ففرقوا دينهم ، وكانوا شيعة كل شيعة تكفر الأخرى وتقول إنها ليست على شيء . أى فإن أردت استرضاءهم

فلن يرضوا عنك إلا أن تتبع أهواءهم ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ التى أضافوها على كتبهم وجعلوها أصولا وفروعا لدينهم ﴿ بعد الذى جاءك من العلم ﴾ اليقين بالوحي الإلهى المبين الذى بين ما كان منهم مما ذكر ﴿ مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾ أى فانك إن تنجح وإن تصل إلى حَقِّك بمجاراتهم على باطلهم ، لأن الله لا ينصرك على ذلك . ومن المعلوم أن شرط إن لا يقتضى الوقوع ، فهو لا يدل على أن اتباع أهوائهم متوقع منه ﷺ ، وإنما هو فرض فرض لبيان مضمونه الذى ذكرنا ، وفيه أن من سنن الله تأييد متبعى الهدى على علم صحيح ، وأنهم هم الغالبون المنصورون ، وهو ما يعبر عنه علماء الاجتماع ببقاء الأمثل فى كل تنازع بينه وبين ما دونه

إن الله يخاطب الناس كافة فى شخص النبى ﷺ ، فهو يرشدنا بهذا التهديد العظيم إلى الصدىء بالحق والانتصار له وعدم المبالاة بمن يخالفه - مهما قوى حزبهم واشتد أمرهم - فمن عرف الحق وعرف أن الله تعالى ولى أهله وناصرهم لا يخاف فى تأييده لومة لائم .

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى وهم ﴿ يتلون حق تلاوته ﴾ : أى يعملون بما فيه فيحللون حلاله ويحرمون حرامه فيكون من تلاه يتلوه إذا تبعه ، ومنه قوله ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ أى اتبعها . كذا قيل . ومن المحتمل أن يكون من التلاوة أى بقرأونه حق قراءته ، ويفهمون أسرارهم ويفقهون حكمة تشريعه وفائدة نوط التكليف به ، لا يثقلون فى ذلك بأراء من سبقهم فيه ولا بتحريفهم كله عن مواضعه ﴿ أو أشك ﴾ هم الذين يقدرين ما جئت به من الترقى فى الدين

(يؤمنون به) أي يصدقون به بعد العلم بأنه الحق (ومن يكفر به) أي بالكتاب ويحجده ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد ﷺ وتصديقه ويبدله ويحرف تأويله من الرؤساء المعاندين والمقلدين الجاهلين وهم الأكثرون (فالولئك هم الخاسرون) لسعادة الدارين ، المحرومون بما يكون للمؤمنين من المجد والسيادة

وجملة القول أن الذي يتلو الكتاب لمجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفارا ، فلا حظ له من الإيمان بالكتاب ، لأنه لا يفهم أسراره ، ولا يعرف هداية الله فيه . وقراءة الألفاظ لا تفيد الهداية وإن كان القارئ يفهم مدلولاتها كما يقول المفسر والمعلم لها ، وإنما الفهم فهم التصديق والاذعان ، فمن يتدبر الكتاب ينبغي له أن يتدبره مستهديا ومسترشدا وعاملا ملاحظاً أنه مخاطب به من الله تعالى ليأخذه فيهدى ويرشد . وقد ورد في الحديث : القرآن حجة لك أو عليك ، فإن اتبعت هدايته سافك إلى الجنة ، وإن أعرضت عن هدايته سافك إلى النار ولو تلوته آفاه الليل وأطراف النهار

يَدْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةُ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ (١٢٣) وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبْنِي لِلْمُتَّكِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ وَالْيَوْمَ الْآخِرُ قَالِ وَمَنْ كَفَرَ فَاثْمَعَهُ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرْهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبَشِّرِ
الْمُصِيرِ

التفسير

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنا فضلتكم على العالمين ﴾
وقد سبق التذكير بهذه النعمة في أول الحاجة ، ثم أعيد هنا للنسابة الظاهرة ، وهي
أنه بعد ما ذكر أن الإعراض عن تدبير الكتاب والتفقه فيه هو كفر به ، وذكرهم
بأنه لا يليق بمن كرمه ربه وفضله على غيره من الشعوب بإيتائه الكتاب أن يكون
حظه منه كحظ الحمار يحمل أسفارا ، وهذه الآية تمهيد لما بعدها وهو فذلكه القصة
والمقصود من إقامة الحجة ، ذلك قوله تعالى ﴿ وانقوا يوما لا تجزي نفس عن
نفس شيئا ﴾ فلا ينفعكم يوم القيامة أن تعتذروا عن الإعراض عن فهم كتاب الله
بأن بعض سلفكم كانوا يفهمونه ويتدبرونه وأنكم استغنيتم بتدبرهم وفهمهم عن أن
تفهموا وتتدبروا ، فانه يوم لا يغني فيه أحد عن أحد شيئا ﴿ ولا يقبل منها عدل
ولا تنفعها شفاع ﴾ وكانوا يعتقدون بالمكفرات تؤخذ عدلا أي (فداء) عما
فرطوا فيه بشفاعه أنبيائهم ، فأخبرهم الله تعالى أنه لا يقوم مقام الاهتداء بكتابه
شيء آخر ، ثم قطع جبل رجائهم من كل ناصر ينصرهم فقال ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ .
أي أنه لا يأتيهم نصر من هاتين الجهتين ولا من غيرهما ﴿ وإذا لبسلى إبراهيم ربه
بكلمات فأنمهن ﴾ إن الكلام في هذه الآية موجه إلى مشركي العرب ، ووجه الاتصال
بينها وبين ما قبلها أن ذلك كان يتضمن الاحتجاج على أهل الكتاب بسلفهم الصالح ،
وهذا يتضمن الاحتجاج على مشركي قريش وأمثالهم بسلفهم الصالح ، فانهم ينتسبون
إلى إسماعيل وإبراهيم ويفتخرون بأنهما بنيا لهم الكعبة معبدهم الأكبر ، وكانوا في
عهد التنزيل قد اختلطوا بالأمم المجاورة التي تعرف لهم هذا النسب ﴿ وإذا ﴾ بمعنى

واذكر لاهل الكتاب ولقومك وغيرهم اذ ﴿ابتلى ابراهيم ربه﴾ ابتلى أى اختبر ،
 ﴿كلمات﴾ جمع كلمة ، والمراد هنا مضمونها من أمر ونهى - والمراد من الآية أن
 الله تعالى عامل ابراهيم عليه السلام معاملة المبتلى أى المختبر له لتظهر حقيقة حاله
 ويترتب عليها ما هو اثر لها ، فظهر بهذا الابتلاء والاختبار فضله باتمامه ما كلفه الله
 تعالى إياه وإتيانه به على وجه الكمال .

﴿ قال انى جاعلك للناس إماما ﴾ الإمامة هنا بمعنى الرسالة ، وقد تحققت إمامته
 للناس بدعوته إياهم إلى التوحيد الخالص . وكانت الوثنية قد عمتهم وأحاطت بهم ،
 فقام على عهده بالحنيفية ، وهى الايمان بتوحيد الله والبراءة من الشرك . وتسلسل
 ذلك فى ذريته خاصة فلم ينقطع دين التوحيد ، ولذلك وصف الله الاسلام بأنه ملة
 ابراهيم ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ أى قال ابراهيم واجعل من ذريتى أئمة للناس ، وقد
 راعى الأدب فى طلبه فلم يطلب الإمامة لجميع ذريته بل اقتصر على بعضها لأنه الممكن .

وبماذا أجاب الله ابراهيم حين دعاه هذا الدعاء ؟ ﴿ قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾
 أى إنتى أعطيك ما طلبت وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ، ولكن عهدى بالإمامة
 لا ينال الظالمين لأنهم ليسوا بأهل لأن يقتدى بهم ، ففى العبارة من الایجاز ما يناسب
 ما قبلها ، وإنما اكتفى فى الجواب بذكر المانع من منصب الإمامة مطلقا وهو الظلم
 بتفسير ذرية ابراهيم من الظلم وتبغيضه اليهم ليتحاموه وينشئوا أولادهم على كراهيته ،
 ولتفسير الناس من الظالمين وترغيبهم عن الاقتداء بهم .

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ﴾ والمعنى واذكر أيها الرسول - أو أيها
 الناس - إذ جعلنا البيت الحرام بمكة مثابة للناس وأمنا ، أى ذا أمن بأن خلقنا بمكة
 لنا من القدرة فى قلوب الناس من الميل إلى حجة والرحلة إليه المرة بعد المرة من كل
 فج وصوب ما كان به مثابة لهم ، ومن احترامه وتعظيمه وعدم سفك دم فيه ما كان
 به أمنا . ولفظ « البيت » من الأعلام الغالبة على بيت الله الحرام ﴿ واتخذوا من
 مقام ابراهيم مصلى ﴾ ومقام اسم مكان من القيام ، قال بعضهم إنه الحجر الذى كان
 يقوم عليه عند بناء الكعبة ، وقال آخرون إنه الحرم كله ، والمراد بالمصلى موضع

الصلاة بمعناها اللغوي العام وهو الدعاء والتوجه إلى الله تعالى وعبادته مطلقا
 ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا بيثى﴾ الخ عهد إليه بالشئ وصاه به ،
 والمراد أن الله كلمهما أن يطهرا ذلك المكان الذى نُسب إليه وسماه بيثى لأنه جعله
 معبدا يعبد فيه العبادة الصحيحة ، ولم يذكر ما يجب أن يطهراه منه ليشتمل جميع
 الرجس الحسى والمعنوى كالشرك وأصنامهم واللغو والرفث والتنازع . وقوله تعالى
 ﴿للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ بين لنا أن إبراهيم وإسماعيل طهرا
 بأمره لأداء نوع من العبادات فيه كالطواف حول الكعبة ، وفى معناه السعى بين
 الصفا والمروة ، و«العاكفين» المقيمين به ، وال«كوف» فى المسجد والركوع والسجود
 وهما من أعمال الصلاة ، والركع السجود جمع الركع والساجد ، والآية تدل على
 أن إبراهيم كان مأمورا هو ومن آمن به بهذه العبادات

﴿واذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا﴾ والمعنى ظاهر ، وهو أن يكون
 محفوظا من الأعداء الذين يقصدون السوء ، أى من يكون فيه يكون آمنا بمن يسطو
 عليه فيظلمه أو ينتقم منه ﴿وارزق أهل من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾
 فالثمرات تجمع من حيث تكون وتساق إلى مكة . وقد خص إبراهيم بدعائه المؤمنين
 كما هو اللائق به ، ولكن الله واسع الرحمة ، وقد جعل رزق الدنيا عاما للؤمن
 والكافر ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾
 ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ أى وأرزق من
 كفر أيضا فأمتعه بهذا الرزق قليلا - وهو مدة وجوده فى الدنيا - ثم أسوقه إلى
 عذاب النار وبئس النهاية والحاقمة .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
 السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا
 مَنَاسِكَتَنَا وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا

منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز
الحكيم (١٢٩) ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد أصطفينه
في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين (١٣٠) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت
لرب العالمين (١٣١)

التفسير

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) ظاهر في أنهما هما اللذان
بنا هذا البيت لعبادة الله تعالى في تلك البلاد الوثنية - وقد ذكر القصاصون روايات
كثيرة تضرب عنها صفحا . و (القواعد) - وهي جمع قاعدة - وهي ما يعقد القوم
عليه البناء من الأساس أو من الساقات . ورفعها إعلاء البناء عليها أو إعلاؤها نفسها
و « من » للبيان ، وعليه يكون البيت بمعنى نفس البناء والجدران ، وتقديم إبراهيم
عليه السلام الاماع الى كون المأمور من الله ببناء البيت هو إبراهيم ، وإنما كان
إسماعيل مساعدا له ، وقد ورد أنه كان يناوله الحجارة ، (ربنا تقبل منّا) الخ
دعاء وبيان لحالهما وقتئذ ، وتقبل الله العمل قبله ورضى به (إنك أنت السميع)
لاقوالنا (العليم) بأعمالنا ونيتنا فيها (ربنا واجعلنا مسلمين لك) المسلم
والمستسلم واحد وهو المنتقاد الخاضع ، والمراد بالكلمة ما يشمل التوحيد والاخلاص
لله تعالى في الاعتقاد والعمل جميعا . دعا هذان النبيان العظيمان لانفسهما بحقيقة
الاسلام أى واجعلنا مستسلمين لأمرك خاضعين لطاعتك لا نشرك معك في الطاعة
أحدا سواك ، ولا في العبادة غيرك . ثم دعوا بذلك لذريتهما فقالا (ومن ذريتنا
أمة مسلمة لك) أى واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك كاسلامنا ليستمر الإسلام لك
بقوة الأمة وتعاون الجماعة . وقد استجاب الله تعالى دعاء إبراهيم وولده اسماعيل

عليهما السلام ، وجعل في ذريتهما أمة الاسلام وبعث فيها منها خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أى علمنا إياها علما يكون كالرؤية البصرية في الجلاء والوضوح . والمناسك جمع منسك ومعناه غاية العبادة . وهو الموضع الذى ينسك منه فيه ويتقرب اليه فيه بما يرضيه من عمل صالح إما بذبح ذبيحة له ، وإما بصلاة أو طواف أو سعى أو غير ذلك من الأعمال الصالحة . وأصل المنسك فى كلام العرب الموضع الذى يعتاده الرجل ويألفه ، ولذلك سميت المناسك مناسك لأنها تعتاد ويتردد عليها بالحج والعمرة وبالأعمال التى يتقرب بها الى الله وأغلب استعمال المنسك فى عبادة الحج خاصة ، والمناسك فى أفعاله وأعماله ﴿ وتب علينا ﴾ أى وفقنا للتوبة لتوب ونرجع اليك من كل حال أو عمل يشغلنا عنك ، أو المعنى أقبل توبتنا ﴿ إنك أنت التواب الرحيم ﴾ أى إنك أنت وحدك الكثير التوب على عبادك ، وإن كثرت تحولهم عن سبيلك بتوفيقهم للتوبة اليك وقبول توبتهم منهم الرحيم ، بالتائبين المستنقذ من تشاء منهم رحمتك من هلكته ، المنجى من تريد نجاته منهم برأفتك من مستخطك . ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ أى من أنفسهم . وقد أجاب الله تعالى هذه الدعوة بخاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ كما ورد فى حديث أحمد ، أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ، الخ ووصف هذا الرسول بقوله ﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ الدالة على صدق رسلك إلى خلقك ، فالمراد بالآيات : الآيات الكونية والعقلية ، وتلاوتها ذكرها المرة بعد المرة لترسخ فى النفس وتؤثر فى القلب . أى يقرأ عليهم كتابك الذى توحىه إليه

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ ففسروا الكتاب بالقرآن والحكمة بالسنة . وفيه وجه ثان وهو المراد بالكتاب مصدر كتب يقال : كتب كتابا وكتابه ، وإنما الدعاء لامة أمية لا بد فى إصلاحها وتهذيبها من تعليمها الكتابة ، وقد كانت الأمم المجاورة لها من أهل الكتاب فلا يتيسر لها اللحاق بها أو سبقها حتى تكون من الكاتبين مثلها . وأما الحكمة فهى فى كل شىء معرفة سره وفائدته ، والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع ، وقد بين النبي ﷺ ذلك بسيرته فى المسلمين وما فيها من الفقه فى الدين . ﴿ ويزكهم ﴾ أى يطهر نفوسهم من الأخلاق الذميمة ، وينزع منها تلك

العادات الرديئة ، أى يطهرها من الشرك وسائر المعاصى ويعودها الأعمال الحسنة التى تطيع فى النفوس ملكات الخير ، ويبغض اليها الأعمال القبيحة التى تغريها بالشرك .
 ﴿ لَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العزيز : هو الغالب على أمره فلا ينال بضيم ولا يغلب على أمر ، والحكيم : هو الذى يضع الأشياء أحسن وضع ، ويحسن الصنع

﴿ ولا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ أى امتنها واستخف بها كأنه تعالى يقول : هذه ملة إبراهيم الذى تمتسبون اليه وتفخرون به ، فكيف ترغبون عنها ، أى تبتعدون عنها وتنتحلون لأنفسكم أولياء لا يملكون لكم نفعاً ولا ضرراً ولا حياة ولا نشوراً لا بالذات ولا بالواسطة . ومعنى الكلام : وما يرغب عن ملة إبراهيم الخنيفية المسلمة إلا سفیه جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها ويضرها فى معادها ﴿ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ﴾ أى اخترناه واجتبتيناه لهذه الملة فجعلناه إماماً للناس وجعلناه فى ذريته الكتاب والنبوة ، فى ذلك أوضح يمان من الله سبحانه عن أن من خالفه فهو لله عدو لمخالفته الإمام الذى نصبه الله لعباده . ﴿ وانه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ لجوار الله بعمله بهذه الملة ودعوته اليها وإرشاده الناس لها . والصالح من بنى آدم هو المؤدى حقوق الله عليه ، فأخبر سبحانه عن إبراهيم خليله أنه فى الدنيا صفي وفى الآخرة ولى وأنه وارد مورد أوليائه الموفين بعهده ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ أى اصطفاه إذ دعاه إلى الاسلام بما أراه من آياته ونصب له من بيناته ، فأجاب الدعوة . والمعنى أى أذعن وأطع . وقيل أثبت على ما أنت عليه من الاسلام والاخلاص واستقم وفوض أمورك إلى الله تعالى . وإضافة الرب فى جوابه عليه السلام إلى العالمين للإيدان بكمال قوة إسلامه حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به ، أى خضعت بالطاعة وأخلصت العبادة للمالك جميع الخلائق ومدبرها دون غيره

وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ

إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبْنِهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أَمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى تَهْتَدُوا، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)

التفسير

(ووصى بها) ووصى بهذه الكلمة، أعنى بالكلمة قوله «أسلمت لرب العالمين» وهى الاسلام الذى أمر به نبيه ﷺ وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله وخضوع القلب والجوارح له، أى بالملة أو الخصلة التى ذكرت أخيراً (إبراهيم بنيه ويعقوب) بنيه أيضاً إذ قال كل منها لولده (يا بنى أن الله اصطفى لكم الدين) أى اختاره لكم يهتدوا اليه وجعل الوحي فيكم (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى حافظوا على الاسلام لله والاخلاص فى الانقياد اليه بحيث لا تتركوا ذلك لحظة لتلا تموتوا فيها فتموتوا غير مسلمين. أى فاتقوا الله ولا تموتن الا وأنتم مسلمون. ويتضمن هذا النهى إرشاد من كان مشركاً عن الاسلام الى عدم اليأس وأن يبادر بالرجوع اليه والاعتصام بحبله لتلا يموت على غيره

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبْنِهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي)

ومعناه أكنتم غائبين أم كنتم شهداء إذ احتضر يعقوب فسأل بنيه عما يعبدون من بعده - سؤال تقرير ليشهدوه على أنفسهم بالتوحيد الخالص ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ﴾ عرفوا الإله بالاضافة إلى آبائه لأنهم هم الذين انفردوا بعبادة رب العالمين خالق السموات والأرض وحده ، ودعوا الأمم الى ذلك في وقت فشت فيه عبادة آلهة كثيرين من السكواكب والأصنام والحيوانات وغيرها . وإسماعيل عم يعقوب ، ذكر مع آبائه للتغليب أو لتشبيهه العم بالأب كما في حديث « عم الرجل صنو أبيه » ، والجمع بين الحقيقة والمجاز جائز يكثر في القرآن ﴿ إلهها واحدا ﴾ أى نعبده حال كونه إلهها واحدا لا نشرك معه أحدا بدعاء ولا توجه في قضاء حاجة ولا غير ذلك من العبادات ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى والحال أننا نحن متقادون مذعنون مستسلمون له وحده دون غيره .

هذه آيات تزلت تكذيبا من الله سبحانه لليهود والنصارى في دعواهم وإبراهيم وولده يعقوب أنهم كانوا على ملتهم . فقال لهم في هذه الآية أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت فتملموا ما قال لولده وقال له ولده . ثم أعلمهم ما قال لهم وما قالوا له يتبين مما تقدم أن دين الله تعالى واحد في كل أمة وعلى لسان كل نبي ، ولذلك قال في آية أخرى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ فالتفرق في الدين ما جاء إلا من الجهل والتعصب للأهواء والمحافظة على الحظوظ والمنافع المتبادلة بين المردوسين والرؤساء . فالقرآن يطالب الجميع بالاتفاق في الدين والاجتماع على أصله : العقلي وهو التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه ، والقلبي وهو الإسلام والاخلاص لله في جميع الأعمال .

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ الأمة هنا الجماعة من الناس والمشار اليه إبراهيم وأولاده وأحفاده المذكورون في الآية السابقة ﴿ قد خلت ﴾ مضت وذابت من هذا العالم . لها ما كسبت من عمل تجزى به . ولكم ما كسبتم من عمل تجزون به . ولا يجزى أحد بعمل غيره ، ولا

تسألون يوم الحساب والجزاء عما تعملون سؤال حساب وجزاء ، ولا يسألون عما تعملون كذلك ، بل كل يسأل عن عمله ويجازى به دون غيره ، فلا ينتفع أحد بعمل غيره ولا يتضرر به من حيث هو عمله ، إلا أنه قد ينتفع أو يتضرر بعمل غيره إذا كان هو سبباً له لأنه أرشده إليه وكان قدوة له فيه . فإله سبحانه يقول لليهود والنصارى : يا معشر اليهود والنصارى دعوا ذكر ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والمسلمين من أولادهم بغير ما هم أهل له ولا تنحلوا كسر اليهودية والنصرانية فتضيفوا فيها اليهم ، فلكل نفس ما اكتسبت وعليها ما اكتسبت ، فان الدعاوى غير مغنيتكم عند الله ، وانما يغني عنكم عنده ما سلف لكم من صالح أعمالكم ان كنتم عملتموها وقدمتموها . وقد بين الله في هذه الآية سنته في عباده أنه لا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله ، ولا يسأل إلا عن كسبه وعمله ، وما أحسن قول الغزالي :

إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه ، والظمان يروى بشرب والده وإن لم يشرب ، فالعاصي ينجو بصلاح والده ! والآيات التي تؤيد هذه الآية كثيرة جداً ، فهي أصل من أصول الدين الإلهي ، لا يفيد معها تأويل المغرورين ولا غرور الجاهلين

(وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) بيان لعقيدة الفريقين في التفرق في الدين . والضمير في (قالوا) لأهل الكتاب و (أو) للتوزيع أو التنويع . أى ان اليهود يدعون إلى اليهودية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها ، والنصارى يدعون إلى النصرانية ويحصرون الهداية فيها ، ولو صدق أى واحد منهما لما كان إبراهيم مهتدياً لأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً . وكيف وهم متفقون على كونه إمام الهدى المهتدى ، لذلك قال تعالى ملقنا لنبيه البرهان الأقوى في حاجتهم (قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) أى بل اتبع أو اتبعوا ملة إبراهيم الذى لا نزاع في هدايته ولا في هديه ، فهي الملة الحنيفية القائمة على الجادة بلا انحراف ولا زيغ ، العريقة في التوحيد والاخلاص بلا وثنية ولا شرك .

والحنيف من مال عن كل دين أعوج ، ويطلق على المستقيم . (قولوا آمنا بالله

وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴿ الخطاب للمسلمين وأمرهم أن يقولوا هذه المقالة ، أى صدقنا بالله وبالقرآن وبالكتب التى سبقته التى انزلت إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، يعنى آمنّا أيضا بالتوراة والإنجيل والكتب التى آتى النبيين كلهم وصدقنا . أى لا تكن دعوتكم إلى شىء خاص بكم يفصل بينكم وبين سائر أهل الأديان السماوية ، بل انظروا إلى جهة الجمع والاتفاق ، وادعوا إلى أصل الدين وروحه الذى لا خلاف فيه ولا نزاع ، وهو التسليم بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين ، مع الاسلام لرب العالمين ، لا نعبد إلا الله ، ولا نفرق بين أحد من رسل الله . والأسباط أولاد يعقوب ، والفرق والشعوب الاثني عشر المتشعبة منهم

﴿ وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ﴾ ان المراد بالايان بما أنزل الله تعالى وما أعطاه لأولئك النبيين والمرسلين إجمالا وأنه إن كان وحيا من الله فلا نكذب أحدا منهم بما ادعاه ودعا إليه فى عصره بصرف النظر عما طرأ عليه من ضياع بعضه وتحريف بعضه فان ذلك لا يضرنا ، لأن الايمان التفصيلي والعمل مقصور على ما أنزل إلينا . فقد روى البخارى من حديث أبى هريرة : أن أهل الكتاب كانوا يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ، فقال النبي ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا ﴿ آمنا بالله ﴾ الآية . وعن معقل بن يسار مرفوعا : « آمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وليسعكم القرآن ، ﴾ وما أنزل إلينا ﴿ أى معشر المسلمين وهو القرآن وقوله بعد ﴿ وما أوتى النبيون ﴾ عن ذكر أسماؤهم ولم تذكر ، سواء كانت لهم كتب أو لم تكن لهم كتب ﴾ لا نفرق بين أحد من رسله ﴿ أى سواء منهم من له كتاب يؤثر ومن ليس له كتاب ، تؤمن بالجميع إجمالا ، وتأخذ التفصيل عن خاتمهم النبي ﷺ الذى بين لنا أصل ملتهم التى كانوا عليها ، وزادنا من الحكم والأحكام ما يناسب هذا الزمان وما بعده من الأزمان . والعمدة فى الدين على اسلام القلب لله تعالى ، والعمل بما أمر ، والانتهاى عما نهى ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أى مدعنون متقادون كما هو مقتضى الايمان الصحيح .

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
 فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً
 وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا
 وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ مَا أَنْتُمْ أَكْثَرُ عِلْمًا بِمَا اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
 كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِخَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ
 لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

التفسير

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ أى فان آمنوا وهم أهل الكتاب
 وغيرهم بالله وبما أنزل على النبيين والمرسلين ، بأن يؤمنوا بمثل ما تؤمن نحن به - لا
 بما هم عليه من ادعاء حلول الله في بعض البشر وكون رسولهم إلها أو ابن الله - فمَن
 يؤمن بالتنزيه وهم يؤمنون بالتشبيه فقد اهتدوا أى وفقوا ورشدوا ولزموا طريق
 الحق ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى أعرضوا عما تدعوهم اليه من الرجوع إلى أصل دين
 الأنبياء ولبابه بإيمان كإيمانكم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أى أن أمرهم محصور في العداوة
 والمشاقة أى الايذاء والايقاع في المشقة ، أو شق العصا بتزيين الخلاف والتعصب لما
 يفصلهم ويبينهم منكم ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى يكفيك ايذاءهم
 ومكرهم السيء ويؤيد دعوتك وينصر أمتك . فهذا الوعد بالكفاية عام للمؤمنين
 ما داموا قائمين بأمر الدين ، وقد أنجز الله وعده للنبي والمؤمنين عند ما كانوا على
 ذلك الإيمان ، وكان الناس يقاومونهم لأجله ، فلما انحرفوا من بعدهم عنه خرجوا

عن الوعد ، ولو عادوا لعاد الله عليهم بالكفاية والنصر ﴿ ولينصرن الله من ينصره
إن الله لقوى عزيز ﴾

﴿ صبغة الله ﴾ وهى ما صبغ الله به أنبياءه ورسله والمؤمنين من عبادته على سنة
الفطرة . والصبغة فى أصل اللغة صبغة للهيئة من صبغ الثوب إذا لونه بلون خاص
﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ أى دين الله أو الاسلام ، أى لا أحسن من صبغته
فهى جماع الخير الذى يؤلف بين الشعوب والقبائل ، ويزكى النفوس ويطهر القلوب
والعقول ﴿ ونحن له ﴾ وحده ﴿ عابدون ﴾ فلا تتخذ أحبارنا وعلماؤنا أربابا
يزيدون فى ديننا وينقصون ، ويحولون لنا بأرائهم ويحرمون ، ويمحون من نفوسنا
صبغة الله الموجبة للتوحيد ويثبتون مكانها صبغة البشر القاضية بالشرك والتعدد
﴿ قل أتأجروننا فى الله ﴾ بدعواكم الاختصاص بالقرب منه وزعمكم أنكم أنبياء
الله وأحباؤه ، وأنه إن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، ومن أين جاءكم
هذا القرب والاختصاص بالله دوننا ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ ورب العالمين ، فنسبة الجميع
إليه واحدة وإنما تتفاضل الناس بالأعمال البدنية والنفسية ﴿ ولنا أعمالنا ﴾ التى تختص
آثارها بنا إن خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ كذلك ، وروح
الأعمال كلها الاخلاص ، فهو وحده الذى يجعلها مقربة لصاحبها من الله تعالى ووسيلة
لمرضاته ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ من دونكم . وحاصل معنى الآية ابطال معنى شبهة
أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحباؤه ، والفوز عندهم بعمل سلفهم لا بإصلاح أنفسهم
ولا بأعمالهم ، وهذا الاعتقاد هدم لدين الله ، وإن روح الدين الالهى وملاكه هو
التوحيد والاخلاص المعبر عنه بالاسلام ، وكل عمل أمر به الدين فإنما الغرض منه
إصلاح القلب والعقل بسلامة الاعتقاد وحسن القصد ، فإن زال هذا المعنى وحفظت
جميع الأعمال الصورية فإنها لا تفيد شيئا ، بل إنها تضر بدونه ، لأنها تشغل الانسان
بما لا يفيد وتبعده عن المفيد

﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو

نصارى ﴿ الآية في إقامة الحجة عليهم بأنهم يعتقدون أن إبراهيم كان على الحق وأن ملته هي الملة الالهية المرضية عند الله تعالى ، وإذا كان الأمر كذلك وكانت هذه التقاليد التي تقلدوها غير معروفة على عهد إبراهيم فما بالهم صاروا ينوطون النجاة بها ويزعمون أن ما عداها كفر وضلال ؟ فهو لا يثبت لهم القول بأن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا وإنما يقول انهم لا يقدرّون على القول بذلك ، لأن البدهة قاضية بكذبهم ، ولذلك قال لنييه ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴾ أنتم أعلم بالمرضى عند الله أم الله أعلم بما يرضيه وما لا يرضيه ؟ لا شك أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون

﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ والمعنى أن هؤلاء (اليهود) يجادلون في الحق بعد ما تبين ، مباهتون للنبي مع العلم بأنه نبي ، إذ ما كان لهم أن يشتبهوا في أمره بعد شهادة كتابهم له ، فإذا كان ظلمهم لأنفسهم قد انتهى بهم إلى آخر حدود الظلم وهو كتمان شهادة الله تعالى تعصبا لجنسيتهم الدينية فكيف ينتظر منهم أن يصغوا إلى بيان أو يخضعوا لبرهان ، والاستغفام هنا يتضمن التوبيخ والتقرير المؤكدين بالوعد في قوله ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وإنما الجزاء على الأعمال . ثم ختم الحاجة بتأكيد أمر العمل وعدم فائدة النسب فقال :

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ وإنما تسألون عن أعمالكم وتجاوزون عليها فلا ينفعكم ولا يضركم سواها . وهذه قاعدة يتبعها كل دين . كررت هذه الآية للتأكيد . أو لأن المراد بالاول الانبياء عليهم السلام وبالثنائي أسلاف اليهود والنصارى .

جاء القرآن يبالغ في تقرير قاعدة اربساط السعادة بالعمل والكسب وتبيينها ، ونفي الانتفاع بالانبياء والصالحين لمن لم يتأس بهم في العمل الصالح ، ولذلك أعاد هذه الآية بنصها في مقام حاجة أهل الكتاب المفتخرين بسلفهم من الانبياء العظام المعتمدين على شفاعتهم وجاههم وإن قصرُوا عن غيرهم في الأعمال . وفائدة الإعادة تقرير بناء السعادة على العمل دون الآباء والشفعاء والإشعار بمعنى إعطيه السياق هنا ، وهو أن أعمال هؤلاء المجادلين المشاغبين من أهل الكتاب مخالفة لأعمال سلفهم من

الأنبياء فهم في الحقيقة على غير دينهم ، فكل واحد من السلف والخلف مجزى بعمله لا ينفع أحدا منهم عمل غيره من حيث هو عمل ذلك الغير ولا شخصه بالأولى قال تعالى ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ﴾

الجزء الثاني - من سورة البقرة

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ
لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ
أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا
الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ
لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَانِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا
فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ
(١٤٤) وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ مَآيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ
بِتَابِعِ قِبَلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
ابْنَاءَهُمْ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)

التفسير

﴿سيقول السفهاء من الناس ما وليهم عن قبائهم التي كانوا عليها﴾ ليست
صخرة بيت المقدس بأفضل من سائر الصخور في مادتها وجوهرها ، فليس لها منافع
وخواص لا توجد في غيرها ، وكذلك يقال في هيكل سليمان وفي الكعبة والبيت
الحرام ، وإنما يجعل الله للناس قبلة لتكون جامعة لهم في عبادتهم ، ولكن سفهاء
الاحلام من أهل الجحود يظنون أن القبلة أصل في الدين من حيث هي الصخرة المعينة
أو البناء المعين ، ولذلك كانت الحججة التي لقنها الله لنبيه في الرد على السفهاء الجاهلين
بهذه الحكمة ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ أي إن الجهات كلها لله تعالى لا فضل لجهة
منها على جهة ، وإن الله يخصص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء وهو الذي ﴿يهدى
من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ صراط الاعتدال في الأفكار والأخلاق والأعمال ،
وإن العبرة في التوجه إليه سبحانه بالقلوب لا بالوجوه . و﴿السفهاء﴾ هم الذين
خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والاعراض عن النظر ، يريد المنكرين لتغيير
القبلة من المنافقين واليهود والمشركين ، وولاه صرفه عنه

قال تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ الوسط هو الخيار بين طرفي الأمر ،
أي المتوسط بينهما . والأمة الإسلامية قد جمع لها في دينها بين الحقين حق الروح
وحق الجسد فهي روحانية جثمانية ، وإن شئت قلت إنه أعطاها جميع حقوق
الإنسانية ، فإن الإنسان جسم وروح وحيوان وملاك كأنه قال : جعلناكم أمة وسطا
تعرفون الحقين وتبلغون الكمالين ﴿لتكونوا شهداء﴾ بالحق ﴿على الناس﴾
الجسمانيين بما فرطوا في جنب الدين والروحانيين إذا فرطوا وكانوا من الغالين ، وإن
ما هديتم إليه هو الكمال الإنساني ، لأن صاحبه يعطي كل ذي حق حقه : يؤدي
حقوق ربه وحقوق نفسه وحقوق جسمه وحقوق ذوى القربى وحقوق سائر الناس
﴿ويكون الرسول عليكم شيدا﴾ أي أن الرسول صلوات الله عليه هو المثال الكامل
لمرتبة الوسط ، وإنما تكون هذه الأمة وسطا باتباعها له في سيرته وشريعته ، وهو
القاضي بين الناس فيمن اتبع سنته ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخرى أو حدا حذو

المبتدعين . فكما تشهد هذه الأمة على الناس بسيرتها وارتقائها الجسدى والروحي بأنهم قد ضلوا عن القصد يشهد لها الرسول بما وافقت سنته وما كان لها من الاسوة الحسنة فيه . فكأنه قال : انما يتحقق لكم وصف الوسط اذا حافظتم على العمل بهدى الرسول واستقمتم على سنته ، وأما اذا انحرفتم عن هذه الجادة فالرسول بنفسه ودينه وسيرته حجة عليكم بأنكم لستم من أمته التى وصفها الله فى كتابه بهذه الآية بقوله ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ بل تخرجون بالابتداع من الوسط ، وتكونون فى أحد الطرفين ، وكلاهما مذموم

بين الله تعالى للسليين منزلتهم من سائر الأمم وهى أنهم أمة وسط لا تغفلوا فى شيء ولا تقف عند الظواهر ، وأنهم شهداء على الناس وحجة عليهم باعتدالهم فى الأمور كلها وفهمهم لحقائق الدين وأسراره ومن أهمها القبلة التى يتوجه اليها لا شأن لها فى ذاتها وإنما العبرة فيها باجتماع أهل الملة على كيفية واحدة عند التوجه الى الله تعالى ، ولا يليق أن تبالى بانتقاد السفهاء المذبذبين بين الافراط والتفريط . بعد هذا

قال تعالى ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه ﴾ أى وما جعلنا القبلة فيما مضى هى الجهة التى كنت عليها الى اليوم ثم أمرناك بالتحويل عنها الى الكعبة الا ليتبين الثابت على إيمانه من لا ثبات له . وإنما ثبت من فقه فى الشيء فعرف سره وحكمته ، وأما المقلد الآخذ بالظواهر من غير فقه ولا عرفان فلا يثبت فى مهاب عواصف الشكوك والشبهات . ومعنى الانقلاب على العقبين الانصراف عن الشيء وتركه بالمرة ، وفيه إشعار أنه رجع عن خير الى شر . ولذلك قال تعالى ﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ فمنحهم

الاعتدال فى الفكر والادراك ، وفى الميل والرغبة ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أى بشر المؤمنين المتبعين بأنهم يحزون على إيمانهم الجزاء الاوفى فلا يضيع الله أجرهم ولا يلتهم (ينقصهم) من ثباتهم على اتباع الرسول شيئاً . وقال القرطبي : اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلى الى بيت المقدس ، ثم قال :

فسمى الصلاة إيمانا لاجتماعها على نية وقول وعمل . وقيل ثبات المؤمنين على الايمان عند تحويل القبلة وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم . ﴿ ان الله بالناس

الرؤوف رحيم ﴿ أى الله رؤوف بالناس لأنه ذو الرحمة الواسعة فلا يضيع عمل عامل منهم . والرأفة لا تستعمل الا فى حق من وقع فى بلاء ، والرحمة تشمل دفع الألم والضرر ، وتشمل الاحسان وزيادة الاحسان . ﴾ قد نرى تقلب وجهك فى السماء ﴿ تقلب الوجه فى السماء عبارة عن التوجه الى الله تعالى انتظارا لما كانت تشعر به روح النبي ﷺ وترجوه من نزول الوحي بتحويل القبلة . ولا تدل الآن على أنه كان يدعو بلسانه طالبا هذا التحويل ولا تنفى ذلك . وهذا التوجه هو الذى يحبه الله تعالى ويهدى قلب صاحبه الى ما يرجوه ويطلبه لذلك قال تعالى ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ وقرن الوعد بالامر فقال ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ والشطر هنا معناه التحو والجهة ، فالواجب استقبال جهة الكعبة على البعد عنها وعدم رؤيتها . ﴿ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ أمر الله المؤمنين بما أمر به النبي للتأكيد الذى اقتضته الحال فى حادثة القبلة ، فانها كانت حادثة كبيرة استتبعت فتنة عظيمة . فأكد الامر بها وشرفهم بالخطاب مع خطاب الرسول صلوات الله عليه لتشتد قلوبهم وتطمئن نفوسهم ﴿ وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ أى إن تولى المسجد الحرام هو الحق المنزل من الله على نبيه ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ فهو المطلع على الظواهر والضمائر ، الحسيب على مافى السرائر ، الرقيب على الاعمال ، فيخبر نبيه بما شاء أن يخبره ، واليه المرجع والمصير ، وعليه الحساب والجزاء ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾ فلا يحزنك قوطم ولا إعراضهم ، ولا تحسبن الآيات والدلائل مؤثرة فيهم وصارفة لهم عن غنادهم ، فهم قوم مقلدون لا نظر لهم ولا استدلال ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ أى فائدة ترجى من موافقتك إياهم عليها وأنت تابع قبلة ابراهيم الذى يحلونه ويحترمون به ؟ ألم تر كيف اختلفوا هم فى القبلة فجعل النصارى لهم قبلة غير قبلة اليهود التى كان عليها عيسى بعد موسى ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ لأن كلا منهم قد جمد بالتقليد على ما هو عليه ، والمقلد لا ينظر فى آية ولا دليل ، فهو أعمى لا يبصر ، أصم لا يسمع ، أغلف

القلب لا يعقل ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين ﴾ :
 أى ولئن التمسيت يا محمد رضا هؤلاء اليهود والنصارى فرجعت الى قبيلتهم بعد أن وصل
 اليك من العلم باعلاى إياك أنهم يقيمون على باطل وعلى عناد منهم للحق انك اذا من
 المخالفين أمرى المعتدين حدودى

أفرد النبى عليه الصلاة والسلام بالخطاب مع أن المراد أمته خاصة ، اذ يستحيل
 أن يتبع هو أهواءهم أو يجاريهم على شىء نهى الله تعالى عنه ، ليتنبه الغافل ويعلم
 المؤمنون أن اتباع أهواء الناس ومجاراتهم على ما هم عليه من باطل هو من الظلم
 العظيم الذى يقطع طريق الحق ويرد الناس فى مهاوى الباطل ، كأنه يقول : هذا
 ذنب عظيم لا يتسامح فيه مع أحد ، حتى لو فرض وقوعه من أكرم الناس على الله
 تعالى لسجل عليه الظلم وهو العصيان والخروج عن الطاعة وجعله من أهله الذين صار

وصفا لازما لهم ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ فكيف حال من ليس له ما يقارب
 مكانته عند ربه عز وجل - وفى هذا إيماء الى اتباع العلماء أهواء العامة بعد ما جاءهم
 من العلم وما نزل عليهم من الوعيد عليه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون

أبنائهم ﴾ ذكر فى هذه الآية علة الانكار وهو أنهم (أهل الكتاب) يعرفون النبى
 ﷺ بما فى كتبهم من البشارة به ومن نعوته وصفاته التى لا تنطبق على غيره وبما
 ظهر من آياته وأثار هدايته . وقيل يعرف هؤلاء الاحبار من اليهود والعلماء من
 النصارى أن البيت الحرام قبلتهم وقبلة ابراهيم وقبلة الانبياء قبلك كما يعرفون أبنائهم
 الذين يتولون تربيتهم وحياتهم حتى لا يفوتهم من أمرهم شىء ﴿ وان فريقا منهم
 ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ أنه الحق الذى لا مزية فيه ، فماذا يرجى منهم بعد
 هذا . وقد أسند هذا الكتان الى فريق منهم اذ لم يكونوا كلهم كذلك ، فأن منهم من
 اعترف بالحق وآمن واهتدى به ، ومنهم من كان يحجده عن جهل ولو علم به لجاز أن
 يقبله

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا
فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(١٤٨) وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ
حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِمُ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ
وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)

التفسير

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) أى أن العمدة في معرفة الحق هو
الوحي يأتيك من عند ربك فلا تلتفت إلى أوهام هؤلاء الجاحدين فانها لا تصلح شبهة
على الحق الصريح الذي علمك الله فتمتري بها (تشكك) . والنهي في الآية هو كالوعيد
في الآية السابقة ، أى لا تكونن في شك يا محمد أن السكبة هي قبلك وكانت قبلة
الأنبياء من قبلك . وجه الخطاب به الى النبي ﷺ والمراد أمته من كان منهم غير
واسخ في الايمان وخشى عليه الاعتزاز بمظاهر أولئك المخادعين الذين يعتز بأمثالهم
في كل زمان ومكان (ولكل وجهة هو موليها) أى لكل أمة من الأمم جهة توليها
في صلاتها . والمراد بالوجهة القبلة أى انهم لا يتبعون قبلك وأنت لا تتبع قبلتهم .
(فاستبقوا الخيرات) باتباع الامام المرشد ، وإياكم والجدل والمشاغبة في أمثال

هذه الأمور . وهذا الأمر عام موجه إلى أمة الدعوة لا خاص بالمؤمنين المستجيبين
 لله والرسول . والمراد من الاستباق إلى الخيرات الاستباق إلى الصلاة في أول وقتها
 وقيل الأعمال الصالحة . ثم قال ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ﴾ أى فى أى جهة وأى
 مكان يقيم المرء فأنه تعالى يأتى به ، إذ البلاد والجهات لا شأن لها فى أمر الدين لذاتها
 إنما الشأن لعمل البر واستباق الخيرات ﴿ إن الله على كل شئ قدير ﴾ فلا يعجزه
 الاتيان بالناس مهما بعدت بينهم المسافات ، وتناوت بهم الديار والجهات . فالتصريح
 بالقدرة تذكير بالدليل على الدعوى ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد
الحرام ﴾ أعاد الله تعالى الأمر فى صورة أخرى ليبين أنه شريعة عامة فى كل زمان
 ومكان ، لا يختص ببلاد دون أخرى ، ولا يحضر دون سفر . وقد كان الأمر
 بالتحويل نزل على النبي ﷺ وهو فى الصلاة فأعلمه بصيغة الأمر أنه ليس خاصا
 بتلك الصلاة ولا بذلك المكان ، بل عليه أن يفعل ذلك من حيث خرج وأين توجه ،
 وقد وثق الأمر وأكده بقوله ﴿ ولأنه للحق من ربك ﴾ ثم قال فى حال الناس
 ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ أى أن الله لا يغفل عن أعمالكم وأنتم تحت نظر الحق
 دائما ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ والمراد بالناس المحاجون فى القبلة
 المعروفون ، وهم فريقان أهل الكتاب والمشركون . ووجه انتفاء حجبتهم هو أن أهل
 الكتاب كانوا يعرفون من كتبهم أن النبي الذى يبعث من ولد اسماعيل يكون على
 قبلته وهى الكعبة ، فجعل بيت المقدس قبلة دائمة له حجة على أنه ليس هو النبي المبشر
 به ، فلما كان التحويل عرفوا أنه الحق من ربهم وأن المشركين كانوا يرون أن نبيا من
 ولد ابراهيم جاء لحياء ملته لا ينبغى له أن يستقبل غير بيت ربه الذى بناه جده
 ابراهيم ، وقد جاء التحويل موافقا لما يرونه فانتفت حجة الفريقين ﴿ إلا الذين
ظلموا منهم ﴾ فهم لا يبتدون بكتاب ولا يعتبرون برهان ولا قيمة لما يقول هؤلاء ،
 فانهم هم السفهاء كما وصفوا فى الآية الأولى وهم اليهود ومشركو العرب ﴿ فلا تخشوهم ﴾
 يريد الناس أى لا تخافوا مطاعنهم فانها داحضة باطلة لا تصرفكم إذ لا مرجع لكلامهم
 من الحق ، لأنه لا يستند إلى برهان عقل ولا هدى سماوى ﴿ واخشوني ﴾ أنا فإنتى

التقدير . والآية ترشدنا إلى أن صاحب الحق هو الذي يخشى جانبه ، وأن المبطل لا ينبغي أن يخشى . فإن الحق يعلو ولا يعلى عليه ، وما آفة الحق الا ترك أهله له ، وخوفهم من أهل الباطل فيه ﴿ ولأنتم نعمتي عليكم ﴾ ان كل أمر يصدر من الله تعالى فامتثاله نعمة ، ولكنه إذا كان فيه حكمة ظاهرة وشرف للأمة يتعلق بتاريخها وكان أثره حميدا نافعا فيها تكون النعمة أنم والمنة أكل ، ولذلك عبر بالانتماء ، واتمام النعمة الهداية الى القبلة واتمام شرائع الله الخفيفة المسهلة التي وصيت بها الرسل من قبل ﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ أى كى ترشدوا للصواب ، أى وليعبدكم بذلك الى الاهتداء بالثبات على الحق والرسوخ فيه ، فان المعارضات والمخاضات تظهر ضعف الباطل وزهوقه ، وتبين قوة الحق وثبوته ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ﴾ أى يتم نعمته عليكم بإرساله تعالى رسولا منكم ، فالقبلة فى بلادكم ، والرسول من أمتكم ، والخطاب للعرب كما هو ظاهر ﴿ يتلو عليكم آياتنا ﴾ أى حججنا الدالة على أن ما جاء به من التوحيد والهداية هو الحق من عند الله ﴿ ويزكيكم ﴾ أى يطهر نفوسكم من الأخلاق السافلة والردائل الممقوتة ويخلقها بالأخلاق الحميدة بحسن الأسوة لا بالقهر والسطوة ﴿ ويعلمكم الكتاب والحكمة ﴾ تقدم تفسيره فى الكلام على دعوة ابراهيم وما هو ببعيد فالكتاب هو القرآن وما جاء به من الهداية والارشاد لاصلاح العباد . والحكمة هى المفسرة لما جاء به الكتاب العزيز من سيرة النبي ﷺ فى بيوته ومع أصحابه فى السلم والحرب والسفر والاقامة وفى حالة الضعف والقوة والقلة والكثرة ، فالسنة العملية المتواترة هى المهيئة للقرآن بتفصيل مجمله وبيان مبهمه وإظهار ما فى أحكامه من الأسرار والمنافع ، ولهذا أطلق عليها لفظ الحكمة فانها كانت كالحكمة (اللجام) لتأديب الفرس . فالسنة هى التى علمت المسلمين كيف يهتدون بالقرآن ، ومرتهم على العدل والاعتدال فى جميع الأحوال ﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أى مالا طريق لكم إلى معرفته بالنظر والفكر ، وهو لا يعلم إلا من الوحي . ويصح أيضا أن يراد ما لم تكونوا تعلمون من شئون أنفسكم ، والسنن الإلهية الحاكمة فيكم . وقد بلغوا بتعليمه وإرشاده مبلغا فاقوا فيه سائر الأمم . أى فالتعليم ليس محصورا فى الكتاب ، بل هناك زيادة أعد الله تعالى نبيه لتبيينها . والمقابلة بين هذا التعليم وتعليم الكتاب مبنية على أن المراد

بالكتاب القرآن ، وبالآيات الدلائل . وقد تقدم في تفسير دعوة إبراهيم وجه آخر في الكتاب ، وهو أنه مصدر كتب ، أى ويعلمكم الكتابة بعد أن كنتم أميين ، ولا مقابلة على هذا والامر ظاهر .

فَاذْكُرُونِي أَذْكَرْتُكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَسْبِلَنَّكُمْ بَشْيَءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرِ وَالصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)

التفسير

(فَاذْكُرُونِي) بما شرعت من أمر القبلة وبما أتممت عليكم من النعمة بإرسال رسول منكم يعلمكم ويزكيكم ، ولا تنسوا أنى أنا المتفضل بأفاضة هذه النعم عليكم (أَذْكَرْتُكُمْ) بادامتها وبغير ذلك من أركان السعادة ، وهذه أفضل تربية من الله تعالى لعباده إذا ذكره ذكرهم بادامة النعمة والفضل ، وإذا نسوه نسوهم منه بمقتضى العدل . ومعنى الآية اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة ودوام النعم . وقيل ذكر الله بثلاثة أقسام : ذكر باللسان وذكر بالقلب وذكر بالجوارح . فذكر اللسان هو أقل أنواع الذكر ، وهو الألفاظ التي يقصد بها العبد التمجيد والتسبيح والتحميد . وأما ذكر القلب فعلى ثلاثة أنواع : أولها أن يتفكر الانسان في دلائل الذات والصفات .. وثانيها ان يتفكر في دلائل التكليف من الامر والنهى والوعد والوعيد ويجتهد أن

يقف على حكمها وأسرارها ، وحينئذ يسهل عليه فعل الطاعات وترك المحظورات .
 وثالثها أن يتفكر الانسان في مخلوقات الله وأسرارها . . . أما ذكر الله بالجوارح فهي
 أن تصير الجوارح مستغرقة في الطاعات وخالية عن المنهيات . وبهذا التفسير سمى الله
 تعالى الصلاة ذكراً فقال ﴿ فاسمعوا الى ذكر الله ﴾ . اذا عرفت ذلك علمت أن قوله تعالى
 ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ يتضمن الأمر بجميع الطاعات والوعد باعطاء جميع الكرامات
 والخيرات . ثم بعد أن علمهم ما يحفظ النعم أرشدهم إلى المزيد بمقتضى الجود والكرم
 فقال ﴿ واشكروا لي ﴾ هذه النعم بالعمل بها وتوجيهها إلى ما وجدت لاجله ﴿ ولا
 تكفروا ﴾ أي لا تكفروا نعمي باهمالها أو صرفها إلى غير ما وجدت لاجله بحسب
 السنن الالهية . وهذا تحذير لهذه الأمة بما وقعت فيه الأمم السالفة ، إذ كفرت بنعم
 الله تعالى ، فحلت الدين عن قطبه الذي يدور عليه ، وهو الاخلاص وإسلام الوجه
 لله وحده ، وعظمت ما أعطاها الله من مواهب المشاعر والعقل فلم تستعملها فيما خلقت
 له . وهكذا انحرفوا بكل شيء عن أصله فسلبهم الله ما كان وهبهم تأديبا لهم ولغيرهم ،
 ثم رحيمهم بأن أرسل اليهم رسولا هداية عامة تعرفهم وجه تلك التربية الالهية وتحذرهم
 العود إلى أسبابها . وقد امثل المسلمون هذه الأوامر زمنا قصيرا فسعدوا ، ثم تركوها
 بالتدريج فحل بهم ما نرى ، فاذا عادوا عاد الله عليهم بما كان أعطى سلفهم ، وإلا
 كانوا من الهالكين . ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ المراد
 بالصبر في هذه الآيات كلها ملكة الثبات والاحتمال التي تهون على صاحبها ما يلاقه في
 سبيل الحق ونصرة الفضيلة ، وإنما يكون الامثال بتعويد النفس على احتمال المكاره
 والشدائد في سبيل الحق ، وعلى ذلك جرى النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه عليهم
 الرضوان ، حتى فازوا بعاقبة الصبر المحمود ، ونصرهم الله تعالى - مع قلتهم وضعفهم -
 على جميع الأمم مع قوتها وكثرتها . وإنما كان ذلك بالصبر ، لأن الله تعالى جعله سبباً
 للنجاة من الخسر ، كما جاء في سورة العصر . والصلاة التي أكثر من ذكرها الكتاب
 العزيز ووصف ذويها بفضلي الصفات ، وهي التوجه إلى الله تعالى وحضور القلب معه
 سبحانه واستغراقه في الشعور بهيبته وجلاله وكال سلطانه ، تلك الصلاة التي قال فيها
 ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾

ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ إن من سنة الله تعالى أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار . وهذا إنما يكون بالصبر ، فمن صبر فهو على سنة الله ، والله معه بما جعل هذا الصبر سببا للظفر ، لأنه يولد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح ، ومن لم يصبر فليس الله معه ، لأنه تنكب سنته ولم يثبت فيبلغ غايته . علم الله سبحانه وتعالى المؤمنين ما يستعينون به على مجاهدة الحواطر والهواجس ، ومقاومة الشبهات والوساوس ، فأمر أولا بالاستعانة بالصبر والصلاة ، ثم ذكر أعظم شيء يستعان عليه لذلك وهو القتل في سبيل دعوة الحق وحمايته . ذكره مدرجا في سياق تقرير حقيقة ودفع شبهة فقال ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ أى لا تقولوا في شأنهم هم أموات ﴿بَلْ هُمْ﴾ هم ﴿أَحْيَاءٌ﴾ في عالم غير عالمكم ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بحياتهم ، إذ ليس في عالم الحس الذى يدرك بالمشاعر وهى حياة لا نعرفها واننا لا نثبت ما لا نعرف . ذكر الله تعالى فضل الشهادة التى استهدف لها المؤمنون في سبيل الدعوة الى الحق والدفاع عنه ، ثم ذكر مجموع المصائب التى يلاقونها فقال : ﴿وَلَنَبَلِّغُنَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ يعلم الله المؤمنين أن اتصاف الانسان بالإيمان لا يقتضى سعة الرزق وقوة السلطان وانتفاء المخاوف والأحزان ، بل يجرى ذلك بسنن الله تعالى فى الخلق . وانما المؤمن الموفق من يستفيد من مجارى الأقدار إذ يترتب ويتأدب بمقاومة الشدائد والاضطار . ومن لم تعلمه الحوادث وتهدبه الكوارث فهو جاهل بهدى الدين ، متبع غير سبيل المؤمنين ، غير معتبر بقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ لأن معالى الأمور لا تكتسب إلا بالصبر والمثابرة .

والخوف المشار اليه فى الآية — وأعداء الاسلام على ما كانوا عليه من الكثرة والقوة — ظاهر لا يخفى . على أن بعضهم فسرهم بالخوف من الله تعالى وهو كما نرى . وأما الجوع فهو أن أحدهم يؤمن ، فيفصل من أهله وعشيرته ، ويخرج فى الغالب صفر اليدين ، ولذلك كان الفقر عاما فى المسلمين من أول عهدهم إلى ما بعد الفتح . ومن هذا التفسير يفهم المراد من نقص الأموال ، وهى الأنعام التى كانت معظم ما يتموله

العرب . وأما الثمرات فهي على أصلها ، وكان معظمها ثمرات النخيل ، وقد بلغ من جوع المسلمين أن كانوا يتبلغون بثمرات يسيرة لا سيما في واقعة الأحزاب . وأما نقص الأنفس فهو ما كان من القتل والموتان من اجتواء المدينة ، فقد كانت عند هجرتهم إليها بلد وباء وحى . ثم ذكر من وصف الصابرين قوله ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ والمراد التلبس بمعناها ، والتحقق في الإيمان بأنهم من الله وإلى الله يرجعون ، فهو الذى بيده ما كوت كل شيء ، ولا يفعل الا ما سبقت به الحكمة ، وارتضاء النظام الالهى المعبر عنه بالسنة . فأصحاب هذا الاعتقاد والشعور هم الجديرون بالصبر لإيماننا وتسليما ، بحيث لا يملك الجزع نفوسهم ، ولا تفقد المصائب همهم ، بل تزيدهم ثباتا ومثابرة فيكونون هم الفائزين .

ذكر البلاء ، وذكر الوصف الذى يستحقون به البشارة ، وختم القول ببيان الجزاء

بالاجمال ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ، فاما الصلوات فالمراد بها أنواع التكريم والرحمة والنجاح وإعلاء المنزلة عند الله والناس ، وأما الرحمة فهي ما يكون لهم في نفس المصيبة من حسن الجزاء وبرد الرضى والتسليم للقضاء ، فهي رحمة خاصة يحسد الملحدون عليها المؤمنين ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ إلى ما ينبغى عمله في أوقات المصائب والشدائد ، إذ لا يستحوذ الجزع على نفوسهم ، ولا يذهب البلاء بالأمل في قلوبهم ، فيكونون هم الفائزين بخير الدنيا والراحة فيها ، المستعدين لسعادة الآخرة بعلوم النفس وكرم الأخلاق

إِنَّ الصَّافِيَاتِ وَالْمُرَوِّاتِ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حُجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ

اتُوبَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خُلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٦٢)

وَالْحُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٨٣) إِنَّ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ
النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ
كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ (١٦٤)

التفسير

﴿ إِنَّ الصِّفَا وَالْمُرُوَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا ﴾ إِنَّ مِنْ حُكْمِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ تَوْجِيهَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى
الِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهِ لِأَجْلِ تَطْهِيرِهِ مِنَ الشَّرْكِ وَغَيْرِهِ كَمَا عَهَدَ اللَّهُ إِلَى أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ
وِإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . وَإِنْ فِي طَى ﴿ وَلَا تَمْنَعُكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ بِشَارَةً بِهَذَا الْاسْتِيلَاءِ
مُفِيدَةً لِلْأَمَلِ وَالرَّجَاءِ . وَالصِّفَا وَالْمُرُوَّةَ مُرْتَبِطَةٌ بِهِ أَشَدَّ الْارْتِبَاطِ مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْحُكْمَ
الَّذِي فِيهَا مِنْ مَنَاسِكَ الْحَجِّ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي أَحْيَا النَّبِيَّ دِينَهُ وَجَعَلَتْ الصَّلَاةَ
إِلَى قِبْلَتِهِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : لَا تَلْوِينَكُمْ قُوَّةَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ وَكَثْرَةَ الْأَصْنَامِ عَلَى الصِّفَا
وَالْمُرُوَّةَ عَنْ الْقَصْدِ إِلَى تَطْهِيرِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَإِحْيَاءِ تِلْكَ الشَّعَائِرِ الْعِظَامِ ، كَمَا لَا يُلَوِّنُكُمْ
عَنْ اسْتِقْبَالِ الْبَيْتِ تَقُولُ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَلَا زُلْزَالَ مَرْضَى الْقُلُوبِ مِنَ
الْمُنَافِقِينَ ، بَلْ ثَقُّوا بِوَعْدِ اللَّهِ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ . وَاصِلُ (الصِّفَا) فِي اللَّفْظِ

الحجر الاملس . و (المروة) هى الحجارة الصغار

والصفا والمروة فى هذه الآية جبلان فى مكة ، والمسافة بينهما خمسمائة متر .
والشعائر تطلق على المكان وعلى العمل المخصوص الذى هو عبادة ونسك ، فى آية
أخرى ﴿ لا تحلوا شعائر الله ﴾

فالشعائر فى الآية معناها العلامات . فأما كون المواضع كالصفا والمروة من
علامات دين الله أو أعلام دينه فظاهر ، وأما كون المناسك والأعمال شعائر وعلامات
فوجهه أن القيام بها علامة على الخضوع لله تعالى وعبادته لإيماننا وتسليما . ولذلك غلب
استعمال الشعائر فى أعمال الحج لأنها تعبدية . والسعى بين الصفا والمروة من هذا

النوع التعبدى ، فهو مطلوب بقوله تعالى ﴿ فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه
أن يطوف بهما ﴾ حج البيت : قصده . أو اعتمر : أى زار . والتطوف هو الذى
عرف فى الاصطلاح بالسعى بين الصفا والمروة ، وفسرته السنة بالعمل . وإذا كان
مشروعا فسواء كان ركنا بقول الأئمة الثلاثة أو واجبا كما يقول الحنفية . وقوله عز
وجل ﴿ فلا جناح عليه ﴾ لا إثم عليه فى الطواف ، وهذه الآية نزلت فى الذين
كانوا يتخرجون أن يطوفوا بالصفا والمروة والذين يطوفون ثم يتخرجون أن
يطوفوا بهما فى الإسلام ، وكانت الصفا والمروة من شعائر الجاهلية . ﴿ فمن تطوع
خيرا ﴾ فان معنى التطوع فى أصل اللغة الإتيان بما فى الطوع أو بالطاعة ، وإطلاقه
على الندب اصطلاح للفقهاء وقوله ﴿ إن الله شاكر عليم ﴾ معناه إن الله يثيبه ، لأنه
شاكر يحزى على الإحسان ، عليم بمن يستحق الجزاء ومن لا يستحقه

ثم قال تعالى ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه
للناس فى الكتاب ﴾ إلخ ، هذه الآية عود إلى أصل السياق ، وهو مجاهدة النبي
ومعاندته من الكفار عامة ومن اليهود خاصة ، وقد بينها الله تعالى فى هذه الآية أنهم
كتموا ما فى الكتاب من الهدى والارشاد بضروب التأويل ، حتى أفسدوا الدين ،
وانحرفوا بالناس عن صراطه . وذكر جزاءهم فقال ﴿ أولئك ﴾ أى الذين كتموا

البينات والهدى ﴿ يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ أى يتسبب أمنهم ويبعدهم من ثوابه . وأصل اللعن الإبعاد والطرده . ولعن اللاعنين معناه أنهم بفعلتهم هذه موضع لعنة اللاعنين الآتى ذكره فى الآية التالية ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ عن الكتمان ﴿ وأصلحوا ﴾ عملهم بالآخذ بتلك البينات عن النبى ودينه والهدى المطابق لما جاء به ﴿ وبينوا ﴾ ما كانوا يكتمونه ﴿ فأولئك أتوب عليهم ﴾ أى أرجع وأعود عليهم بالرحمة والرفقة بعد الحرمان المعبر عنه باللعنة ﴿ وأنا التواب الرحيم ﴾ يصف نفسه سبحانه بكثرة الرجوع والتوبة فأى ترغيب فى ذلك أبلغ من هذا وأشد تأثيرا منه لمن يشعر . وإن حكم الآية عام وإن كان سببها خاصا . فكل من يكتم آيات الله وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة ، فليحاسب كل امرئ نفسه قبل أن يحاسب ، وليتب إلى الله قبل حلول الأجل لعله يتوب عليه وهو التواب الرحيم

﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ المراد أن هؤلاء الكافرين المصرين على كفرهم إلى الموت هم أهل اللعنة وموضوع لها من الله والملائكة الروحانيين ومن الناس أجمعين ﴿ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ قالوا الخلود فى اللعنة عبارة عن الخلود فى أثرها وهو النار بقرينة لا يخفف عنهم العذاب .

﴿ وإلهمكم إله واحد لا إله إلا هو ﴾ أى فلا تشركوا به أحدا . والشرك به نوعان : أحدهما يتعلق بالالوهية ، وهو أن يعتقد أن فى الخلق من يشاركه تعالى أو يعينه فى أفعاله أو يحمله عليها أو يصد عنها لأجل قربه منه . وثانيهما يتعلق بالربوبية وهى أن تؤخذ أحكام الدين فى عبادة الله والتحليل والتحریم من غيره ، أى غير كتابه ووحيه الذى بلغه عنه رسله . وإذا كان الله تعالى واحدا لا إله معه فلا ينبغى أن يشرك معه غيره فهو كذلك ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ فلا ينبغى أن يعرض العبد عن أسباب رحمته اعتمادا على رحمة سواه بمن يظن أنهم مقربون عنده كأنه يقول : إذا

أنتم تركتم ما أنتم فيه لأجله تعالى فهو بتفرد بالالوهية يكفيكم كل ضرر تخافونه ، ويعطيكم برحمته الواسعة كل ما ترجونه ، الرحيم الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبدا . إن الوحدة تذكر أولئك الكافرين الكاثمين للحق بأنهم لا يجدون ملجأ غير الله يقيهم عقوبته ولعنته . وذكر الرحمة بعدها يرغبهم في التوبة ، ويحول دون يأسهم من فضل الله بعد إياسهم من اتخذوهم شفعا ووسطاء عنده ، فيطابق ذلك قوله تعالى في الآية التي ذكر فيها السكتان ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ الخ .

﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ الخ هذه آية قرآنية تشرح لنا بعض الآيات السكونية الدالة على وحدانية الله تعالى إثباتا لما ورد في الآية قبلها من هذين الوصفين له تعالى على طريقة القرآن في قرن المسائل الاعتقادية بدلائلها وبراهينها

تألف الأجرام السماوية من طوائف ، لكل طائفة منها نظام كامل محكم ، ولا يبطل نظام بعضها نظام الآخر ، لأن المجموع نظاما عاما واحدا يدل على أنه صادر عن إله واحد لا شريك له في خلقه وتقديره وحكمته وتديره ، فهذا النظام آية على الرحمة الإلهية ، كما أنه آية على الوحدانية ، والأرض في جرمها ومادتها وشكلها وعوالمها المختلفة من جماد ونبات وحيوان لكل منها نظام عجيب وسنن إلهية مطردة في تكوينها وتوالد ما يتوالد من أحيائها وغير ذلك مما لا يدع شكاً أنها ترجع في ذلك إلى إبداع إله حكيم رءوف رحيم ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ . ذكر هذه الآية بعد خلق السموات والأرض لأن هذا الاختلاف هو أثر مقابلة الأرض للشمس وحركتها بأزائها . وفي المشاهد من اختلاف الليل والنهار والفصول وما للناس في ذلك من المنافع والمصالح آيات بينة على وحدة مبدع هذا النظام المطرد ورحمته لعباده . ويسهل على كل أحد أن يفهمها وإن لم يعرف أسباب ذلك الاختلاف وتقديره ﴿ والفلك التي تجري في البحر ﴾ والنسكة في ذكر هذه الآية عقيب آية الليل والنهار هي أن المسافرين في البر والبحر هم الذين يمكنهم تحديد اختلاف الليل والنهار على الوجه الذي ينتفع به ، والمسافرون في البحر أحوج لمعرفة الأوقات وتحديد الجهات ، لأن خطر الجهل عليهم أشد ، وفائدة المعرفة لهم أعظم ، ولذلك كان من ضروريات رباني السفن معرفة علم النجوم (الحياة الفلكية) وعلم الليل والنهار

من فروع هذا العلم - ولا بد لفهم كونها آية على وحدانيته من فهم طبيعة الماء وطبيعة قانون الثقل في الأجسام ، وطبيعة الهواء والرياح ، وزد على ذلك معرفة طبيعة البخار والكهرباء التي هي العمدة في سير الفلك الكبرى في زماننا ، فكل ذلك يجري على سنن إلهية مطردة منتظمة تدل على أنها صادرة عن قوة واحدة هي مصدر الابداع

وهي قوة الاله الواحد الرحيم ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء ﴾ المراد بالسماء جهة العلو ، وقد ذكر المطر في قوله تعالى ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ ، فحرارة الهواء هي التي تبخر المياه والرطوبات وتثيرها الرياح في الجو حتى تتكاثف ببرودته وتكون كسفا من السحاب يتخلل منه الماء ويخرج من خلاله وينزل بثقله إلى الأرض

ثم وصف الله تعالى هذا الماء بأعظم آثاره فقال ﴿ فأحيى به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ ، فحياة الأحياء في الأرض إنما هي بالماء ، سواء كانت بالإحياء الأول عند تكوين العوالم الحية وإيجاد أصول الأنواع ، أو الإحياء المتجدد في أشخاص هذه الأنواع وجزئياتها التي تتولد وتنمو كل يوم - وهذه المياه التي يتغذى بها النبات والحيوان على سطح هذه اليابسة (الأرض) كلها من المطر - هذا هو الماء وفي كونه سببا للحياة في كيفية وجوده وتكوينه فإنه يجري في ذلك على سنن إلهية حكيمة تدل على الوحدة والرحمة ، وقل مثل هذا فيما بث الله تعالى في الأرض من دابة فإنها آيات على الوحدة ودلائل وجودية على عموم الرحمة ، وبث الدواب في الأرض فرقتها وإرسالها في أرجائها وأنحائها . قال تعالى ﴿ وتصريف الرياح

والسحاب المستخر بين السماء والأرض ﴾ تصريف الرياح تديرها وتوجيهها على حسب الإرادة ووفق الحكمة والنظام . وذكر السحاب هنا بعد ذكر تصريف الرياح لأنها هي التي تثيره وتجمعه ، وهي تسوقه إلى حيث يطر وتفرق شمله أحيانا فيمنع المطر ، وأنه يتكون بنظام ويعترض بين السماء والأرض بنظام ، فهو آية ، ولذلك قال تعالى إن في هذه الأشياء ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ . ألا إن الله كتابين : كتابا مخلوقا وهو الكون ، وكتابا منزلا وهو القرآن . وإنما يرشدنا هذا إلى طرق العلم

بذلك بما أوتينا من العقل ، فمن أطاع الله فهو من الفائزين ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَخَّطْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ فَتَنَّاهُمْ بِهِمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (١٦٧)

التفسير

(ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) المراد من التذ من يطلب منه مالا يطلب إلا من الله عز وجل ، أو يؤخذ منه مالا يؤخذ إلا عن الله تعالى ، والمراد بالحب ما يحبه ما يحبه المحب في نفسه من الأنس بالمحبوب والثقة به والاعتماد عليه واللجأ إليه على اختلاف أطوار الإنسان في وجدانه واعتقاده . والحب لا ينبغي أن يكون لغير الله تعالى إذ لا يلجأ إلى غيره في كل شيء كما يلجأ إليه ، ولكن متخذى الأنداد قد أشركوا أندادهم معه في الحب ، فحبهم إياهم من نوع حبهم إياه . جل ثناؤه ، لا يخصونه بنوع من الحب إذ لا يرجون منه شيئا إلا وقد جعلوا الأنداد ضربا من التوسط الغيبي فيه ، فهم كفار مشركون بهذا الحب الذي لا يصدر من

مؤمن موحد ، ولذلك قال تعالى : بعد بيان شرهم هذا ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ فحبهم ثابت كامل لأن متعلقه هو الكمال المطلق الذي يستمد منه كل كمال ، وللبؤمن محبوب واحد يعتقد أن منه كل شيء وييده ملكوت كل شيء وله القدرة والسلطان على جميع الأكوان ، فما ناله من خير كسبي فهو بتوفيقه وهدايته ، وما جاءه بغير حساب فهو بتسخيره وعنايته . وللبشر أُنُداد متعددون ، وأرباب متفرقون ، فاذا حزبه امر أو نزل به ضرر لجأ إلى بشر أو صخر أو توسل بحيوان أو قبر أو استشفع بزيد وعمر ، لا يدرى أيهم يسمع ويُسمع ويشفع فيشفع ، فهو دائما مبطل البال لا يستقر من القلق على حال . ويجب علينا أن نعتقد بأن الحكم لله تعالى وحده لا يؤخذ عن غيره الدين ، كما يجب علينا أن نعتقد بأن لا فعل لفـيره تعالى ، فلا نطلب شيئا إلا منه . وطلبنا منه يكون بالأخذ بالأسباب التي وضعها وهدانا إليها ، فان جهلنا أو عجزنا فإننا نلجأ إلى قدرته ، ونستمد عنايته وحده ، وبهذا نكون موحدين مخلصين له الدين كما أمرنا في كتابه المبين ، ومن خرج عن هذا كان

من متخذى الأنداد ، ومن يضل الله فما له من هاد ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون

العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب ﴾ والظلم باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود ، يرون العذاب المعد لهم يوم القيامة وأن القوة لله جميعا ولا دخل

لأحد في شيء أصلا ﴿ إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ تفصيل حال التابعين والمتبوعين ، وقد ورد بصيغة الماضي كأن الأمر قد وقع ، ورأى الرؤساء المبطلون الذين اتبعوا أن إغواهم للناس الذين اتبعوا رأيتهم وقلدوهم دينهم قد ضاعف عذابهم ، وحملهم مثل أوزار الذين أضلوهم فوق أوزارهم ، فتراوا منهم فتنصلوا

من ضلالتهم ﴿ و ﴾ قد ﴿ رأوا العذاب ﴾ فأنى ينفعهم التبرؤ ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ فلم تبق من صلة بينهم وبين التابعين ، فلا منفعة للتبرؤ تركت فيحمد تركها ، ولا هداية للبرأ منه ترجى فيحمد أثرها .

والأسباب جمع سبب ، وهو كل ما تسبب به الرجل إلى الوصول إلى حاجته وطلبته ، فيقال للوسيلة سبب للوصول بها إلى الحاجة ، وكذلك كل ما كان به إدراك

الطلبة فهو سبب لادراكها ، وأصله في اللغة الحبل الذي يشد به الشيء ويجذب به ثم جعل كل ما جرى شيئاً سبباً . والمراد به الوصل التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من الرحم وغيره ، وقيل هي الاعمال

﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرزوا منا ﴾ أى تمنى لو أن لنا رجعة إلى الدنيا لتبرأ من اتباع هؤلاء المضلين وننتصل من رياستهم ، أو لتتبع سبيل الحق ونهتدى بكتاب الله وسنة رسوله ، ثم نعود إلى هنا - الآخرة - فنتبرأ من هؤلاء الضالين كما تبرزوا منا ، إذ تسعد بأعمالنا من حيث هم أشقياء بأعمالهم

﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أى أن الله تعالى يظهر لهم كيف أن أعمالهم قد كان لها أسوأ الأثر في نفوسهم ، إذ جعلها مستندلة مستعبدة لغير الله تعالى ، فأورثها ذلك من الظلمة والصغار ما كان حسرة وشقاء عليها ، فالأعمال هي التي كونت هذه الحسرات في النفس ، ولكن لم يظهر ذلك إلا في الدار التي تسعد فيها كل نفس بارتقائها وتشقى بانحطاطها ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ إلى الدنيا فيشفوا غيظهم من رؤسائهم وأندادهم ، لأن علة دخولهم فيها هي ذواتهم بما طبعها عليه أعمال الشرك وحب الأنداد .

وما بين الله تعالى ضروب الشرك وصفات الكافرين وأحوالهم إلا عبرة لمن يؤمن بكتاب الله حتى لا يقع فيما وقعوا فيه فيكون من الهالكين

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَإِنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ عِبَادَنَا أَوْ لَوْ كَانَ مَا بَأُؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ

كُفِرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءَ وَنِدَاءٍ صَمَّ بِكُمْ عَمَىٰ فُهِمَ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)

التفسير

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ الحلال هو غير الحرام الذي نص عليه في قوله تعالى ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أَوْحَىٰ إِلَىٰ مَحْرَمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فُسْقًا أَهْلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ ﴾ فما عدا هذا كله مباح بشرط أن يكون طيبا . وفسر الحلال بالحلال الطيب على أنه تأكيد أو بالمستلذ به . على أن هناك المحرم العارض فيتمين بيبانه ، وهو ما يتعلق به حق الغير ويؤخذ بغير وجه صحيح كما يكون في أكل الرؤساء من المرءوسين بلا مقابل إلا أنهم رؤسائهم المسيطرون عليهم ، وكذلك أكل المرؤسين بجاه الرؤساء فإن كلا منهم يمد الآخر ليستمد منه في غير الوجوه المشروعة التي يتساوى فيها جميع الناس . وبهذا التفسير يتحرر ما أباحه الدين وتلتئم الآية مع ما قبلها . وأتبع الأمر النهي فقال ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أما خطواته فهي ما يبينه في الآية التالية ، وأما كونه عدوا مبينا فهو لا يتوقف على معرفة ذاته ، وإنما يعرف الشيطان بهذا الأثر الذي ينسب إليه ، وهو وحى الشر وخواطر الباطل والسوء في النفس . ثم بين ذلك بما يفيد تعليل النهي فقال : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ أما السوء فهو كل ما يسوءك وقوعه أو عاقبته . وأما الفحشاء فكل ما يقبح في أعين الناس من المعاصي والآثام ، ولا يختص بنحو الزنا كما قال بعضهم ، والفحشاء في الغالب أقبح وأشد من السوء ، وأسوأ السوء مبدءا وعاقبة ترك الأسباب الطبيعية التي قضت حكمة البارئ بربط المسببات بها اعتمادا على أشخاص تعتقد فيهم السلطة الغيبية والتصرف في الأكوام بدون اتخاذ الأسباب ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وهذا أقيح ما يأمر به الشيطان ، فإنه الأصل في إفساد العقائد وتحريف الشرائع واستبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فكل من يزيد في الدين عقيدة أو حكما - من غير استناد إلى كلام الله أو كلام المعصوم - فهو من الذين يقولون على الله مالا يعلمون ، مثل ذلك الزائرات للقبور وما يأتينه هناك من البدع والمنكرات باسم الدين وغير ذلك .

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ اسم مخاطب هؤلاء ببطلان ما هم عليه وتشنيعه خطابا بل حكى عنهم حكاية ، وبين فساد مذهبهم فيها ، كأنه أنزلهم منزلة من لا يفهم الخطاب ولا يعقل الحجج والدلائل ، وهؤلاء لا يرغبون عن اتباع ما أنزل الله استئناسا بما ألفوه بما ألفوا آباءهم عليه ، وحسبك بهذا شناعة ، إذ العاقل لا يؤثر على ما أنزل الله تقليد أحد من الناس مهما كبر عقله وحسن سيره ، فقد يكون هذا معرضا للخطأ والزلل ، فلا ثقة في الدين إلا بما أنزل الله ، ولا معصوم إلا من عصم الله . على أنه لو لم يكن مؤمنا بالوحى لوجب

أن ينفره عن التقليد قوله تعالى ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ فان هذا حجة عقلية لا تنقض ، أى أتبعون ما ألفوا عليه آباءهم ولو كان آباؤهم لا يسلكون طريق العقل بالاستدلال على أن ما هم عليه من العقائد هو الحق . ولا يهتدون طريق الاعتدال المشروع في أعمالهم وأحوالهم . وعقل الشيء معرفته بدلائله وفهمه بأسبابه ونتائجه ، وأبعد الناس عن معرفة الحق المقلدون الذين لا يبحثون ولا يستدلون ، لأنهم قطعوا على أنفسهم طريق العلم ، وسجلوا على عقولهم الحرمان من الفهم .

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ ومعنى المثل أن قصة هؤلاء وشأنهم كشأن الناعق بالغنم ، ولا يقتضى هذا أن يكون كل جزء من المشبه كقابله من المشبه به ، والكفر جحود الحق والاعراض عنه والكافر هو الذى يرى الحق ويعرض عنه ويصرف نفسه عن دلائله وآياته فلا ينظر فيها ، فهو كالحيوان يرضى بأن لا يكون له فهم ولا علم بل يقوده غيره ويصرفه كيف شاء ، فهو مع من قلدهم من الرؤساء كالغنم مع الراعى ، تقبل

بدعائه وتزجر بدعائه ، مسخرة لارادته وقضائه ، ولا تفهم لماذا دعا ولماذا زجر ،
فدعوتها للرعى والذبح سواء . ولذلك وصف الله الكافرين بعد تقرير المثل بقوله
(صم) لا يسمعون الحق سماع تدبر وفهم (بكم) لا ينطقون به عن اعتقاد وعلم
(عمى) لا ينظرون في آيات الله وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (فهم لا
يعقلون) كما يطلب من الانسان ، وإنما ينقادون لغيرهم كما هو شأن الحيوان

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ
فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) إِنَّ الَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْتَرُونَ بِهِ ثُمَّنَا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَكُونُ فِي
بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارُ وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)
أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ
(١٧٥) ذَلِكَ بَانَ اللَّهُ نَزَلَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي
شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

التفسير

(يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) وهذا تنبيه بعد ما تقدم إلى

عدم الالتفات إلى أولئك الخلق الذين أيسحت لهم خيرات الأرض بأعمالهم فطفقوا يحلون بعضها ويحرمون بعضها بوساوس رؤسائهم ، فهو يقول كلوا من الطيبات ولا تضيقوا على أنفسكم مثلهم ﴿ واشكروا لله ﴾ الذى خلقها لكم وسهل عليكم أسبابها ، بأن تتبعوا سنته الحكيمة فى طلب هذه الطيبات واستخراجها ، وفى استعمالها فيما خلقت لأجله ، ومن الشكر له تعالى استعمال القوى التى غذيت بتلك الطيبات فى نفع أنفسكم وأمتكم وجنفسكم ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أى إن كنتم تخصصونه بالعبادة والاعتقاد بالانفراد بالسلطة والتأثير ، ولا تجعلون له أندادا تطالبون منهم الرزق وترجعون اليهم بالتخليل والتحریم ، فإن ذلك له وحده وإلا كنتم به كافرين كالذين من قبلكم الذين اتخذوا بينهم وبين الله وسطاء فى طلب الرزق ، ورؤساء يحلون ويحرمون .

وبعد ذكر إباحة الطيبات ذكر المحرمات فقال عز وجل ﴿ إنما حرم عليكم الميتة ﴾ لما فى الطباع السليمة من استقذارها ، ولما يتوقع من ضررها ، فأنها إما أن تكون ماتت بمرض سابق أو بعلّة عارضة وكلاهما لا يؤمن ضرره . وفى معنى الميتة كل ما أتلّف بغير قصد الذكاة كالمخنقة والموقوذة الخ ما ذكر فى آية المائدة ﴿ والدّم ﴾ أى المسفوح كما فى آية الأنعام فإنه قدر لا طيب وضار كالميتة ﴿ ولحم الخنزير ﴾ فإنه قدر لأن غذاء الخنزير من القاذورات والنجاسات وهو ضار فى جميع الأقاليم كما ثبت بالتجربة ، وأكل لحمه من أسباب الدودة الوحيدة القتالة ﴿ وما أهل لغير الله ﴾ وهو ما كان يذبح ويقدم للأصنام أو غيرها مما يعبد ، والمنع من هذا دينى محض لحماية التوحيد لأنه من أعمال الوثنية ، فكل من أهل لغير الله على ذبيحة فإنه يتقرب إلى من أهل باسمه تقرب عبادة ، وذلك من الشرك والاعتماد على غير الله . وقد ذكر الفقهاء أن كل ما ذكر عليه اسم غير الله — ولو مع اسم الله — فهو محرم ﴿ فن اضطر ﴾ إلى الأكل مما ذكر بأن لم يجد ما يسد به رمقه سواه ﴿ غير باغ ﴾ له أى غير طالب له راغب فيه لذاته ﴿ ولا عاد ﴾ يتجاوز قدر الضرورة ﴿ فلا إثم عليه ﴾ لا ذنب

عليه ، لأن الالتقاء بنفسه الى التهلكة بالموت جوعاً أشد ضرراً من أكل الميتة أو الدم أو لحم الخنزير ﴿ان الله غفور رحيم﴾ إذ حرم على عباده الضار ، وجعل الضرورات بقدرها ليتنى الحرج والعسر عنهم .

وقد فسر الجلال (باغ) بالخارج عن المسلمين (وعاد) بالمعتدى عليهم بقطع الطريق ويلحق بهم كل عاص بسفره كالآبق والمكاس وعليه الشافعى . ولا خلاف بين المسلمين فى أن العاصى كغيره يحرم عليه إلقاء نفسه فى التهلكة ، ويجب عليه توقي الضرر ، ويجب علينا دفعه عنه إن استطعنا ، فكيف لا نتناوله اباحة الرخص

﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ هذه الآيات جارية على الرؤساء الذين يجرمون على الناس ما لم يحرم الله ويشرعون لهم ما لم يشرعه من حيث يكتمون ما شرعه بالتأويل أو الترك سواء كان ذلك فى أمر الأكل والتعشيف والعقائد ، وفى حكمهم كل من يبدى بعض العلم ويكتم بعضه لمنفعته لا لإظهار الحق وتأنيده . وهذا هو ما عبر عنه بقوله ﴿يشترون به ثمناً قليلاً﴾ إذ اتخذوا الدين تجارة والتمن القليل منه ما قاله المفسر من استفادة الرؤساء من المرعوسين ومنه عكسه كما تقدم غير مرة . وقال المفسرون هذا الحكم يصدق على المسلمين كما يصدق على أهل الكتاب ، لأن الغرض تقرير الحكم وهو عام كما يدل لفظه وكما يليق بعقل الله تعالى رب العالمين . فكل ثمن يؤخذ عوضاً عن الحق فهو قليل ان لم يكن قليلاً فى ذاته فهو قليل فى جنب ما يفوت أخذه من سعادة الحق الثابتة بذاتها والدائمة بدوام المحافظة على الحق ولو دام للبطل ما يتمتع به من ثمن الباطل الى نهاية الأجل ، وما هو إلا قصير ، فماذا يفعل وقد فاتته بذلك سعادة الروح ونعيم الآخرة باختياره الباطل على الحق ﴿وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل﴾ أولئك ﴿ما يأكلون فى بطونهم إلا النار﴾ أى لا تملأ بطونهم إلا النار ، والمراد أنه لا يشبع جشعهم ولا يذهب بطمعمهم إلا النار التى يصيرون اليها ، وقيل ان المراد بالنار سببها ، أى أن ما يأكلون ثمننا لكتان الحق سيوردهم النار لأنه سبب لعذاب الله .

﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ﴾ قالوا إن نفي الكلام كناية عن الإعراض عنهم والغضب عليهم ﴿ ولا يزكهم ﴾ أى لا يطهرهم بالعفو والمغفرة ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ بمعنى مؤلم ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ فأما الهدى فهو كتاب الله وشرعه ، وأما الضلالة فهي العماية التى لا يمتدى بها الانسان لمقصده وتكون باتباع آراء الناس فى الدين ، وليس لأحد أن يقول فى الدين برأيه ، وهذه الآراء لا ضابط لها ولا حد لها ، فأهلها فى خلاف وشقاق ، فان ذلك عين اتباع الهوى ، وشراء الضلالة بالهدى ، فان الله وحده هو الذى يبين حدود العبودية وحقوق الربوبية فلا هداية إلا بفهم ما جاء به رسله عنه ﴿ والعذاب بالمغفرة ﴾ وهذا أثر ما قبله ، فان متبع الهدى هو الذى يستحق المغفرة لما يفرض منه وما لم يلم به من السوء ، ومتبع الضلالة هو المستحق للعذاب ، ومن دعى إلى الحق يعرف ذلك فاذا هو اختار الضلالة بعد صحة الدعوة وقيام الحجة فقد اشترى العذاب بالمغفرة ، وكان هو الجانى على نفسه غرورا بالعاجل واستهانة بالآجل ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ قيل هذا على وجه الاستهانة بهم والاستخفاف بأمرهم ، كأنه قال اعجبوا من صبرهم على النار ومكشهم فيها ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ أى ذلك الحكم الذى تقرر فى شأنهم بأن الكتاب جاء بالحق ، والحق لا يعالب فن غالبه غلب ومن خذله خذل . ثم قال ﴿ وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لى شقاق بعيد ﴾ وهذا حكم آخر فى الكتاب غير حكم كتمانته فهو يفهمنا أن الخلاف فيه بعد عن الحق لكتمانته لأن الحق واحد وهو ما يدعو اليه الكتاب ، والمختلفون لا يدعون الى شىء واحد ولا يسلكون سبيلا واحدة ﴿ وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ وهذا دليل على أنه لا يجوز لأهل الكتاب الإلهى أن يقيموا على خلاف فى الدين وأن يكونوا شيعا كل يذهب الى مذهب ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ﴾

ولما كان اختلاف الفهم ضروريا وجب عليهم أن يتحاكموا فى الخلاف الى كتاب الله وسنة رسوله حتى يزول ولا يقيموا عليه ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه

إلى الله والرسول ﴿ فلا عذر للمسلمين في الاختلاف في دينهم بعد هذا البيان الذي جعل لكل مشكل مخرجا ، والشقاق الخلاف والتعادي ، وحقيقته أن يكون كل واحد في شق أي في جانب ، والمختلفون في الدين ينأى كل بجانبه عن الآخر فيكون الشقاق بينهما بعيدا كما نرى

ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والمملكة والكتب والنبیین ومآتى المال على حبه ذوى القربى والیتیم والمسکین وابن السبیل والسائلین وفى الرقاب وأقام الصلوة ومآتى الزکوة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصبرین فى الباساء والضراء وحین الباس أولئک الذین صدقوا وأولئک هم المتقون (١٧٧)

التفسير

كثر الجدل حول تحويل القبلة ، فكان أهل الكتاب يرون أن الصلاة إلى غير قبلتهم لا تقبل ، ولا يكون صاحبها على دين الأنبياء . والمسلمون يرون أن الصلاة إلى المسجد الحرام هي كل شيء ، لأنه قبلة إبراهيم ، وأول بيت وضع لعبادة الله تعالى . فأراد الله تعالى أن يبين للناس أن مجرد تولية الوجه قبلة مخصوصة ليس هو البر المقصود من الدين ، وتولية الوجه وسيلة للتذكير بتولية القلب إلى الله تعالى ، والاعراض عن كل ما سواه ، والاقبال على مناجاته ودعائه . ويبين لهم أصول البر ومقاصد الدين فقال :

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ والكلام هنا ظاهر

﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين ﴾ والبر اسم جامع للخير . ابتدأ بذكر الايمان بالله واليوم الآخر لأنه أساس كل بر ومبدأ كل خير ، ولا يكون الايمان أصلاً للبر إلا إذا كان متمكناً من النفس بالبرهان ، مصحوباً بالخضوع والاذعان ، حتى يكون الله ورسوله أحب إلى المؤمن من كل شيء ويؤثر أمرهما على كل شيء . والايمان المطلوب معرفة تتمثل للمؤمن اذا عرضت له دواعي الشر وأسباب المعاصي فتحول دونها ، فاذا نسي فأصاب الذنب بادر إلى التوبة والانابة . الايمان المطلوب اذا علم صاحبه بأن الايمان أصيب بمصيبة كانت مصليته في دينه أشد عليه من المصيبة في نفسه وماله وولده ، وكان انبعائه إلى تلافئها أعظم من انبعائه إلى دفع الأذى عن حقيقته ، وجلب الرزق إلى نفسه وعشيرته . وايمان المقلد لا غيره معه على الدين ولا على الايمان ﴿ واذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾

فالايمان بالله يرفع النفوس عن الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية أو السلطة الدنيوية وهي سلطة الملك ، فان العبودية لغير الله تعالى تهبط بالبشر إلى دركة الحيوان المستخر ، أو الزرع المستنبت .

والايمان باليوم الآخر — وهو يوم الجزاء — وبالملائكة وهم من عالم الغيب يعلم الانسان أن له حياة في عالم غيبي أعلى من هذا العالم ، فلا يرضى أن يكون سعيه وعمله لأجل خدمة هذا الجسد خاصة ، لأن ذلك يجعله لا يبالي إلا بالأمور البهيمية .

والايمان بالملائكة أصل للايمان بالوحي لأن ملك الوحي روح عاقل عالم يفيض العلم باذن الله على روح النبي بما هو موضوع الدين ، ولذلك قدم ذكر الملائكة على ذكر الكتاب والنبيين ، فهم الذين يؤتون النبيين الكتاب .

والايمان بالكتاب يستلزم العمل به ، فان المؤمن الموقن بأن هذا الشيء قبيح ضار لا تتوجه إرادته إلى إبتائه ، والمؤمن الموقن بأن هذا الشيء حسن نافع لا بد أن تتوجه إليه نفسه عند عدم المانع . فما بال مدعى الايمان بالكتاب قد أعرضوا عن

امتثال أمره ونهيهِ ، حتى صاروا يعدون حفظه وقراءته من موانع الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، فكان من قوانيهم أن حافظ القرآن لا يطالب بتعلم فنون الحرب والجهاد لأنه حافظ . بخلاف القراء والمتفقه بفضل الله تعالى ، فجأزاهم الله تعالى على مخيلهم ، ووفاهم ما يستحقون على سوء ظنهم بربهم ، حتى صاروا في مكانة لا يرغبون عليها ، بل في مكانة يرثون لها

والإيمان بالنيبين يقتضى الاهتداء بهديهم ، والتخلق باخلاقيهم ، والتأدب بأدابهم . ويتوقف هذا على معرفة سيرتهم والعلم بسنتهم . ثم ذكر تعالى - بعد بيان أصول الإيمان - أصول الأعمال الصالحة التي هي ثمرته ، وبدأ بأقواها دلالة عليه فقال ﴿ وآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ أى وأعطى المال لاجل حبه تعالى ، أو على حبه إياه أى المال . وهو لا يشترط فيه نصاب معين ، بل هو على حسب الاستطاعة ، وهو ركن من أركان البر ، وواجب كالزكاة ، وذلك حيث تعرض الحاجة الى البذل في غير وقت أداء الزكاة ، بأن يرى الواحد مضطرا بعد أداء الزكاة أو قبل تمام الحول ، وأمر الله تعالى أن يعطى من غير الزكاة ﴿ ذُو الْقُرْبَى ﴾ وهم أحق الناس بالبر والصلة . فمن قطع الرحم ، ورضى بأن ينعم وذو قرباه بأنسون فهو برىء من الفطرة والدين ، وبعيد من الخير والبر - ومن كان أقرب رحما كان حقه أكده ، وصلته أفضل . ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ فانهم - لموت كافلهم - تتعلق كفالتهم وكفائتهم بأهل الوجد واليسار من المسلمين ، كيلا تسوء حالهم ، وتفسد تربيتهم ، فيكونوا مصابا على أنفسهم وعلى الناس . ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ فانهم لما قعد بهم العجز عن كسب ما يكفيهم ، وسكنت نفوسهم للرضى بالقليل عن مدد كف الذليل ، وجبت مساعدتهم ومواساتهم ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ المنقطع في السفر ، لا يتصل بأهل ولا قرابة ، حتى كأن السبيل أبوه وأمه وأهله . وفي الأمر بمواساته وإعانتته في سفره ترغيب من الشرع في السياحة والضرب في الأرض . ﴿ وَالسَّائِلِينَ ﴾ الذين تدفعهم الحاجة العارضة الى تكفف الناس . والسؤال محرم شرعا الا للضرورة يجب على السائل أن لا يتعدها . ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أى في تحريرها وعتقها . وهو يشمل ابتياع الأرقاء وعتقهم وإعانة المكاتبين على أداء نجومهم (المكاتب هو الرقيق

يشتري نفسه من مولاه بثمان أفساطا ، وهي ما تسمى في اللغة بالنجوم .
ومساعدة الأسرى على الاقتداء . وفي جعل هذا النوع من البذل حقا واجبا في أموال
المسلمين دليل على رغبة الشريعة في فك الرقاب واعتبارها أن الانسان خلق ليكون
حررا .

﴿ وأقام الصلاة ﴾ وهذا هو الركن الروحاني الركين للبر ، والبر والتقوى في سر
الصلاة وروحها الذي تصدر عنه آثارها ، من النهي عن الفحشاء والمنكر ، وقلب
الطباع السقيمة والاستعاضة عنها بالفرائض المستقيمة ، فمن حافظ على الصلاة الحقيقية
تطهرت نفسه من الهلع والجزع اذا مسه الشر ، ومن البخل والمنع اذا مسه الخير ،
وكان شجاعا كريما قوى العزيمة شديد الشكيمة لا يرضى بالضميم ولا يخشى في الحق العذل
واللوم ، لأن الله تعالى يكون غالبا على أمره ، فلا يبالي ما اتى من الشدائد في سبيله ،
وما أنفق من فضله ابتغاء مرضاته ، فهذا هو البر

﴿ وآتى الزكاة ﴾ وتقرن الصلاة بالزكاة - فالصلاة مهذبة للروح . والمال كما
يقولون قرين الروح فبذله في سبيل الحق ركن عظيم من أركان البر ، وآية من أظهر
آيات الايمان . ولذلك أجمع الصحابة عليهم الرضوان على محاربة مانعي الزكاة ، فمانع
الزكاة يهدم في الظاهر ركننا من أعظم أركان الاسلام ، وينقض في الباطن من تحته
أساس الايمان . وقد بينت السنة بالهدى والعمل كيفية الاخذ وقدر المأخوذ وسائر
الاحكام . وليس فيها شيء يصح أن يكون شبهة لإبطال الكتاب والهروب من
الاهتداء به .

﴿ والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ﴾ العهد عبارة عما يلتزم به المرء لآخر ، وهو
بعمومه يشمل ما عاهد المؤمنون عليه الله بايمانهم من السمع والطاعة والاذعان لكل ما
جاء به دينه . ويذكر العهد في القرآن والسنة كثيرا ويراد به في الغالب ما يعاهد به
الناس بعضهم بعضا عليه . ويشترط في وجوب الوفاء بالعهد أن لا يكون في معصية .
وفي معنى العهود العقود ، وقد أمرنا بالوفاء بها ، فيجب على المسلم أن يلتزم الوفاء بما
يتعاقد عليه مع الناس ما لم يكن مخالفا لأمر الله ورسوله الثابت عنده ولقواعد الدين
العامة . إن الايفاء بالعهود والعقود من أهم الفرائض التي فرضها الله تعالى لنظام

المعيشة والعمران . والغدر والاختلاف من الذنوب الهادمة للنظام ، المفسدة للعمران
المقنية للأمم .

﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ قالوا إن البأساء اسم من
البؤس ، وهو الشدة والفقر . والضراء ما يضر الإنسان من نحو مرض أو قرح أو
فقد محبوب من مال وأهل . وفسروا البأس باشتداد الحرب .

والصبر يحمد في هذه المواقف كلها ويحمد في غيرها . وأما حالة اشتداد الحرب
فهى على ما فيها من الشدة والتعرض للهلكة بخوض غمرات المنيعة يطلب فيها من
الصبر مالا يطلب في غيرها ، لأن الظفر مقرون بالصبر ، وبالظفر حفظ
الحق الذى يناضل من يجاهد في سبيل الله دونه ويدافع عنه ويحاول إظهاره ويبغى
انتشاره ، وهذا هو المأمور من الله تعالى بالصبر حين البأس ، لا المحارب
لطمع الدنيا وأهواء الملوك ، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن الفرار من الزحف
من أكبر الكبائر ، وعبر عنه في بعضها بالكفر ، فلا غرو أن يجعل الصبر في البأس
أصلا من أصول البر ، وقد كان المسلمون بارشاد هذه النصوص أعظم أمة حربية في
العالم ، فما زال استبداد الحكام يفسد من بأسهم ، وترك الاهتداء بالكتاب والسنة
يفل من عزمهم حتى سبقتهم الأمم كلها في ميادين الكفاح . وهذا البعد عن الدين
لا يصل إليه أحد إلا بخذلان من الله

أنظر بعد هذا حكم الله تعالى على البررة الذين يقيمون ماتقدم ذكره من أركان
البر ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ في دعوى الإيمان ، دون الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم
تؤمن قلوبهم ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ الذين تشهد لهم بالتقوى أعمالهم وأحوالهم .
والتقوى أن تجعل بينك وبين سخط الله وقاية بأن تتحاشى أسباب خذلانه في الدنيا
وعذابه في الآخرة ، وذلك بأن تتبع أوامره وتنهى عما نهى عنه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ : الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ
بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى ، فَمَنْ عَنِ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّاءُ إِلَيْهِ

يَا حَسَنَ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ
 عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
 بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) مَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِي
 يَبْدُلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) مَن خَافَ مِنْ مُّوْسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ
 بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢)

التفسير

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ) القصاص في أصل اللغة
 يقيد المساواة بمعنى القصاص هنا أن يقتل القاتل ، لأنه في نظر الشريعة مساو للمقتول
 فيؤخذ به ، فالغرض من الآية مشروعية القصاص بالعدل والمساواة وإبطال ذلك
 الامتياز الذي كان للأقوياء على الضعفاء في زمن الجاهلية . أنزلت هذه الآية في حين
 من العرب لأحدهما طول على الآخر ، وكانوا يتزوجون نساء بغير مهر ، وأقسموا
 لنقتلن بالعبد منا الحر منهم ، وبالمراة منا الرجل منهم ، وبالرجل منا الرجلين منهم ،
 وجعلوا جراحاتهم على الضعف من جراح أولئك ، حتى جاء الاسلام فأنزل هذه الآية
 ولذلك قال (الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) أي أن هذا القصاص
 لا هوادة فيه ولا جور ، فإذا قتل حر حراً يقتل هو به لا غيره من سادات القبيلة ولا
 أكثر من واحد ، وإذا قتل عبد عبداً يقتل هو به لا سيده ولا أحد من الأحرار من
 من قبيلته ، وكذلك المراة إذا قتلت تقتل هي ولا يقتل واحد فداه عنها خلافا لما
 كانت عليه الجاهلية في ذلك القصاص على القاتل نفسه أيا كان لا على أحد من قبيلته .
 وقد جرى العمل من زمن الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الآن على قتل الرجل

بالمرأة ، واختلّفوا في قتل الحر بالعبد فذهب أبو حنيفة وابن أبي ليلى وداود إلى أنه يقتل به إذا لم يكن سيده ، وذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل به مطلقاً . والقرآن فوق كل خلاف ، فمنطوق الآية لا مجال للخلاف فيه ، وهو أن الحر يقتل بالحر الخ ، وأما كون الحر يقتل بالعبد والرجل بالمرأة فهذا يؤخذ من لفظ القصاص ولا يعارضه مفهوم التفصيل ، وقال البيضاوي « ان المفهوم يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى اختصاص الحكم » . ويدخل في عموم الآية الكافر ، وبه قال بعضهم ، وقال الجمهور لا يقتل به المسلم . واستثنى من عمومها السيد يقتل بعبده ، قالوا لا يقتل ولكن يعزر . وللحاكم ان يقرر هذا التعزير بشدة ، وقد يكون التعزير بالقتل فلا إمام ان يقتل السيد

بعده تعزيراً لا حداً إذا رأى المصلحة العامة في ذلك ﴿ فن عفى له من أخيه شيء ﴾ وإنما يعفو من له حق طلب القصاص . وقد جعل الله هذا الحق لأولياء المقتول وهم عصبتهم الذين يعتزون بوجوده ويهانون بفقده ، وفي حالة عفوهم عن القاتل يوجب الله تعالى حجب الدم ، وليس للحكومة أن تمتنع من العفو إذا رضوا به ، ولا تستقل بالعفو إذا طلبوا القصاص . ولما كان العفو عن القصاص يتضمن أخذ الدية قال تعالى

﴿ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾ أي فاتبع العفو بالمعروف واجب على العافي وغيره فعليه ان لا يرهق القاتل من أمره عسراً ، بل يطلب منه الدية بالرفق والمعروف ﴿ وأداء إليه بإحسان ﴾ خطاب للقاتل أي أن الأداء بالإحسان واجب عليه بأن لا يمتل ولا ينقص ولا يسىء في كيفية الأداء . ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ﴾

وأي تخفيف ورخصة أفضل من حجب الدم بتجوز العفو وقبول الدية ﴿ فن اعتدى بعد ذلك ﴾ أي بعد العفو والرضى بالدية بأن انتقم من القاتل ﴿ فله عذاب اليم ﴾ قيل معناه انه يتحتم قتل الولي العافي او غيره إذا قتل القاتل بعد العفو ، ولا يجوز العفو عنه بل يقتله الحاكم وإن عفا عنه ولي المقتول ، وبه قال جماعة من المفسرين ، والمراد بالعذاب الاليم عذاب الآخرة

﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ هذه الآية الحكيمة قررت ان الحياة هي المطلوبة بالذات ، وان القصاص وسيلة من وسائلها ، لأن من علم انه إذا قتل نفساً يقتل بها

يرتدع عن القتل فيحفظ الحياة على من أراد قتله وعلى نفسه ﴿يَا أُولَى الْأَلْبَاب﴾
نقص بالنداء اصحاب العقول السكاملة كأنه يقول إن ذا اللب هو الذى يفقه سر هذا
الحكم وما اشتمل عليه من الحكمة والمصلحة ، فعلى كل مكلف أن يستعمل عقله فى
فهم دقائق الأحكام وما فيها من المنفعة للأنام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الاعتداء ، وتكفون
عن سفك الدماء ، والمعنى : ثبتت لكم الحياة فى القصاص ، لتعدكم وتهيبكم للتقوى
والاحتراس من سفك الدماء وسائر ضروب الاعتداء ، إذ العاقل حريص على الحياة
ولوع بالأخذ بوسائلها والاحتراس من غوائلها

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ لما ذكر لولى الدم أن يقتص فهذا الذى أشرف على أن
يقتص منه وهو سبب الموت ، فكأنما حضره الموت ، فهذا أو ان الوصية . فالآية
مرتبطة بما قبلها ومقتضية بها . والخطاب موجه الى الناس كلهم بأن يوصوا بشئ من
الخير ، لاسيما حال حضور الموت ، لتكون خاتمة أعمالهم خيرا . وفسروا الخير بالمال
وقيده الأكثرون بالكثير . والآية غير منسوخة بآية المواريث لأنها لاتناقضها بل
تؤيدها ، ولا دليل على أنها بعدها ، ولا بالحديث لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب ، وإن
حكمها باق ، ولك أن تجعله خاصا بمن لا يرث من الوالدين والأقربين كما روى عن
بعض الصحابة ، وأن تجعله على إطلاقه ، ولا تكن من المجازفين الذين يخاطرون
بدعوى النسخ فتنبذ ما كتبه الله عليك بغير عذر ، لاسيما بعدما أكد به بقوله :
﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وبقوله ﴿فَن بَدَلَهُ﴾ أى ما أوصى به الموصى ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾
وعلم به ﴿فَأَنَّمَا لِإِثْمِهِ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ من ولى ووصى وشاهد ، وقد برئت منه
ذمة الموصى ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقوله المبدلون فى ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالهم ، فيجازيهم
عليه . وقوله سميع عليم يتضمن تأكيد الوعيد

﴿فَن خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ الجنف الخطأ
والإثم ، يراد به تعمد الإجحاف والظلم ، والمعنى أن من يتوقع النزاع للجنف أو
الاثم فله أن يتصدى للإصلاح وإن لم يكن موقنا بذلك وقت الخوف . وللتعبير عن

مثل هذا العلم بالخوف شواهد في كلام العرب ، والمصلحة مثاب مأجور ، ونفي الائم
عن تبديل الوصية المحرم تبديلها يشعر بذلك ، إذ لو لم يكن التبديل للاصلاح مطلوباً
لم ينف الائم عنه والمراد أن من خاف من موص في حال مرضه الذي يريد أن يوصي
فيه جنفاً وهو أن يعطى بعضاً ويضر ببعض فلا إثم عليه أن يشير عليه بالحق ويرده
إلى الصواب ويصلح بين الموصي والورثة والموصى له ، حتى يكون الكل راضين ،
ولا يحصل جنف ولا إثم ، ويكون قوله (فاصالح بينهم) أى فيما يخاف من حدوث
خلاف بينهم فيما بعد . وختم الكلام بقوله (ان الله غفور رحيم) للاشعار بما في هذا
الكلام من المصلحة والمنفعة وبأن من خالف لأجل المصلحة فهو مغفور له .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ
أُخْرٍ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ
تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن
هَدَى لِلنَّاسِ وَبَيَّنَّتْ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ
كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)
وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي
وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

التفسير

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ كُتِبَ : فرض . والصيام في اللغة : الامساك والكف عن الشيء . وفي الشرع : الامساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء من الفجر الى المغرب احتساباً لله واعداداً للنفس وتهيئة لها لتقوى الله بالمراقبة وتربية الارادة . وقد كُتِبَ على أهل الملل السابقة فكان ركناً من كل دين ، لأنه من أقوى العبادات وذرائع التهذيب . وفي إعلام الله تعالى لنا بأنه فرضه علينا كما فرضه على الذين من قبلنا إشعار بوحدة الدين في أصوله ومقصدته ، وتأكيد لأمر هذه الفرضية وترغيب فيها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ جاء الإسلام ليعلمنا أن الصوم ونحوه إنما فرض لأنه يعدنا للسعادة بالتقوى ، وهي العمل بأمره والانتهاز عما نهى عنه اتقاء غضبه . وأن الله غنى عنا وعن عملنا ، وما كُتِبَ علينا الصيام إلا لمنفعتنا والصيام أعظم مرب للارادة ، وكأجج لبحاح الأهواء ، فأجدر بالصائم أن يكون حراً يعمل ما يعتقد أنه خير ، لا عبداً للشهوات . والصوم لا يتوقف أدائه على ترك الشهوات الحسية ، وإنما يتبع ذلك ترك المعاصي والآثام كما جاء في الحديث « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه »

﴿ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ﴾ أى معينات بالعدد أو قليلات ، وهى أيام رمضان . ولما كان فرض الصيام بما ذكر يفيد العموم استثنى منه من يشق عليهم أدائه ومن هم عرضة للمشقة فقال ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أى فالواجب عليه القضاء بعدد الأيام التى لم يصمها - وكل من المريض والمسافر عرضة لاحتمال المشقة بالصيام - وإطلاق كلمة مريض يدل على أن الرخصة لا تقتيد بالمرض الشديد الذى يعسر معه الصوم - وكذلك السفر مطلق يشمل الطويل والقصير ، وقد جاء في السنة ما يؤيد هذا الاطلاق في السفر القصير ، ثم قال تعالى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ ﴾ وهو من لا يستطيع الصوم إلا بمشقة شديدة : والاطاقة أدنى درجات المكافحة والقدرة على الشيء ، فلا تقول العرب أطاق الشيء إلا إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة ، قال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز

وجل وضع عن المسافرين الصوم وشطر الصلاة وعن الحبل والمرضع الصوم ، وروى عن ابن عباس أنه قال : رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم ولا قضاء عليه . وهذا ظاهر في معنى الآية ، وهو مذهب الشافعية في الشيوخ والعجائز ومن في حكمهم .
وجملة القول أن المؤمنين على أقسام في الصوم :

الأول : المقيم الصحيح القادر على الصوم بلا ضرر يلحقه ولا مشقة ترهقه ، والصوم واجب عليه حتماً

الثاني : المريض والمسافر يباح لهما الإفطار مع وجوب القضاء ، لأن من شأن المرض والسفر التعرض للمشقة العارضة ، فإن تعرضا للضرر بالفعل بأن علما أو ظنا ظناً قوياً بأن الصوم يضرهما وجب الإفطار

الثالث : من يشق عليه الصوم لسبب لا يرجي زواله كاهرم والمرض المزمن الذي لا يرجي برؤه ، وكذلك الحامل والمرضع ، وهؤلاء لهم أن يفطروا ويطعموا بدلا عن كل يوم مسكينا مدا من الطعام على الأقل .

ثم قال تعالى بعد بيان الواجب الحتم والرخص فيه ﴿فن تطوع خيراً﴾ بأن زاد على تلك الأيام المعدودات ، وقيل من تطوع خيراً بالزيادة على القدر المذكور في الفدية ﴿فهو خير له﴾ لأن فائدته وثوابه له ، ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ أي والصيام خير لكم لما فيه من رياضة الجسد والنفس وتربية الإرادة وتغذية الإيمان وتقويته بمراقبة الله تعالى ﴿إن كنتم تعلمون﴾ وجه الخير فيه . قال تعالى ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ الخ فبين أن تلك الأيام المعدودات هي أيام شهر رمضان ، وأن الحكمة في تخصيص هذا الشهر بهذه العبادة هي أنه الشهر الذي نزل فيه القرآن ، وأفيضت على البشر فيه هداية الرحمن ، فحق أن يعبد الله تعالى فيه مالا يعبد في غيره تذكراً لانهامه بهذه الهداية وشكراً عليها . والقرآن يمتاز على سائر الكتب السماوية بأنه آيات بينات من الهدى الذي توصف به كلها ، وبينات من الأمر الإلهي الفارق بين الحق والباطل ﴿فن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ إن الله ما أوجب الصيام في رمضان إلا على من شهد الشهر وحضره ،

والذين ليس لهم شهر مثله يسهل عليهم أن يقدروا قدره كالبلاد التي في شمال الكرة الأرضية أو جنوبها . وقد ذكر الفقهاء مسألة التقدير بعد ما عرفوا بعض البلاد التي يطول نهارها ويقصر ليلها . واختلفوا في التقدير على أي البلاد يكون ف قيل على البلاد المعتدلة التي وقع فيها التشريع ك مكة والمدينة ، وقيل على أقرب بلاد معتدلة اليهم . ثم أعاد ذكر الرخصة فقال تعالى ﴿ فمن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ إن تأكيد الصوم بمثل ما أكد الله تعالى به يقتضى تأكيداً أمر الرخصة ولولا ذلك ما أتاهم متى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ فيما شرعه ويشرعه لكم من الأحكام ، والله يحب أن تؤتى رخصه كما توفى عزائمه ، ومنه أخذوا قاعدة « المشقة تجلب التيسير »

﴿ ولتكمّلوا العدة ﴾ والمعنى رخص لكم لأنه يريد بكم اليسر وأن تكملوا العدة فمن لم يكملها أدام لعذر أكملها قضاء ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ إليه من الأحكام النافعة لكم ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم بالقيام بها على وجهها فتكونوا من السكاملين

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فاقى قريب ﴾ لما أمر الله تعالى بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الدالة على أنه خير بأحوالهم ، سميع لأقوالهم ، مجيب لدعائهم ، مجاز على أعمالهم تأييداً له وحثاً عليه ﴿ أجب دعوة الداعى ﴾ منهم بنفسى من غير واسطة ﴿ إذا ﴾ هو ﴿ دعان ﴾ وتوجه إلى وحدى فى طلب حاجته . أى يجب أن يدعى وحده بدون واسطة . والدعاء المحبب كما قال بعض السلف الصالح هو الدعاء بلسان الاستعداد . وقد استعاذ النبى عليه الصلاة والسلام من الطمع فى غير مطعم ، فمن يترك السعى والكسب ويقول : يارب ألف جنيه ؟ فهو غير داع ، وإنما هو جاهل يشبهه أن يكون ساخراً ومستهنئاً . ومثل ذلك المريض لا يراعى الحمية ولا يتخذ الدواء ويقول : رب اشفى وعافنى . كأنه يقول اللهم أبطل سنتك التى قلت إنها لا تبدل ولا تحول . ﴿ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى ﴾ أى فليجيبوا دعوتى إلى الإيمان والأعمال النافعة لهم - كالصيام وغيره

عما أَدْعُوهم إليه - كما أُجِيب دَعْوَتهم بقبول عبادتهم وتولى إعانتهم ، ثم قال ﴿ لعلهم يرشدون ﴾ فعملنا أن الأعمال إذا لم تكن صادرة بروح الإيمان لا يرجى أن يكون صاحبها راشدا مهديا ، فمن يصوم اتباعا للعادة وموافقة للهوى فإن الصيام لا يعدهم للتقوى ولا للرشد ، وربما زاده فساداً في الأخلاق وانغمسا في الشهوات

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لَبَاسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَبَاسٌ لَهُنَّ
 عَلَّمَ اللَّهُ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَشُّوهُنَّ
 وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ
 الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ
 فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
 يَتَّقُونَ (١٨٧)

التفسير

﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ ليلة الصيام هي الليلة التي يصبح منها المرء صائماً ﴿ الرَّفَثُ ﴾ تعطى معنى مالا يصح التصريح به في شأن الرجل مع المرأة وليست هي من الألفاظ الصريحة في ذلك . فالمعنى أحل لكم ذلك الأمر الذي لا ينبغي التصريح به . قال الزجاج : الرفث كلمة لكل ما يريد الرجل من امرأته . وكذلك قال الأزهري ﴿ هُنَّ لَبَاسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ قول مستأنف سيق ليبيان الحكم أى إذا كان بينكم وبينهن هذه الملازمة والمخالطة فإن اجتنابهن عسر عليكم فلهذا رخص لكم في مباشرتهن ليلة الصيام . ولفظ لباس هنا مصدر لابس بمعنى خالطه وعرف

دخائله ، لا بمعنى اللباس والازار على المرأة إذ لا معنى لهذا هنا . ثم قال ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ﴾ أى تنتقصونها بعض ما أحل الله لها من اللذات توهم أن من قبلكم كان كذلك ، أو معناه تخونون أنفسكم إذ تعتقدون شيئاً ثم لا تلتزمون العمل به ، فهو مبالغه من الخيانة التى هى مخالفة مقتضى الأمانة ﴿ فتاب عليكم وعفا عنكم ﴾ وتفسر التوبة بالرجوع عليهم ببيان الرخصة بعد ذكر فرض الصيام مجملاً والتشبيه فيه مبهما ، ويكون العفو عن الخطأ فى الاجتهاد الذى أدى إلى التضيق على النفس وإيقاعها فى الحرج ﴿ فالآن باسروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ أى أذن لكم الآن بأن تباشروا النساء بالنية الصالحة المحدودة فى نظام الفطرة من جعل المباشرة سبباً للنسل يقصد إحياء سمة الله فى الخليقة لا لمحض شهوة النفس واللذة ، وقيل إن العبارة تتضمن النهى عن المباشرة المحرمة ﴿ وكأوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ أى يباح لكم الأكل والشرب كالمباشرة عامة الليل حتى يتبين لكم الفجر ، فتبين وجب الصيام ﴿ ثم آتموا الصيام إلى الليل ﴾ وابتداء الليل بغروب الشمس . فالصيام يكون من مطلع الفجر إلى غروب الشمس ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾ والاعتكاف الملازمة ولما كان المعتكف ملازماً للعمل بطاعة الله مدة اعتكافه لزمه هذا الاسم ، ونهى عن المباشرة حال كونه معتكفاً فى المساجد ﴿ تلك حدود الله ﴾ الإشارة إلى الأحكام التى تقدمت وسميت حدوداً لأنها حددت الأعمال وبينت أطرافها وغاياتها ، حتى إذا تجاوزها العامل خرج عن حد الصحة وكان عمله باطلاً ، والحد طرف الشيء وما يفصل بين شيئين . وقوله ﴿ فلا تقربوها ﴾ لأنه يرشد إلى الاحتياط فن قرب من الحد أو شك أن يعتديه . وأصل الحد المنع ، وسميت الأوامر والنواهي حدود الله لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها وأن يخرج عنها ما هو منها . ومعنى النهى عن قربانها النهى عن تعديها بالمخالفة لها . وقيل إن حدود الله هى محارمه فقط ومنها المباشرة من المعتكف

﴿ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ أى على هذا النحو من البيان يبين

لهم آياته ليعيدهم للتقوى والتباعد عن الوهم والهوى ، أى لكى يتقوا معاصيه وتعدي حدوده فيما أمرهم به ونهاهم عنه وأباحه لهم ، وفى هذا دلالة على أن الله تعالى أراد التقوى من جميع الناس

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لَسَأَلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) وَقَتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقَفْتُمُوهُمْ وَآخِرُ جَوْهٍ مِنْ حَيْثُ آخَرُ جَوْكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكُفَرِينَ (١٩١) فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢)

التفسير

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل أى بالغصب والظلم والوجوه التى لا تحل ، لأن ذلك جنائية على نفس الآكل من حيث هو جنائية على الأمة التى هو أحد أعضائها فلا بد أن يصيبه سهم من كل جنائية تقع عليها ، فهو باستحلاله مال غيره يجرىء غيره على استحلال أكل ماله عند الاستطاعة ، فما أبلغ هذا الإيجاز ، ويدخل فى هذا الباب التعدى على الناس بغصب المنفعة بأن يسخر بعضهم بعضاً فى عمل لا يعطيه عليه أجر أو ينقصه من الأجر المسحوق أو أجر المشل ، ويدخل فيه سائر ضروب التعدى والغش والاحتيال من السامرة

والمخادعين وباعة التماسم ، وكذا العزائم وختمات القرآن والعدد المعلوم من سورة (يس) . ان كل أجر يؤخذ على عبادة فهو أكل لأموال الناس بالباطل ، وقد مضى الصدر الأول ولم يكن أخذ الأجر على عبادة ما معروفًا ولا يوجد في كلام أهل القرن الأول والثاني كلمة تشعر بذلك . والحاصل أن ما لم ييسر الشرع أخذه من مالكة فهو مأكول بالباطل وإن طابت به نفس مالكة : كهر البغى وحلوان الكاهن وثمن

الخر . والباطل في اللغة : الذاهب الزائل ﴿ وندلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأتمّ تعلون ﴾ إبطالا لهذا الاعتقاد ليعلم أن الحق لا يتغير بحكم الحاكم ، بل هو ثابت في نفسه ، وليس على الحاكم إلا بيانه وإيصاله إلى مستحقه بالعدل . وقد نفت الآية الاشتباه وبيئت أن الاستعانة بالحكام على أكل المال بالباطل محرم ، لأن الحكم لا يغير الحق في نفسه ولا يحمله المحكوم له به . وفي الآية عبرة لوكلاء دعاوى الذين يدعون بالمحامين . فلا يجوز لمن يؤمن منهم بالله واليوم الآخر أن يقبل الوكالة في دعوى يعتقد أن صاحبها مبطل ، ولا أن يستمر في محاولة إثباتها إذا ظهر بطلانها في أثناء التقاضى

ومن مباحث اللفظ في الآية أن الإدلاء بمعنى الإلقاء وقالوا انه في الأصل إلقاء الدلو ، واختير هذا التعبير لأنه يشعر بعدم الروية . وإلقاء المال إلى الحاكم يراد به الحكم للملقى . والاثم فسرهم بعضهم بشهادة الزور ، وبعضهم باليمين الفاجرة وهو أعم من ذلك . ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال ، وقد روى عن أبي حنيفة ما يخالف ذلك ، وهو مردود لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ كما في حديث أم سلمة قال رسول الله ﷺ : انكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه بشئ فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار ، وهو في الصحيحين وغيرهما . وقال مجاهد : معنى الآية لاتخاصم وأنت تعلم أنك ظالم

﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ الأهلة : جمع هلال ، وهو القمر في ليلتين أو ثلاث من أول الشهر على الأشهر ، فهي مواقيت لهم في صيامهم وحجهم من العبادات ، وفي نحو عدة النساء وآجال العقود من المعاملات .

فإن التوقيت بها يسهل على العالم بالحساب والجاهل به وعلى أهل البدو والحضر ،
فهي موافقة لجميع الناس . والمواقيت جمع الميقات وهو الوقت ، وقد سألوا عن
اجرام الأهلة باعتبار زيادتها ونقصانها ، فأجيبوا بالحكمة التي كانت تلك الزيادة
والنقصان لأجلها ، ليكون ذلك أولى بقصد السائل وأحق أن يتطلع لعلمه ﴿ وليس
البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ فإن فيه تعريضا بأن من يسأل النبي عما لم يبعث
النبي لبيانه ولا يتوقف عرفانه على الوحي فهو في طلبه الشيء من غير مطلبه كمن يطلب
دخول البيت من ظهره دون بابه

وأما الحكم الذي أفادته الآية فهو إبطال ما كانوا يفعلونه في الجاهلية إذا هم
أحرموا من إتيان البيت من ظهره وتحريم دخوله من بابه . والبيوت جمع بيت ،
وقد بين الله تعالى لهم البر الحقيقي فقال ﴿ ولكن البر من اتقى ، وآتوا البيوت من
أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ أي أن البر هو تقوى الله تعالى بالتخلي عن
المعاصي والرذائل ، وعمل الخير والتحلي بالفضائل ، واتباع الحق واجتناب الباطل ،
فآتوا البيوت من أبوابها ، وليكن باطنكم عنوانا لظاهركم لطلب الأمور كلها من
مواضعها ﴿ واتقوا الله ﴾ رجاء أن تفلحوا في أعمالكم وتبلغوا غاية آمالكم
﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ خاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا
القتال في الحرم وفي الشهر الحرام ، فنزلت هذه الآية ، أي يحل لكم القتال إن
قاتلكم الكفار ، فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت من ظهورها ،
فكان عليه السلام يقاتل من قاتله على أنه دفاع في سبيل الله للتمكن من عبادته
في بيته ﴿ ولا تعتدوا ﴾ بالقتال فتبدهوهم ، ولا في القتل فتقتلوا من لا يقاتل كالنساء
والصبيان والشيوخ والمرضى والرهبان ومن اتقى إليكم السلم وكف عن حربكم ،
ولا بغير ذلك من أنواع الاعتداء كالتهريب وقطع الأشجار ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾
أي أن الاعتداء من السيئات المكروهة عند الله تعالى لذاتها ، فكيف إذا كان في حالة
الأحرام وفي أرض الحرم والشهر الحرام ﴿ واقتلوا حيث ثقتهم ﴾ أي إذا نشب
القتال فاقتلوا أينما أدرستمهم وصادفتمهم ، قال في الكشف : الثقف وجود على

وجه الأخذ والقلبة ، ومنه رجل ثقف : سريع الأخذ لأقرانه ﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ قال ابن جرير : الخطاب للمهاجرين والضمير لكفار قريش : أى أخرجوهم من مكة فقد كان المشركون أخرجوا النبي وأصحابه المهاجرين منها بما كانوا يفتنونهم في دينهم ، ثم صدّهم عن دخولها لأجل العبادة وقد امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه فأخرج من مكة من لم يسلم عند ما فتحها الله عليه . ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ أى فتنتهم إياكم في الحرم عن دينكم بالإيذاء والتعذيب والإخراج من الوطن والمصادرة في المال أشد قبحا من القتل فيه ، إذ لا بلاء على الإنسان أشد من إيذائه واضطهاده وتعذيبه على اعتقاده الذي تمكن من عقله ونفسه ورآه سعادة له في عاقبة أمره .

والفتنة معناها الاختبار . ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ﴾ أى من دخل المسجد الحرام يكون آمنا إلا أن يقاتل فيه ويتهك حرمة فلا أمان له حيثئذ ﴿ فان قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ ولا تستسلموا لهم . فالبادىء هو الظالم ، والمدافع غير آثم ﴿ كذلك جزاء الكافرين ﴾ أى أن من سنة الله تعالى أن يجازى الكافرين مثل هذا الجزاء ، فيعذبهم في مقابلة تعرضهم للعذاب بتعدى حدوده ، فيكونوا هم الظالمين لأنفسهم .

﴿ فان انتهوا ﴾ . عن القتال فكفوا عنهم ، أو عن الكفر فان الله يقبل منهم ﴿ فان الله غفور رحيم ﴾ يمحو عن العبد ما سلف إذا هو تاب عما اقترف ، ويرحمه فيما بقي إذا هو أحسن واتقى

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ قَصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرًا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

التفسير

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) أى حتى لا تكون لهم قوة يقتنونكم بها ويؤذنكم لأجل الدين ويمنعونكم من إظهاره أو الدعوة إليه (وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) أى يكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر لحشية غيره فيه فلا يفتن عنه ولا يؤذى فيه (فَإِنْ أَتَمُّوْا) فى هذه المرة عما كانوا عليه (فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) أى فلا عدوان عليهم لأن العدوان إنما يكون على الظالمين تأديباً لهم ليرجعوا عن ظلمهم سواء كان ذلك فى الفرد أو الجماعة (الشَّهْرُ الْحَرَامَ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ) الحُرُمَاتُ أى ما يجب احترامه والمحافظة عليه يجب أن يجرى فيه القصاص والمساواة. قال مجاهد بن جبر قرئ بـردّها رسول الله ﷺ يوم الحديبية محرماً فى ذى القعدة عن البلد الحرام، فأدخله الله مكة فى العام المقبل من ذى القعدة، فقضى عمرته وأقصه بما حيل بينه وبينها يوم الحديبية، والحُرُمَاتُ جمع حرمة، وإنما قال جل ثناؤه الحُرُمَاتِ قِصَاصٌ فجمع لأنه أراد الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الاحرام فقال تعالى لرسوله والمؤمنين معه دخولكم باحرامكم هذا فى شهركم هذا الحرام قِصَاصٌ

مما منعتم من مثله عامكم الماضي وتلك هي الحرمات جعلها الله قصاصا . ذكر
 هذه القاعدة لوجوب مقاصة المشركين على انتهاك الشهر الحرام بمقابلتهم بالمثل ليكون
 شهرا بشهر جزاء وفاقا ، وقال تفريعا على القاعدة وتأيدا للحكم ﴿ فمن اعتدى
 عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ أى معنى الكلام فمن عدا عليكم ووثب
 بظلم فاعدوا عليه أى فشدوا عليه وثبوا نحوه قصاصا لما فعل بكم لظلمهم وإنما يتحقق
 هذا فيما تتأتى فيه المماثلة ، وسعى الجزاء اعتداء للمشاكلة ، ومعنى هذا أن الجزاء
 يكون من جنس العمل ، وقد استدل الإمام الشافعى بالآية على وجوب قتل القاتل بمثل
 ما قتل به بأن يذبح إذا ذبح ويخنق إذا خنق ويغرق إذا غرق وهكذا ، وقال مثل
 ذلك فى الغصب والإتلاف ، والقصد أن يكون الجزاء على قدر الاعتداء بلا حيف
 ولا ظلم ﴿ واتقوا الله ﴾ فلا تعتدوا على أحد ولا تبغوا ولا تظلموا فى القصاص بأن
 تزيدوا فى القصاص ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ بالمعونة والتأييد ، فإن المتقى هو
 صاحب الحق ، وبقاؤه هو الأصلح ، والعاقبة له فى كل ما ينازعه به الباطل
 ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ﴾ عطف على قاتلوا رابطا لاحكام القتال والحج بحكم
 الأموال السابق . فهناك ذكر ما يحرم من أكل المال بجملا وهنا ذكر ما يجب من انفاقه
 كذلك : وسبيل الله هو طريق الخير والبر والدفاع عن الحق . ثم ذكر علة هذا الأمر
 وحكمته على ما هي سنته فى ضمن حكم آخر فقال ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾
 بالإمساك عن الانفاق فى الاستعداد للقتال فان ذلك يضعفكم ويمكن الأعداء من
 نواصيكم فتهلكون . ويدخل فى النهى التطوع فى الحرب بغير علم بالطرق الحربية
 التى يعرفها العدو ، كما يدخل فيها كل مخاطرة غير مشروعة بأن تكون لاتباع الهوى
 لا لنصرة الحق وتأيد حربه . وفسر الجلال سبيل الله بطاعته - الجهاد وغيره
 والتهلكة بالإمساك عن النفقة وترك الجهاد ، وقال لأنه يقوى العدو عليكم - والمعنى
 إذا لم تبذلوا فى سبيل الله وتأيد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم
 أنفسكم وضاعت حريتكم واستقلالكم واستعبدكم العدو فأهدر كرامتكم وعزتكم
 ﴿ واحسنوا إن يحب المحسنين ﴾ الأمر بالاحسان على عمومه أى احسنوا كل أعمالكم
 واتقوها فلا تهملوا اتقان كل شئ منها ، ويدخل فيه التطوع بالانفاق .

وجملة القول في القتال أنه شرع للدفاع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها ، فعلى من يدعى من الملوك والامراء أنه يحارب للدين أن يحمى الدعوة الإسلامية ويعد لها عدتها من العلم والحجة بحسب حال العصر وعلومه ، ويقرن ذلك بالاستعداد لحمايتها من العدوان ، وذلك بأن يعرف حال الدعوة إلى الدين عند الأمم الحية وطرق الاستعداد لحمايتها وما يجب في ذلك وما ينبغي

﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ المراد باتمام الحج والعمرة الإتيان بهما تامين : ظاهراً بأداء المناسك على وجهها ، وباطناً بالإخلاص لله تعالى وحده دون قصد الكسب والتجارة أو الرياء أو السمعة . ولا ينافي الإخلاص البيع والشراء في أنشاء الحج إذا لم تكن التجارة هي المقصودة في الاصل . إن الامر باتمام الحج والعمرة خطاب لمن شرع فيهما وإن كانت العمرة سنة والحج فرض لقوله تعالى ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ وأركان الحج الاحرام من الميقات ، وهو أول أرض الحرم والوقوف بعرفة والطواف بالكعبة . والسعى بين الصفا والمروة . والحلق والتقصير للشعر ، فمن أدى هذه الاعمال فقد أدى الفريضة التي هي ركن من أركان الاسلام . وله أعمال أخرى واجبة من قصر في شيء منها كان عليه فدية . وأركان العمرة هي ماعدا الوقوف بعرفة من أركان الحج . وفرضية الحج يجمع عليها معلومة من الدين بالضرورة من أنكرها كان مرتداً . أمر بالاتمام ثم ذكر ماعساه يحول دونه فقال ﴿ فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ﴾ الإحصار هو المنع بسبب الناس والحصر بسبب المرض . وقوله تعالى بعد ﴿ فاذا أمنتم ﴾ يرجح أن المراد بالإحصار منع العدو أى ان منعتهم من إتمام النسك فعليكم ما تيسر من الهدى ، وهو ما يهديه الحاج والمعتمر إلى البيت الحرام من النعم لينذج ويفرق على فقرائه . والمتبادر من الآية أن على كل أحد ما استيسر له من بدنة أو بقرة أو شاة ، وما عظم فهو أفضل . واتفق الجمهور على أن يذبحه حيث أحصر - ولو في الحل - ويتحلل . ﴿ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله ﴾ الدخول في الحج أو العمرة يكون بالإحرام وهو نية النسك عند الابتداء به بالتلبية ولبس غير المخيط والخروج منهما - ويعبر عنه بالاحلال . والتحلل يكون بحلق الرأس أو تقصير شعره ، فالنهي هنا عبارة عن

النهي عن الاحلال قبل بلوغ الهدى إلى المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو في حال الاحصار حيث يحصر الحاج ، وإلا فالسكبة بقوله تعالى ﴿ هديا بالغ السكبة ﴾ وإن الأصل في الهدى أن يبلغ السكبة لأنه مهدي إليها ، وحال الاحصار حال ضرورة . ثم ذكر من يؤذيه عدم الخلق فقال ﴿ فمن كان منكم مريضا ﴾ مرضا ينفعه فيه الخلق ويضره عدمه ﴿ أو به أذى من رأسه ﴾ كقمل أو جرح ﴿ ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ أي فعلية أن حاق فدية من هذه الاجناس الثلاث على التخيير . والحديث يبين أن الصيام ثلاثة أيام والصدقة بقرق (مكيل يسع ستة عشر رطلا) يوزع على ستة مساكين والنسك ذبح شاة ﴿ فإذا أمنتم ﴾ الاحصار وذهب خوف العدو . وقال بعض الفقهاء ومثله المرض ﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ﴾ أي فمن تمتع ، محظورات الاحرام بسبب العمرة أي أدائها بأن أتمها وتخل ويقيم متمتعا إلى زمن الحج ليحج من مكة فعلية ما استيسر من الهدى ، أي فعلية دم جبر لأنه أحرم بالحج من غير الميقات يذبحه يوم النحر أو قبله جوازا عند بعضهم ، أو المعنى فمن قام بأعمال العمرة قبل الحج متمتعا إليه فعلية ذلك ﴿ فمن لم يجد ﴾ الهدى - لعدمه أو عدم المال - ﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج ﴾ أي في أيام الاحرام بالحج وتمتد إلى يوم النحر ﴿ وسبعة إذا رجعت ﴾ من الحج إلى بلادكم ، ويصدق بالشروع في الرجوع . وقال عليه الصلاة والسلام : فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ إشارة إلى الثلاثة والسبعة مبين بجملة العدد الواجب كما بين تفصيله ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾ وذلك أن أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج وحده ثم السفر إلى العمرة وحدها ﴿ واتقوا الله ﴾ بالمحافظة على امتثال هذه الأوامر والنواهي وغيرها من ضروب الهداية التي فيها سعادتكم ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ بما جعل عاقبة التفريط والاضاعة شديدة على المفرطين في الدنيا والآخرة .

الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ
 فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ
 يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ
 عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
 لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْسَكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ
 ذِكْرًا فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ (٢٠٠)
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ
 (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) وَاذْكُرُوا اللَّهَ
 فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ
 عَلَيْهِ لَمَنْ أَتَىٰ وَاتَّقَى اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

التفسير

(الحج أشهر معلومات) والمراد بقوله تعالى معلومات أنها هي أشهر الحج المعروفة
 للعرب قبل الإسلام ، ولا خلاف في أنها ثلاثة أشهر وهي شوال وذو القعدة
 وذو الحجة ، فالآية ظاهرة في أن الحج لا يكون إلا في هذه الأشهر ، ولما كان أعظم
 أركان الحج هو الوقوف بعرفة يسكن التاسع من الشهر الثالث وهو ذو الحجة هو
 آخر أيام الحج ، فمن أحرم بالحج بعد هذا اليوم فلا حج له (فمن فرض فيهن الحج)

أى أوجبه وألزم نفسه بالشروع فيه ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾
فأما الرفث فهو كما قيل الجماع ومقدماته . وأما الفسوق فهو الخروج عما يجب على
المحرم إلى الأشياء التي كانت مباحة في الحل كالصيد والطيب والزينة باللباس الخيط .
والجدال هو ما كان يجري بين القبائل من التنازع والتفاخر في الموسم ، فبهذا يكون
التناسب بين الحكام ، وإلا حملت كلها على مدلولها اللغوي فجعل الرفث قول الفحش ،
والفسوق التنازع بالألقاب ، والجدال المراء والخصام . والمراد أن يلتزم المرء في
أوقات العبادة الخضوع مع الله تعالى على أكمل الآداب وأفضل الأحوال ، وناهيك
بالخضوع في البيت الذي نسجه الله سبحانه وتعالى إليه . ﴿ وما فعلوا من خير يعلمه الله ﴾
والمعنى أن اتركوا هذه الأمور الممنوعة في الحج لتخليه نفوسكم وتصفيتها ، وحلوا
بعد ذلك بفعل الخير لتم لكم تزكيتها حتى تستعد للاتصاف بالخير والله لا يضيع
عليكم أقل شيء منه ، لأنه عالم به ، وأنكم وافقتم فيه سنته وشريعته ﴿ وتزودوا فإن
خير الزاد التقوى ﴾ المراد بالزاد هنا هو زاد الأعمال الصالحة ، وما تدخر من الخير
والبركة ، كما يرشد إليه التعليل في قوله « فإن خير الزاد التقوى » . والمعنى من التقوى
معروف وهو ما به يتقى سخط الله ، وليس ذلك إلا بالبر والتزهد عن المنكر ، ولا
يعمل بأن التقوى خير زاد إلا وهو يريد الزود منها ، وقيل كان أهل اليمن لا يتزودون
ويقولون نحن متوكلون ونحن نخرج بيت الله أفلا يطعمنا ، فيكونون كلا على الناس ،
فنزلت فيهم ، ومعناه وتزودوا واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقل عليهم فإن
خير الزاد التقوى . وقيل المعنى فإن خير الزاد ما اتقى به المسافر من الهلكة والحاجة
إلى السؤال والتسكف . ﴿ واتقون ﴾ وخافوا عقابي ﴿ يا أولى الألباب ﴾ ياذوى
العقول فإن قضية اللب خشية الله تعالى وتقواهم وحشهم على التقوى ثم أمرهم أن يكون
المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه ، وهو مقتضى العقل العرى عن
شوائب الهوى ، فلذلك خص أولى الألباب بهذا الخطاب . ﴿ ليس عليكم جناح أن
تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ أى ليس عليكم إثم أن تطلبوا رزقا بالتجارة في الحج .
نزلت ردعا للناس من العرب كانوا يتأثمون أن يتجروا أيام الحج ويسمون من يخرج
بالتجارة « الداج » ويقولون : هؤلاء الداج ، وليسوا بالحاج . والمراد من الآية

أن الكسب مباح في أيام الحج إذا لم يكن هو المقصود بالذات ، وأنه مع حسن النية وملاحظة أنه فضل من الرب تعالى يكون فيه نوع عبادة . وقال بعض العلماء إن نفي الجناح يقتضى أن هذه الإباحة رخصة ، وأن الأولى تركها في أيام الحج ، وأن التفرغ للمناسك في أيام أدائها أفضل ، والتزهد عن جميع حظوظ الدنيا في تلك البقاع الطاهرة

أكل ﴿ فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ الإفاضة معناها الدفع . عرفات أعرف من أن تعرف ، وهو جبل في حدود مكة يتعرف فيه إلى الله بالعبادة ، أو أنه يشعر بتعارف الناس فيه . وعرفة اسم لليوم الذي يقف فيه الحجاج بعرفات وهو تاسع ذى الحجة . والوقوف بعرفات أعظم أركان الحج ، وكلها موقوف . والمشعر الحرام جبل بالمزدلفة يقف عليه الإمام ويسمى (قزح) ، وسمى مشعراً لأنه معلم للعبادة ، ووصف بالحرام لحرمته . والمعنى أنه يطلب من الحاج إذا نزل من عرفات إلى المزدلفة أن يذكر الله عند المشعر الحرام بالدعاء والتكبير والتلهيل والتلبية ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ لمعالم بيته ومناسك حجه وقيل اذكروه ذكرأ حسناً كما هداكم

الهداية الحسنة التي نزل بها قرآنه الكريم وبينها رسوله العظيم ﴿ وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ أى وإن كنتم كنتم من قبل الهدى ضالين عن الحق في عقائدكم وأعمالكم ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ والمعنى : بعد ما تبين لكم ما تقدم كله من أعمال الحج ، وليس فيها امتياز أحد على أحد ولا قبيل على قبيل ، وعلمتم أن المساواة وترك التفاخر من مقاصد هذه العبادة ، بقى شيء واحد هو أن تلك العبادة المميزة - وهو ما كان يفعله بعض القبائل في الجاهلية - لا وجود لها ، فعليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحد . وقد كانت قريش ومن كان على دينها وهم الخمس يقفون بالمزدلفة يقولون نحن أهل الله وقطان حرمه فلا نخرج منه ، وكان من سواهم يقفون بعرفة ، فأنزل الله ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ ثم قال ﴿ واستغفروا الله ﴾

والمراد الاستغفار بما أحدثوا بعد إبراهيم من تغيير المناسك وإدخال الشرك وأعماله فيها ، وإلا فهو استغفار من الضلال الذي ذكرهم به في الآية قبلها ومن عامة الذنوب في الحج وغيره (إن الله غفور رحيم) يغفر ذنوب المستغفر وينعم عليه (فاذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذا ذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) كان أهل الجاهلية يقفون في

الموسم يقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ويحمل الحملات ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله هذه الآية . والمعنى إذا فرغتم من مناسك الحج اذكروا الله أشد من ذكركم آبائكم ، أى كونوا أشد ذكرا لله ، ثم بين تعالى أن الذين

يذكرونه فيدعونه على قسمين ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ﴾ الخلاق النصيب والحظ ، هذا الفريق يطلب حظ الدنيا لينعم بشهواته وملذاته ، يطلب الدنيا من كل باب ويسلك إليها كل طريق ، فاستيلاء حب الدنيا عليه صرفه عن العمل لآخرته ، فحرمان هذا الفريق من خلاق الآخرة هو أثر كسبه وسوء اختياره وتفضيله حظوظ الدنيا الفانية على سعادة الآخرة الباقية

﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ أى ومنهم من يطلب خير الدنيا والآخرة . والحسنة وصف لمخدوف أى حياة حسنة واختلفوا في حسن الآخرة فقيل الجنة وقيل الرؤية . واختلفوا في عذاب النار ، ورد عن علي كرم الله وجهه أنه المرأة السوء . ان الطلب من الله تعالى إنما يكون باتباع سنته في الأسباب والمسببات والتوجه إليه تعالى واستمداد المعونة والتوفيق منه للهداية الى ما يعجز العبد عنه ، وعلى هذا يتخرج تفسير الحسن لقوله تعالى (وقنا عذاب النار) بقوله : أى احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إليها . فطلب الحياة الحسنة في الدنيا يكون بالأخذ بأسبابها ، وأعظمها وأنفعها الثقة بالله والاخلاص له وقصد الخير في الأعمال كلها وتوقي الشرور كلها . وطلب الحياة الحسنة في الآخرة يكون بالإيمان الخالص والعمل الصالح بقدر الاستطاعة . وطلب الوقاية من النار يكون بترك المعاصي والشهوات المحرمة مع القيام بالفرائض المحتمة

﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ الإشارة بأولئك إلى الذين يطلبون سعادة الدارين والحسنة في المنزلتين . والمعنى أنهم لما كانوا يطلبون الدنيا بأسبابها ويسعون للآخرة سعيها كان لهم حظ من كسبهم هذا في الدارين على قدره ﴿ والله سريع الحساب ﴾ يوفى كل كاسب أجره عقب عمله بحسبه ، لأن سنته مضت بأن تكون الرغائب آثار الأعمال فهو يوفى كل عامل عمله بلا إبطاء ، وكما يكون

الجزاء سريعا في الدنيا كذلك يكون في الآخرة ، فان أثر الأعمال الصالحة يظهر للبرء عقب الموت ، وهو أول قدم يضعها في باب عالم الآخرة .

واختلفوا في كيفية الحساب على أقوال : أقربها إلى التصور أن سرعة الحساب عبارة عن اطلاع كل عامل على عمله ، أو إعلامه بما له مما كسب ، وما عليه مما اكتسب . وذلك يتم في لحظة واحدة . وقد قيل ان الله تعالى يحاسب الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا . وورد بمقدار لحظة البصر .

﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ الأيام المعدودات هي أيام منى ، وهي أيام التشريق الثلاثة من حادى عشر ذى الحجة إلى ثالث عشره . وبينت السنة أيضا أن ذكر الله تعالى في هذه الأيام هو التلبية والتكبير أدبار الصلوات ، وعند ذبح القرابين ، ورمى الجمار ، وغير ذلك من الأعمال ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه لمن اتقى ﴾ أى من استعجل في تأدية الذكر عند الأعمال المعلومه في يومين من تلك الأيام المعدودات فلا حرج عليه ، ومن أتمها كذلك ، إذا اتقى كل منهما الله تعالى ووقف عند حدوده فان التقوى هي الغرض من الحج ومن كل عبادة ، والوسيلة الكبرى إليها كثرة ذكر الله تعالى ، وإنما تلك الأعمال مذكرات للناسين . ثم أمر بالتقوى بعد الاعلام بمكانتها فقال ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ أى اتقوه في حال أداء المناسك وفي جميع أحوالكم وكونوا على علم يقين بأنكم تجمعون وتساقون إليه يوم القيامة فيرىكم جزاء أعمالكم والعاقبة للستقين ، كل ذلك يدلنا على أن المهم في العبادة ذكر الله تعالى الذى يصلح النفوس وينير الأرواح ، حتى تتوجه إلى الخير وتتقى الشرور والمعاصي ، فيكون صاحبها من المتقين .

وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ
وَهُوَ اللَّهُ الْخَصَامُ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ
وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ

فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ رَمُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)

التفسير

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُجُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ معناه يعجبك قوله وأنت في هذه الحياة ، لأنك تأخذ بالظواهر ، وهو منافق اللسان : يظهر خلاف ما يضمّر ، ويقول ما لا يفعل ، فهو يعتمد على خلافة لسانه في غش معاشريه وأقرانه ﴿ وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ أى يحلف بالله على أن ما في قلبه موافق لما يقول ويدعى . وفى معنى الحلف أن يقول الإنسان : الله يعلم — أو يشهد — بأننى أحب كذا وأريد كذا . وعن بعض الفقهاء أن من قاله كاذباً يكون مرتداً لأنه نسب الجهل إلى الله تعالى . وإن أقل ما يدل عليه عدم المبالاة بالدين ، ولو لم يقصد صاحبه نسبة الجهل إلى الله عز وجل ، فهو قول لا يصدر إلا عن المنافقين ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ أى وهو فى نفسه أشد الناس مخاصمة وعداوة لمن يتودد إليهم ، أو هو أشد خصماهم . وفيه وجه آخر قاله بعضهم ، وهو أن الخصام بمعنى الجدال أى وهو قوى العارضة فى الجدال ، لا يعجزه أن يختلب الناس ويعشهم بما يظهر من الميل إليهم وإسعادهم فى شؤونهم ومصالحهم ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ إن صاحب دعوة الإصلاح والإصلاح وحب الخير إذا أعرض عن مخاطبه وذهب إلى شأنه سعى فى الأرض بالفساد ، ذلك أنه لا هم له إلا فى الشهوات واللذات والحطوط الخسيسة ، فهو يعادى أهل الفضيلة ويؤذيهم ، لأنه ألد خصم لهم ، للتناقض والتضاد فى الغرائز والسجايا ، ويعادى أيضا المزاحمين له فيها من أمثاله المفسدين ، وهو يفسد باعتدائه على الأموال والأعراض ﴿ وَيَهْلِكُ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ ﴾ بما يكون من أثر إفساده فى اعتدائه ، وهو ذهاب ثمرات الحرث — وهو الزرع — والنسل — وهو ما تناسل من الحيوان —

وكأنه إشارة إلى مكاسب أهل الحضارة والبادية . وذكر بعضهم أن المراد بالحرق هنا النساء كما في قوله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ وبالنسل الأولاد — والمعنى أن المفسد يؤذى مسترسلا في إفساده ولو أدى إلى إهلاك الحرث والنسل ، وكذلك شأن المفسدين يؤذون ارضاء لشهواتهم ولو خرب الملك بارضائها .

وهناك قول آخر أن المراد بتولى : صار والياء له حكم ينفذ وعمل يستبد به ، وإفساده حينئذ يكون بالظلم مخرب العمران وآفة البلاد والعباد ، وإهلاك الحرث والنسل يكون إما بسفك الدماء والمصادرة في الأموال ، وإما بقطع آمال العاملين من ثمرات أعمالهم وفوائدهم مكاسبهم ، ومن انقطع أمله انقطع عمله ، إلا الضروري الذي به حفظ الذماء ، ولا حرث ولا نسل إلا بالعمل ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أى لا يحب المعاصي وقطع السبيل وإضاعة الطريق . أى أن إفساد هذا المختلَب بقوله ظاهر في الوجود ، والظاهر عنوان الباطن ، فلو كان قلبه صالحاً لكان عمله صالحاً ، ولكن إفساده في عمله دليل على فساد قلبه ، والله لا يحب المفسدين لأنه لا يحب الفساد ، والله لا ينظر إلى الصور والأقوال وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ أى أنه إذا أمر بمعروف أو نهى عن المنكر يسرع إليه الغضب ويعظم عليه الأمر ، فتأخذه الكبرياء والأنفة وتحفظه الحمية وطيش السفه ، فيكون كالمأخوذ بالسحر لا يستقيم له فكر ، لأنه مصر على إفساده لا يبغى عنه حولا . وعبر عن الكبرياء والحمية بالعزة للاشعار بوجه الشبهة للنفس الأمارة بالسوء ، وهو تخيلها النصيح والإرشاد ذلة تنافي العزة المطلوبة ، وهذا الوصف ظاهر جدا في تفسير التولى بالولاية والسلطة فإن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة أو يحذر من مفسدة ﴿خسبه جهنم﴾ أى هى مصيره ، وكفاه عذابها جزاء على كبريائه وحميته الجاهلية . ثم وصف جهنم وهى دار العذاب فى الآخرة بقوله ﴿ولبئس المهاد﴾ المهاد الفراش ، فالتعالى يقسم تأكيذاً للوعيد بأن الذى يرى عزته مانعة عن الإذعان للأمر بتقوى الله سيكون مهاده ومأواه النار وهى لبئس المهاد وشره ، لا راحة فيها ولا اطمئنان لأهلها .

﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ ومن الناس من يشري
 أى يبيع نفسه لله ، لا يبغي ثمنها لها غير مرضاته ، لا يتحرى إلا العمل الصالح وقول
 الحق والاخلاص فى القلب ، فلا يتكلم بلسانين ، ولا يقابل الناس بوجهين . وإن
 هذا البيع لا يتحقق إلا إذا كان المؤمن يهود بنفسه وبماله فى سبيل الله إذا مست
 الحاجة لذلك ، وسبيل الله هى الطريق التى يحفظ بها دينه ويصلح بها حال عبادته .
 ومعنى هذا أنه لا يكتفى من المؤمن أن يكتسب الحلال ويتمتع بالحلال وينفع نفسه
 ولا يضرب غيره وأن يصلى ويصوم ، لأن كل هذا يعملها لنفسه خاصة ، بل يجب أن
 يكون وجوده أوسع ، وعمله أشمل وأنفع ، فيساعد على نفع الناس ودرء الضرر عنهم
 يحفظ الشريعة وتعزيز الأمة بالمال والأعمال والدعوة الى الخير ومقاومة الشر ولو
 أفضى ذلك الى بذل روحه ، فأن قصر فى واجب يتعلق بحفظ الملة وعزة الأمة من
 غير عذر شرعى فقد آثر هوى نفسه على مرضاة الله تعالى وخرج من زمرة المؤمنين
 الذين باعوا أنفسهم لله تعالى ، وكان أكبر إجراما ممن يقصر فى واجب لا يضرب
 تقصيره فيه الا بنفسه ﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ اذ يرفع همم بعضهم ويعلى نفوسهم
 حتى يبذلوها فى سبيله لدفع الشر والفساد عن عبادته ، وتقرير الحق والعدل والخير
 فيهم ، ولو لا ذلك لغلب شر أولئك المفسدين فى الارض حتى لا يبقى فيها صلاح .
 وإن أمة يتصف جميع أفرادها أو أكثرهم بهذا الوصف لجديرة بأن تسود العالمين ،
 وإن أمة تحرم من هذا الصنف لحليقة بأن تكون مستعبدة لجميع المتغلبين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ
 عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
 حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ
 الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعَ الْأُمُورَ (٢١٠) سَلْ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ
 وَمَنْ يبدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)

التفسير

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ السلم المسالمة والتسليم والانقياد ، فيطلق على الصلح والسلام ، وعلى دين الاسلام . وقد فسرهُ بعض المفسرين بالصلح وبعضهم بالاسلام . وقيل في تفسير «كافة» أنها حال من السلم ، أى في جميع شرائعه . وهذه قاعدة عظيمة لو بنى جميع علماء الدين مذاهبيهم عليها لما تفاقم أمر الخلاف في الأمة ، ذلك أنها تفيد وجوب أخذ الاسلام بحملته بأن ننظر في جميع ما جاء به الشارع في كل مسألة من نصر قولى وسنة متبعة ونفهم المراد من ذلك كله ، لا أن يأخذ كل واحد بكلمة أو سنة ويجعلها حجة وإن أدت الى ترك كثير من النصوص والسنن ، والى حملها على النسخ أو المسخ بالتأويل أو تحكيم الاحتمال بلا حجة ولا دليل . اذ اتفاق كلمة علماء الأمة واجتماعها على ان الحق كذا بدليل كذا ملزم للحاكم باتباعهم فيه ، لأن الخواص اذا اتحدوا تبعهم العوام . وهذه هى الوسيلة الفردة لا بطلان استبداد الحكام ، لوجوب اخذ القرآن والدين بحملته ، وفهم هدايته من مجموع ما ثبت عن جاء به ، امر مقرر فى ذاته سواء فسرته به الآية ام لا

﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ﴾ الخطوات جميع خطوة . وهى ما بين قدمى من يخطو ، اى لا تسيروا سيره ، ولا تتبعوا سبله فى التفرق فى الدين ، او الخلاف والتنازع مطلقا . وسبل الشيطان وخطواته هى كل امر يخالف سبيل الحق والخير والمصلحة

طريق الحق هو الوحدة والاسلام ، وطرق الشيطان هى مشاركات التفرق والخصام ، وهى معروفة فى كل الأمم ، ولكن الشيطان يزين طارقه ، ويسول للناس المنافع والمصالح فى التفرق والخلاف . ومن خطوات الشيطان طرق الفواحش والمنكرات كلها ، ولذلك قال تعالى ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ أما أن الشيطان عدو مبين — أى ظاهر العداوة — فذاك أن جميع ما يدعو اليه ظاهر البطلان بين الضرر لمن تأمل وعقل . فمن لم يدرك ذلك فى مبدأ الخطوات أدركه فى غايتها عندما يذوق مرارة مغبتها ﴿ فان زلستم من بعد ما جاءكم

البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴿ أى فان زلتم وحدتم عن صراط الله - وهو السلم - الى خطوات الشيطان - وهى طرق الخلاف والافتراق والباطل - من بعد أن بين الله تعالى لكم أن سيده واحد وهى السلم وأن الشيطان لكم عدو مبين ، فاعلموا انه يحل بكم العقاب ، لأنه عزيز لا يغلب على امره ، حكيم لا يهمل امر خلقه . ثم بين تعالى غاية الوعيد المشار اليه فى الآيتين السكريميتين فقال ﴿ هل ينظرون

إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ﴾ الاستغمام فى الآية للانكار ، وينظرون بمعنى ينتظرون ، وهى كثرة الاستعمال بهذا المعنى فى الكتاب العزيز . وحسبنا أن نقول على رأى من فسر إتيان الله هنا بأتيان أمره ، وما وعد به من العذاب ، أو إتيانه بما وعد به ، أن نفوض اليه تعالى كيفية ذلك ، وبذلك نكون على طريقة السلف فى التفويض ، مع العلم بأن الله تعالى ينذر الذين زلوا عن صراطه وفرقوا دينه بأمر معروف فى الجملة لا بشيء مجهول مطلق . وأما ظلل الغمام فهى قطع السحاب ، وان الحكمة فى نزول العذاب فى الغمام انزاله فجأة من غير تمهيد ينذر به ، وذلك أبلغ فى هوله . وهناك وجه آخر اذا كان يوم القيامة وكشف الحجاب عرفوا الله ربهم الحق وتبين لهم ما كانوا عليه من الباطل . فذلك إتيان الله لهم ، أى يأتيهم من معرفته ما كانوا غائبين عنه محرومين منه فى الدنيا . ﴿ وقضى الأمر ﴾ أى كيف ينتظرون غير

ذلك وهو أمر قضاء الله وأمره فلا مفر منه ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ فيضع كل شيء موضعه الذى قضاه ، فهو الأول ومنه بدأت الاشياء واليه ترجع وتصير ، وهو بكل شيء محيط فيجازى أهل الاحسان بالاحسان وأهل الاساءة بما رأى .

﴿ سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ﴾ الخطاب للرسول أو لكل أحد : هذا بيان لحقيقة حال بنى اسرائيل ، وأن الآيات والنذر لا ترجعهم عن ضلالهم ، فكم جاء أنبياءهم بالآيات والبينات ، وكم بلاهم الله بالحسنات والسيئات ، فلم يغن ذلك عنهم ولا صدحهم عن خلافهم وشقاقهم ﴿ ومن يبدل نعمة الله عليه بالآية الدالة على الحق والوحدة الدالة على الشكر ﴾ من بعد ما جاءته بالبيان والبرهان ﴿ فان الله شديد العقاب ﴾ لمن تنكب سنته وخالف شرعته . وهذا المبدل منهم

فالعقاب الشديد نازل به لا محالة . وهناك وجه آخر في المخاطبين بالدخول في السلم ، فهو أن الآية هادية الى الاعتبار بسنة الله تعالى في الأمم الماضية ، كأنه يقول : يا أيها المؤمنون بمحمد ﷺ ، عليكم بالدخول في السلم ، والاتفاق والاعتصام بالاسلام في جملة ، لا تفرقوه وتفرقوا فيه وتكونوا شيعة ، كيلا يصيبكم ما أصاب أولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ، وهؤلاء بنو اسرائيل بين أيديكم وحالهم لا تخفى عليكم ، فقد أوتوا نحو ما أوتيتم من البينات ، وأمروا كما أمرتم بالاتحاد والاجتماع ، ففرقوا الى مذاهب وشيع ، وزلوا عن صراط الله ففرقت بهم السبل ، فأخذهم الله بعزته ، ونفذ فيهم حكم سنته : زال سلطانهم ، ولغظتهم اوطانهم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، ومزقوا في الأرض كل ممزق . والآية عبرة للمخاطبين بالقرآن من المؤمنين به ، لا حكاية تاريخية عن بني اسرائيل

زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْخَيُوتُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ النَّاسُ
أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ
وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأْتِكُمْ مِثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ
الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)
يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَلِیَتِمَى

وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

التفسير

(زين للذين كفروا الحياة الدنيا) أى حسنت فى أعينهم وأشربت محبتها فى قلوبهم ، حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها والمراد بالذين كفروا من لا يؤمنون بالحقوق المشروعة لله وللناس إيمان إذعان وانقياد بل يؤثرون الحياة الدنيا وزينتها على ما عند الله تعالى من النعيم المقيم ، لا المشركون أو الكافرون فى عرف بعض الناس كالذين لا يسمون مسلمين ، كما أن القرآن لا يعنى بالمؤمنين الناجين طائفة يسمون أنفسهم أو يصفونها بالإيمان أو الاسلام ، وإنما يعنى بهم أولئك الموقنين بما عند الله ، الذين يؤثرون الحق على كل ما يعارضه من شهواتهم ولذاتهم ، وإذا عثر أحدهم فعمل السوء بجهالة يتوب من قريب . وانظر سائر ما عرّف الله تعالى به المؤمنين والكافرين من النعوت والأوصاف يظهر لك هذا . وأظهر أوصاف الكافر أن تكون زينة الدنيا أكبر همه ، يؤثرها على كل شيء ، حتى أن أوامر الدين لا ترحزه عن شيء يقدر عليه من هذه الزينة ومتاعها بلا معارض ، لأنه لا يقين له فى الآخرة ، فإن كان منتسباً إلى دين فما دينه إلا تقاليد على أعين الناس وخواطر تتنازعها الشبهات وتتجاوزها الشكوك والتأويلات (ويسخرون من الذين آمنوا) إيماناً حقيقياً يحمل على العمل ، الذين يرون الكياسة فى الاستعداد لما بعد الموت ، بترقية النفس بالاعتقاد الصحيح المؤيد بالبينات ، والتحلّى بالفضائل وأحسن الأخلاق ويعدون الفضل فى القيام بحقوق الناس وخدمة الأمة والافاضة من المال على العاجزين والباستين . وكلما أنفقوا فى سبيل الله درهما عده أو لك المستمترئون مغرماً ، قال تعالى رداً على هؤلاء الساخرين الذين يرون أن زينتهم ولذاتهم خير من أهل اليقين فى نزاهتهم وتقاهم (والذين

اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴿ فإذا استعلى بعضهم على بعض المؤمنين طائفة من الزمن في هذه الحياة القصيرة الفانية — بما يكون لهم من الاتباع والانصار والمال والسلطان — فان المؤمنين المتقين يكونون أعلى منهم مقاماً يوم القيامة في تلك الحياة العلية الابدية . فالله يرشدنا أنه لا اعتداد بالإيمان في الآخرة الا اذا صحبته التقوى وكانت أثراً له في النفس والعمل الصالح ﴾ (والله يرزق من يشاء بغير حساب) الحساب التقديرى أى من غير تقدير له على حسب الايمان والتقوى والكفر والفجور . وفيه وجه آخر وهو كناية عن السعة وعدم التقير ، أى ينفق كثيراً ، والمعنى أنه بذل العطاء في الدنيا لكل أحد ، بخلق الارزاق وإقدار الناس على الكسب . وقيل ان المعنى بغير حساب عليه من أحد ولا مراجعته .

﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ والمعنى أن الله تعالى قضى أن يكون الناس أمة واحدة يرتبط بعضها ببعض ولا يمكنهم فى هذه الوحدة ومع تلك الوصلة اللازمة بمقتضى الضرورة أن يتفقوا على تجديد النظام اللازم لهم مع اختلاف الفطرة وتفاوت العقول . ولا سبيل لعقولهم وحدها الى الوصول الى ما يلزمهم فى توفير مصالحهم ورفع المضار عنهم ، فبعث الله النبيين مبشرين من آمن وأطاع بهز الدنيا وخير الآخرة ، ومنذرين من كفر وعصى بخزى الدنيا وعذاب الآخرة ، وأيد المؤمنين بالدلائل القاطعة على صدقهم .

﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ أنزل الله الكتاب ليان ما يريد حمل الناس عليه بما هو صالح لهم على حسب استعدادهم ، والجملة الاولى تفيد أن الله أنزل مع كل نبي كتاباً بما هو صالح لا مفسدة فيه ، ليقع الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، والحاكم هو المتولى للفصل بين الناس فى الخصومات بالنسبة إلى الاعمال ، والمرشد الى صحيح العقائد . وفيه قول آخر ، فالحكم مسند الى الكتاب نفسه ، فالكتاب هو الذى يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه . وفيه نداء على الحاكمين بالكتاب أن يلزموا حكمه ، وأن لا يعدلوا عنه ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ .

إن الاختلاف الذي وقع من الرؤساء والأحبار والعلماء ومن أوتوه لم يكن مصدره إلا البغى بينهم ، وتعدى الحدود التي أقامها الدين حواجز بين الناس ، وذلك رغبة في رياسة ، أو إرضاء لشهوة خفية ، أو منفعة . فبغى علماء الدين في التأويل وكثرة القيل والقال ليس بعيب في الكتاب ، وإنما العيب في مرض نفوسهم التي استرقتها الشهوات ، وأضلتها الأهواء ، فعصفت بريحهم ، وقضت على وحدتهم ، وضلوا بعد هدى ، وضلوا بعد عز ، واسترقوا بعد حرية واستقلال ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾

أى أن المؤمنين هم الذين يهتدون لما اختلف الناس فيه من الحق ، ويصلون الى ما يرضى ربهم ، فلايمان الصحيح يهدي صاحبه الى صور من الحق تنزل منه منزلة العبارة من معناها ، فهو إذا اعتقد فأنما يعتقد ما هو مطابق للواقع ، وإذا تخيل فأنما يتخيل صوراً تمثل ذلك الواقع وتحليه في أقوى مظاهره ، لهذا يكون تيسير الله له الهداية الى الحق الذي يختلف فيه الناس ، فهو مطمئن ساكن القاب وهم في اضطراب وحرب ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ كأنه يقول : قد خلت - مضت - من قبلكم أمم أوتوا الكتاب ودعوا للحق فأذاهم الناس في ذلك ، فصبروا وثبتوا . أفتصبرون مثلهم على المسكاره وثبتون ثباتهم على الشدائد ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتناولوا رضوان الله تعالى من غير أن نفثتموا في سبيل الحق فتصبروا على ألم الفتنة ، وتؤذوا في الله فتصبروا على الايذاء كما هي سنة الله تعالى في أنصار الحق وأهل الهداية في كل زمن ﴿ مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه حتى نصر الله ﴾ البأساء أشدة تعيب الانسان في غير نفسه وبدنه كأخذ المال والاخراج من الديار وتهديد الأمن ومقاومة الدعوة ، وفسرت بالفقر وهو من أثره . وأما الزلازل فهو الاضطراب في الامر يتكرر حتى يكاد يزل صاحبه عنه . وزلزه : هزه ودعته ليزله عما هو عليه ، أى أنهم وصلوا الى درجة حدوث الاضطراب والاشراف على الزلزال في مجموعهم كما قال تعالى في المؤمنين يوم الاحزاب ﴿ وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ ، والآية التي نفسرها تصرح بأن بعض السابقين كانوا أشد زلزالاً ، ولعل الغاية التي وصلوا اليها ولم يصل اليها سلفنا هي قوله

تعالى ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ أى حتى وصلوا إلى غاية من الشدائد والاهوال لم يروا فيها منفذاً لسبب من أسباب النصر والفوز ، لان قوة اعداء الحق أحاطت بهم من كل جانب فاعتقدوا أن وقت العناية الالهية والنصر الذى وعد الله به من ينصر الحق قد حان وقته أو أبطأ فاستعجلوه متى نصر الله ، فأجابهم تعالى ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ بأن نصرهم وكف عنهم شر أهل البغى وأيد دعوتهم وجعل كلمتهم هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى وكان الله قوياً عزيزاً .

﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ بذل المال كبذل النفس وكلاهما من آيات الايمان فكان لما تقدم تتوجه نفسه الى البذل فيسأل عن طريقه ، فجاء بعده السؤال مقرّونا بالجواب ﴿ قل ما أنفقتم من خير ﴾ وإن التعبير عن المال بالخير يتضمن كونه حلالاً ، فكأنه قال : إن الانفاق والتصدق يكون من فضل المال الكثير الحلال الطيب ، أما بيان المصرف فهو قوله ﴿ فلو الدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ قدم الوالدين لمكانتهما ، وفسروا الاقربين بالاولاد اولادهم ، وما اختير لفظ الاقربين هنا الا لبيان أن العلة في التقديم القرابة ، فمن كان أقرب كان أحق بالتقديم . فالآية عامة في النفقة وأحق الناس بها ، لأنه لا يجب على فرد معين من المكلفين الانفاق على يتيم أو مسكين معين منهم من حيث أنه يتيم أو مسكين ، ولكنهم أحق بالصدقة المفروضة والمندوبة بعد الاقربين ، ثم قال تعالى ﴿ وما تفعلوا من خير ﴾ كالانفاق في موضوعه بتقديم الأحق فالأحق به بمن ذكر — وهو ما يوجه في كل زمان ومكان — ومن لم يذكر في هذه الآية وذكر في غيرها ، وبغير الانفاق من أعمال الخير ﴿ فان الله به عليم ﴾ لا يغيب عنه فينسى الجزاء والتوبة عليه

﴿ كتب عليكم القتال ﴾ — انعقد الاجماع على أن الجهاد فرض ، وهو أنه من فروض الكسفاية إلا أن يدخل العدو بلاد المسلمين فاتحاً فيكون فرض عين ، ﴿ وهو كره لكم ﴾ معناه أن من الأشياء المكروهة طبعاً ما تأتونه وأنتم ترجون نفعه وخيره .

كشرب الدواء البشع المر ومن الأشياء المستلذة طبعاً ما يتوقع فاعلموا الضرر والأذى في نفسه ومن جهة منازعة الناس له فيه ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿بين سبحانه أن القتال كتب على هذه الأمة فلا مفر منه وإن كرهه المؤمنون خشية أن يضيع الحق بهلاك أهله﴾، أو كما أودع القرآن قلوبهم من الرحمة والرجاء يجذب الناس إلى الإيمان بجاذب الدليل والحجة وهو الأرجح، ولكن يوجد فريق من الأمة أعتمه الشهوات وأضله الهوى حتى لم يبق لروح الحق منفذ إلى عقله ولا لحب الخير طريق إلى قلبه فلا تنفع فيه الدعوة ولا ترجى له الهداية، ومثل هذا الفريق في الأمة كمثل الدم الفاسد في الجسم إذا لم يخرج منه فإنه يفسده، ولم يأمر الله بقتالهم إلا رحمة بمجموع الأمة أن تفسد بهم، والله هو الذي يعلم ما يصلحكم وما هو خير لكم وأتم تعلمون ذلك فبادروا إلى ما يأمركم به وامتنوا أمره.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

التفسير

(يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) والمعنى يسألك الكفار عن الشهر الحرام
 جاز القتال فيه (قل قتال فيه كبير) أى أن القتال فيه أمر مستنكر . وقال بعضهم
 ذنب كبير . وهذا تقرير لحرمة القتال في الشهر الحرام ، والشهر الحرام : المراد به
 الجنس . وقد كانت العرب لا تسفك فيه دماً ولا تغير على عدو . والأشهر الحرم :
 هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، ثلاثة سرد وواحد فرد . أى أنه لا يحل
 للناس الغزو فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا على سبيل الدفع — وإذا كان القتال
 فى نفسه أمراً كبيراً وجرمًا عظيمًا فانما يرتكب لازالة ما هو أعظم منه وذلك قوله
 تعالى (وصد عن سبيل الله) الطريق الموصل اليه وهو الاسلام ، وكان المشركون
 يمنعون الناس منه ، يقتلون من يسلم أو يؤذونه فى نفسه وأهله وماله ويمنعونه من
 الهجرة الى النبي ﷺ (وكفر به) أى بالله تعالى (والمسجد الحرام) أى وصد
 عن المسجد الحرام ، وهو منع المؤمنين من الحج والاعتبار (واخراج أهله منه)
 وهم النبي ﷺ والمهاجرون — كل واحد من هذه الجرائم التى عليها المشركون
 (أكبر عند الله) من القتال فى الشهر الحرام فكيف بها وقد اجتمعت .
 ومعنى الآية الذى ذهب اليه الجمهور : انكم يا كفار قريش تستعظمون علينا
 القتال فى الشهر الحرام وإن ما تفعلون أتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الاسلام ،
 ومن الكفر بالله ، ومن الصد عن المسجد الحرام ، ومن إخراج أهل
 الحرم منه أكبر جرماً عند الله . ثم صرح بالعلة العامة لمشروعية القتال وهى
 فتنه الناس عن دينهم فقال (والفتنة أكبر من القتل) وكان المشركون يفتنون
 المؤمنين عن دينهم بالقاء الشبهات وبما علم من الايذاء والتعذيب ، فكان أمية بن
 خلف يعذب بلالا ليفتنه فكان يجيعه ويعطشه ليلة ويوما ثم يطرحه على ظهره فى
 الرمضاء ، أى يضعه على الرمل المحمى بحرارة الشمس الذى ينضج اللحم ويضع على
 ظهره صخرة عظيمة ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ﷺ
 وتعبد اللات والعزى ، فبأنى ذلك ، وهانت عليه نفسه فى الله عز وجل وهو يقول :

أحد ، أحد . وهذا نموذج من فتنة المشركين لضعفاء المسلمين ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ عاد الى خطاب المؤمنين الذين كانوا يكرهون القتال لما تقدم ، فأعلمهم أن أولئك المشركين لا همّ لهم إلا منع الاسلام من الأرض ، فترك قتالهم هو الذى يبديد الحق وأهله ، وانتظار إيمانهم بمجرد الدعوة طمع فى غير مطمع والقتال فى الشهر الحرام أهون من الفتنة عن الاسلام والكفر به والصدع المسجد الحرام وإخراج أهله منه والاعتداء بالقتال والاستمرار عليه . ولما ذكر الردة التى يبغونها بقتالهم بين حكمها فقال ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت

أعمالهم فى الدنيا والآخرة ﴾ حبطت أى بطلت وفسدت ، والمعنى أن الرجوع عن الايمان إلى الكفر يشبه الآفة التى تصيب المخ والقلب فتذهب بالحياة ، فان لم يمت المصاب بعقله وقلبه فهو فى حكم الميت لا ينتفع بشيء ، وكذلك الذى يقع فى ظلمات الكفر بعد أن هدى الى نور الايمان تفسد روحه ويظلم قلبه فيذهب من نفسه أثر الاعمال الصالحة الماضية ولا يعطى شيئاً من أحكام المسلمين الظاهرة فيخسر الدنيا والآخرة . ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ يعنى الذين ارتدوا عن دينهم فأتوا على كفرهم هم أهل النار المخلدون فيها فلا يخرجون منها فهم سـكانها المقيمون فيها .

ولما ذكر حال المشركين وحكم المرتدين ناسب أن يذكر جزاء المؤمنين المهاجرين والمجاهدين ولذلك قال ﴿ ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ المهاجرة مفارقة الأهل والاطوان وهى من الهجر ضد الوصل . والمجاهدة من الجهد وهو المشقة ، وليس خاصاً بالقتال . والرجاء هو توقع المنفعة من أسبابها ، فالؤمنون الذين هاجروا مع الرسول أو هاجروا اليه للقيام بنصرة الحق والذين بذلوا جهدهم فى مقاومة الكفار هم الذين يرجون رحمة الله تعالى وإحسانه رجاء حقيقياً ، وهم أجدر بأن يعطوا ما يرجون ﴿ والله غفور رحيم ﴾ يغفر لهم ما عساه يفرط منهم ويتغمدهم برحمته ورضوانه

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا الْكَبِيرُ
 مَنْ نَفَعَهُمَا ، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ الْغَفْوُ ، كَذَلِكَ يبين الله لكم الآيات
 لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُ
 لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
 لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمَنَ وَلَا مِلَّةَ
 مُؤْمِنَةٍ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلِعَبْدِ
 مُؤْمِنٍ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ
 وَالْمَغْفِرَةِ بِآذَنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

التفسير

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ لفظ الخمر منقول عن مصدر خمر الشيء بمعنى
 ستره وغطاه . والوجه في النقل أن هذا الشراب يستر العقل ويغطيه ، أو بمعنى التغير
 يقال خمر الشيء إذا تغير عما كان عليه ، والعصير يتغير فيكون خمرًا . ويقال سميت
 الخمر خمرًا لأنها تركت حتى اختمرت ، واختارها تغير رائحتها . وجميع هذه المعاني
 ظاهرة في هذه الأشرطة المسكرة كلها ، فيصبح إطلاق اسم الخمر لغة على كل مسكر ،
 وهذا ما ذهب إليه أشهر علماء اللغة ، وإن الصحابة وهم صميم العرب فهموا من تحريم
 الخمر تحريم كل مسكر ولم يفرقوا بين ما كان من العنب وما كان من غيره ، والاحاديث
 الصحيحة صريحة في ذلك ، كل مسكر خمر ، وروى بزيادة « وكل خمر حرام » . وكان
 النبي ﷺ والخلفاء يجلدون كل من سكر ويعبرون عن ذلك بخمر الخمر وعقوبته ، وهذا
 البيان قطعي متواتر ، لأن العمل عليه . وفي حديث صحيح آخر « ما أسكر كثيره فقليله
 حرام » .

وأما الميسر فهو القمار واشتقاقه من يسر اذا وجب أو من اليسر بمعنى السهولة لأنه كسب بلا مشقة ولا كد ، أو من اليسار وهو الغنى لأنه سببه الراجح ، أو من اليسر بمعنى التجزئة والاقسام . وقد اختلفوا : هل الميسر ذلك النوع من القمار الذى كان يلعبه العرب بالقداح ومن خرج له قدح من ذوات الانصباء لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزء كله ، أم يطلق على كل مقامرة . ولكن لا خلاف فى أن كل قمار محرم قطعاً إلا ما أباح الشرع من الرهان فى السباق والرمية ترغيباً فيهما .

﴿ قل فيهما اثم كبير ﴾ وانما كان اثم الخمر كبيراً لأن مضرتها كبيرة ولا اثم الا ما كان ضاراً والضرر يكون فى البدن والنفس والعقل والمال ، ويكون فى التعامل وارتباط الناس بعضهم ببعض ، ولا يوجد اثم من الآثام يدخل ضرره فى كل شيء كالخمر . وأما كون اثم الميسر كبيراً أو كثيراً فقد جاء فيه ما جاء فى الخمر من كونه يورث العداوة والبغضاء ، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ثم إنه طريق لآكل أموال الناس بالباطل — أى بغير عوض حقيقى من عين أو منفعة — وهذا محرم بنص القرآن كما تقدم فى محله ، وافساد الترية بتعويذات النفس بترك الاعمال المفيدة فى طرق الكسب الطبيعية ، وإهمال الياسرين « المقامرين » للزراعة والصناعة والتجارة التى هى من أركان العمران . ومنها وهو أشهرها تخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر فى ساعة واحدة .

﴿ ومنافع للناس ﴾ أما المنافع فى الخمر فافهمها التجارة ، فقد كانت ولا تزال مورداً كبيراً للثروة ومادة عظيمة للتجارة ، ومنها أن تكون علاجاً لبعض الامراض ، ولكن الدواء يؤخذ بمقدار ، فالتداوى بالخمر لا يتفق مع شربها للشوشة واللذة ، ومنها أنها تسلى الحزين ، على أن ما يكون بعدها من رد الفعل يزيد فى الحزن والسكابة . ومن منافع الميسر سرور الراجح وارتحيته ، ومنها أن يصير الفقير غنياً من غير تعب .

﴿ واثمهما أكبر من نفعهما ﴾ ، وهذا القول إرشاد للمؤمنين الى طريق الاستدلال ، فكان عليهم أن يهتدوا مسننه الى القاعدتين اللتين تقررتا بعد فى الاسلام : قاعدة درء المفسد مقدم على جلب المصالح ، وقاعدة ارتكاب أخف الضررين ، إذا كان ترك أى منفعة ضرراً . وأطباء الأفرنج وعلمائهم مجمعون على أن ضرر الخمر — وكذلك

الميسر بالاولى — أكبر من نفعهما ، وقد ألقت جمعيات في أوروبا وأمريكا للسعي في ابطال المسكرات ومحاربة الميسر . فنفعه القهار وهيمه ومضراته حقيقية فان المقامر يبذل ماله المملوك له حقيقة على وجه اليقين لأجل ربح موهوم ليس عنده وجه ذرة لترجيحه على خطر الخسران والضياح ، والمسترسل في إضاعة المحقق طالبا للتوهم يفسد فكره ويضعف عقله ، ولذلك ينتهى الأمر بكثير من المقامرين الى بئس أنفسهم (قتلها غما) أو الرضى بعيشة الذل والمهانة .

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ العفو : هو الفضل والزيادة عن الحاجة ، وعليه الاكثر . وقال بعضهم إن العفو نقيض الجهد ، أى ينفقون ما سهل عليهم وتيسر لهم ، ~~ما يكون~~ فاضلا عن حاجتهم وحاجة من يعولون . والمراد بهذا الانفاق ماوراء الزكاة المفروضة المحدودة كصدقة التطوع على الافراد وعلى المصالح العامة ، وإن كان لفظ العفو يصدق على الزكاة ، لأنها لا تكون إلا من الزائد على الحاجة الذى لا جهد ولا مشقة فيه . وقد ورد فى الحديث الصحيح : خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وابدأ بمن تعول .

وقال أيضاً اذا كان عند أحدكم فضل فليبدأ بنفسه ، ثم بأهله ، ثم بولده ، ثم يسلك حينئذ فى الفضل مسالكه التى ترضى الله ومحبتها وذلك هو القوام بين الاسراف والاقتار الذى ذكره الله عز وجل فى كتابه . لا تنهض أمة ولا ملة إلا بالتعاون ، وهو مساعدة الغنى للفقير ، وإعانة القوى للضعيف ، وبذل المال والعناية فى حفظ المصلحة العامة . بهذا ظهر القليل على الكثير ، وكانت لهم السيادة ، وبترك هذا انحلت الأمم الكبيرة وفقدت الملك والسعادة ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ معناه : مثل هذا النحو وعلى هذه الطريقة من البيان قد قضت حكمة الله بأن يبين لكم آياته من الأحكام المتعلقة بمصالحكم ومنافعكم ، وذلك بأن يلفت عقولكم الى ما فى الاشياء من المضار والمنافع ﴿ لعلمكم تتفكرون ﴾ بأن هداكم الى استعمال عقولكم لترتقوا بها الى النافع وتعملوا له ، والى الضار فتجتنبوه ﴿ فى الدنيا والآخرة ﴾ أى تفكرون فى أمورهما معا ، فتجتمع لكم مصالح الجسد والروح ، فتكونون أمة وسطا وأناسى كاملين ، لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فإله تعالى يبين فى مثل هذه الآيات أن الاسلام

هاد ومرشد الى توسيع دائرة الفكر واستعمال العقل في مصالح الدارين ، وقدم الدنيا لأنها مقدمة وجودا وطبعيا ، وكل ما أمرنا الله تعالى به وهمدانا اليه فهو من ديننا ، ولذلك قال علماءنا : إن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج اليها الناس في معاشهم من الفروض الدينية ، اذا اهملت الامة شيئا منها — فلم يبق به من أفرادها من يكفها ضرر الحاجة — كانت كلها عاصية لله تعالى مخالفة لدينه ، إلا من كان عاجزا عن دفع ضرر الحاجة ، وعن الامر به للقادر عليه ، فأولئك هم المعذورون بالتقصير .

ثم قال تعالى ﴿ ويسألوك عن اليتامى ﴾ لما نزلت آية ﴿ ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾ اعتزلوا اليتامى ومخاطبتهم والاهتمام بأمرهم ، فشق ذلك عليهم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الوحي في ازالة الحيرة وكشف الغمة فقال لنبيه ﴿ قل ﴾ هؤلاء السائلين عن القيام على اليتامى وكفالتهم وعن المصلحة في عزلهم أو مخاطبتهم ﴿ اصلاح لهم ﴾ ومعنى ذلك أن القيام عليهم لاصلاح نفوسهم بالتهذيب والتربية ، وإصلاح أموالهم بالتمثيل والتنمية ، هو خير من إهمال شأنهم وتركهم لأنفسهم تفسد أخلاقهم وتضيع حقوقهم ﴿ خير ﴾ لهم لما فيه من صلاحهم ، وخير للقوام والكافرين لما فيه درة مفسدة إهمالهم ، وللمصلحة العامة في صلاح حالهم ، ولما في ذلك من حسن القدوة في الدنيا وحسن المشوبة في الآخرة ﴿ وإن تخالطوهم فأخوانكم ﴾ فكأنه يقول إن تخالطوهم فعليكم أن تعاملوهم معاملة الاخوة في ذلك فيكون اليتيم في البيت كالأخ الصغير تراعى مصالحته بقدر الامكان ، ويتحرى أن يكون في كفة الرجحان . وقيل إن المراد بالمخالطة المصاهرة وأخوة الاسلام علة لحملها ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ والله يعلم ما تسر القلوب من قصد اصلاح لهم أو الافساد ، فعليكم أن تراقبوه في أعمالكم ونياتكم . والمصلح هو من يأتي بالاصلاح عملا والمفسد هو من يأتي بالافساد فعلا ، وحال كل منهما ظاهر للعيان ﴿ ولو شاء الله لاعتنكم ﴾ أى أوقعكم في العنت وهو المشقة بان يكلفكم القيام بشئون اليتامى وتربيتهم وحفظ أموالهم ولا يأذن لكم بمخاطبتهم ﴿ ان الله عزيز حكيم ﴾ فلو شاء إعانتكم لعز على غيره منعه ، حكيم بأن

منكم ما يضيركم من ذلك وكلفكم ما فيه مصلحتكم وأن هداكم الى وجه منفعة النافع ومضرة الضار .

(ولا تشكحوا المشرك حتى يؤمن) إن هؤلاء الذين أشركوا — وهم الذين بينكم وبينهم غاية الخلاف والتباين في الاعتقاد — لا يجوز لكم أن تتصلوا بهم برابطة المصاهرة ، لا بتزويجهم ولا بالتزوج منهم . وأما السكتابيات فقد جاء في سورة المائدة أنهن حل لنا ، وسكت هناك عن تزويج السكتابي بالمسلمة . وقالوا إنه على أصل المنع ، وأيدوه بالسنة والاجماع . والتعبير بتشكحوا يشعر بأن الرجال هم الذين يزوجون أنفسهم ويزوجون النساء اللواتي يتولون أمرهن ، وأن المرأة لا تزوج نفسها بالاستقلال بل لا بد من الولي (ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تشكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) وقد فسر بعضهم الأمة والعبد بالرقيق أى أن الأمة المملوكة المؤمنة خير من الحرة المشركة ولو أعجبكم جمالها ، وكذلك الفتى المؤمن خير من الحر المشرك وإن كان جميلاً . وقال آخرون إن المراد أمة الله وعبد الله ، أى أن المؤمنة والمؤمن كل منهما عبد الله ويطيعه ويخشاه ، ولذلك كان خيراً ممن يشرك به فكان في التعبير بالأمة والعبد اشعار بعلة الخيرية . وليس المراد بالزوجة قضاء الشهوة الحسية ، وإنما المراد بها تعاقد الزوجين على المشاركة في شئون الحياة والاتحاد في كل شيء ، وإنما يكون ذلك بكون المرأة محل ثقة الرجل يأمنها على نفسه وولده ومتاعه عالماً أن حرصها على ذلك كحرصه لأن حفظها منه كحفظه . وما كان الجمال الذى يروق النظر ليحقق في المرأة هذا الوصف ، ولكن قد يمنعه التباين في الاعتقاد الذى يتصدر معه الركون والاتحاد ، والمشركة — اذ ليس لها دين يحرم الحياة ويوجب عليها الأمانة — فهى موكولة الى طبيعتها وما تربت عليه في عشرينتها ، وهو خرافات الوثنية وأوهامها ، فسهل عليها أن تخون زوجها وتفسد عقيدة ولدها ، فإن ظل الرجل على إعجابه بجبالها كان ذلك عوناً لها على التوغل في ضلالها واضلالها .

وأما السكتابية فليس بينها وبين المؤمن كبير ممانعة ، فانها تؤمن بالله وتعبده ، وتؤمن بالانبياء وبالحياة الأخرى وما فيها من الجزاء ، وتدين بوجوب عمل الخير

وتحريم الشر ، والفرق العظيم الجوهرى بينهما هو الايمان بنبوة النبي ﷺ ويوشك أن يظهر للرأى حقيقة دينه وحسن شريعته والوقوف على سيرة من جاء بها فيكمل ايمانها ويصح إسلامها ، ومثل هذه الحكمة لا تظهر في تزويج الكتابى بالمؤمنة بما يغلب عليها من الجهل والضعف في بيان ما تعلم ، لا يسهل عليها أن تقنعه بحقيقة ما هى عليه ، بل يخشى أن يزيفها عن عقيدتها ويفسد منها دون أن تصلح منه . وهذا المعنى

يقهم من تعليل النهى عن منالكحة المشركين في قوله عز وجل ﴿ أولئك يدعون الى النار ﴾ أى من شأنهم الدعوة الى أسباب دخول النار بأقوالهم وأفعالهم ، وصلة الزواج أقوى مساعد على تأثير الدعوة ، لأن من شأنها أن يتسامح معها في شئون كثيرة . وقد يسرى شيء من عقائد الشرك للؤمن والمؤمنة بضروب الشبه والتضليل التى جرى عليها المشركون بقولهم فيمن يتخذونهم وسطاء بينهم وبين الخالق ﴿ ١٠ :

١٨ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ، ﴿ وما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى ﴾ ومعاشرة المشركين مع الكراهة والنفور قد أفسدت جميع الأديان السماوية الأولى ، فما بالك بتأثير اتخاذهم أزواجا ، وهو يدعو الى كمال السكون اليهم والمودة لهم والرحمة بهم ، الا يكون ذلك دعوة الى النار وسببا للشقاء والبوار . هذه دعوة الزوج المشرك بطبيعة

دينه ﴿ والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه ﴾ وهو أن دعوة الله التى عليها المؤمنون هى الموصلة الى الجنة والمغفرة بأذن الله وهدايته وتوفيقه ، وهى مناقضة لدعوة المشركين وهى على ما هم عليه من الشرك الموصل الى النار بسوء اختيار أصحابه له

﴿ ويبين آياته للناس ﴾ أى يوضح الدلائل على أحكام شريعته للناس ، فلا يذكر لهم حكما إلا ويبين لهم حكمته وفائدته ليستدلوا بذلك على المصلحة والسعادة فيما شرعه

لهم ﴿ لعلمهم يتذكرون ﴾ فيواظبون على التزام احكام الله . ومن هنا قال الفقهاء : إن الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما ، وإن ما يشارك المنصوص فى العلة يعطى حكمه .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا
تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
التَّوْبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ إِنِّي سَتَمْتُ
وَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا
تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
(٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

التفسير

(ويسألونك عن المحيض) أى عن حكمه وهو الحيض المعروف (قل هو أذى
فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن) والمعنى أنه يجب على الرجال
ترك غشيان نساءهم زمن الحيض لأن غشيانهن سبب للأذى والضرر، وإذا سلم الرجل
من هذا الأذى فلا تسكاد تسلم منه المرأة، لأن الغشيان يزعج أعضاء الذسل فيها إلى
ما ليست مستعدة له ولا قادرة عليه، لاشتغالها بوظيفة طبيعية أخرى وهى إفراز
الدم المعروف، وقد كان يظن بعض الناس أن الاعتزال وترك القرب حقيقة لا كناية،
وأنه يجب الابتعاد عن النساء في المحيض وعدم القرب معهن بالمرّة، ولكن النبي ﷺ
بين لهم أن المحرم إنما هو الوقاع، وهذا خلاف لما كانت عليه اليهود: كانوا إذا حاضت
المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ عن ذلك،
فأنزل الله عز وجل (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى) إلى آخر الآية، فقال
رسول الله ﷺ اصنعوا كل شيء إلا الجماع، فإذا تطهرن فاتوهن من حيث

أمركم الله ﴿ الطهر معناه انقطاع الدم عن الحيض ، وهو مالا يكون بفعل النساء ، وأما التطهر فهو من عملهن ، وهو يكون عقب الطهر . واختلفوا في المراد منه ، والجمهور على أن المراد به الاغتسال بالماء إن وجد ، وإلا فالتيمم ﴾ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴿ أى فأتوهن من المأتى الذى كَوَّنَ الله تعالى الفطرة على الميل اليه ، ومضت سنته بحفظ النوع به ، وهو موضع النسل ﴾ (إن الله يحب التوابين) الذين إذا خالفوا سنة الفطرة بغلبة سلطان الشهوة فاتوا نساءهم في الحيض أو في غير المأتى الذى أمر الله به يرجعون اليه ولا يصرون على فعلهم السيئ ﴾ (ويحب المتطهرين) من الأحداث والأقذار ومن إتيان المنسكرك . ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ وهذا بيان حكمة الغشيان التى شرع الزواج من أجلها ، وكان من مقتضى الفطرة وهى الاستمتاع والاستيلاء ، لأن الحرث هو الأرض التى تستنبت ، والاستيلاء كالاستنبات ، وهو تصريح بما فهم من قوله عز وجل ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ وما جعل الزواج من أمر الدين وأسباب المثوبة إلا لأجل حفظ النوع البشرى بالاستيلاء ، كما يحفظ النبات بالحرث والزرع ، فلا تجعلوا الاستلذاذ المباشر مقصودا لذاته فأتوا النساء في الحيض حيث لاستعداد لقبول زراعة الولد ، وعلى ما في ذلك من الأذى ، وهذا يتضمن النهى عن إتيانهن في غير المأتى الذى يتحقق به معنى الحرث ، وقوله تعالى ﴿ أنى شئتم ﴾ معناه كيف شئتم ودأنى تستعمل غالبا بمعنى كيف ، وتستعمل بمعنى أين ، فكأنه يقول : لا حرج عليكم في إتيان النساء بأى كيفية شئتم مادتم تقصدون بها الحرث ﴾ وقدموا لأنفسكم واتقوا الله ﴿ فهذه أوامر تدل على أن هناك شيئا يرغب فيه وشيئا يرغب عنه ويحذر منه .

فالامر بالتقديم للنفس يتضمن الاختيار باختيار المرأة الودود الولود التى تعين الرجل على تربية ولده بحسن خلقها وعملها ، كما تختار للزراعة الأرض الصالحة التى يرجى نمو النبات فيها وإتياءه الغلة الجيدة . ويتضمن الأمر بحسن تربية الولد وتهذيبه وفى الحديث الولد الصالح من عمل المرء الذى ينفعه بعد موته ، وأما ما يحذر منه ويتقى الله فيه فهو إخراج النساء عن كونهن حرثا باضاعة مادة النسل في الحيض ،

أو بوضعها في غير موضع الحرث ، وكذلك اختيار المرأة الفاسدة التربية وإهمال
تربية الولد ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ إنذار للذين يخالفون عن أمره بأنهم يلاقون
جزاء مخالفاتهم في الآخرة كما يلاقونها في الدنيا بفقد منافع الطاعة والامتنال ، وتجرع
عاقبة الخالفة والعصيان ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الذين ينفقون عند حدود الله ويتبعون
هدى الله تعالى في أمر النساء والاولاد . وقد حذف ما به البشارة ليفيد أنه عام يشمل
منافع الدنيا ونعيم الآخرة ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم ﴾ العرضة لها معان
أظهرها هنا اثنان : أحدهما أن تكون بمعنى المانع المعترض دون الشيء ، أى
لا تجعلوا الله تعالى مانعا بينكم وبين عمل الخير بأن تحلفوا به على تركه فتركوه تعظيما
لاسمة ، قال عليه السلام « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى
فيه خير وليكفر عن يمينه » والله تعالى لا يرضى بأن يكون اسمه حجبا دون الخير أو
محضا للشر ، فنهى عن ذلك . والمعنى الثانى للعرضة ما يعرض للشيء أى ما ينصب
ليعرض له الشيء ، يقال فلان عرضة للناس إذا كادوا يقعون فيه .
والمعنى على هذا الوجه لا تكثرُوا الحلف بالله تعالى ، فالذى يجعل
الله عرضة لإيمانه هو كالحلف فى قوله تعالى ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ فكثير
الحلف كثير المهانة وقرينها ، ولا يكون الحلف إلا كذبا ، فهو على إهانته لاسم الله
تعالى يفوته ما يريد من قبول قوله وتصديقه . وهذا الوجه أظهر من الذى سبقه فالآية
الكريمة ترشدنا الى ترك الحلف بالله تعالى إلا عند الحاجة الى ذلك ﴿ أن تبرأوا
وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ والمعنى اذا حلف أحدكم على ترك البر أو التقوى أو
الإصلاح بين الناس فليكفر عن يمينه وليفعل البر والتقوى والإصلاح ، فلا عذر
لأحد فى ترك ذلك ، ولا يرضى الله تعالى أن يكون اسمه مانعا منه . وهناك وجه آخر
لتعليل النهى ، أى لا تجعلوه تعالى معرضا لإيمانكم لأجل البر والتقوى والإصلاح ،
فان كثير الحلف لا يكون أهلا لذلك من كونه يكون مهيئا غير معظم لله تعالى وعرضة
للكذب والحنث وغير موثوق بقوله ، فانى يرضاه الناس مصلحا بينهم ، والمصلح مرب
ومؤدب وحاكم مطاع بالاختيار ﴿ والله سميع عليم ﴾ أى سميع لما تلفظون به من
الحلف وغيره ، عليم بما يترتب على كثرة الحلف وبغيره من أعمالكم فعليكم أن تراقبوه

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ فاللغو أن يقع الكلام حشوا غير مقصود به معناه فهو يقول إن هذه الألفاظ التي تسبق إلى اللسان عادة ولا يقصد بها عقد اليمين لغو من القول لا تعد أيماناً حقيقية، فلا يؤاخذكم الله تعالى بها بفرض الكفارة عليها ولا بالعقاب كقول القائل لا والله وبلى والله وكلا والله. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لغو اليمين كقول الإنسان لا والله، بلى والله. وبهذا قال الشافعي. وقال قوم هو أن يحلف على شيء يرى أنه صادق ثم يتبين أنه خلاف ذلك، وبه قال أبو حنيفة رضي الله عنه. وقيل هو دعاء الرجل على نفسه كقول الإنسان أعني الله بصرى إذا لم أفعل هكذا، فهذا هو مالا يؤاخذ الله به. قال تعالى ﴿وَيَدْعُو الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دَعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾. ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴿بجعل اسمه الكريم عرضة للابتذال أو مانعا لصالح الأعمال، فإن الله لا ينظر إلى صوركم وأقوالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم﴾ (والله غفور حلیم) يغفر لعبده ما يلم به بما لا يفسد أخلاقه وأعماله، حلیم لم يتعجل بالعقوبة على هذا اللبس الذي يضعف العبد عن التوق منه، وقيل حلیم حيث لم يعجل المؤاخذة بيمين الجذ تر بصا للتوبة

لِّلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

التفسير

﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ الإيلاء من المرأة أن يحلف

الرجل أنه لا يقربها ، وهو ما يكون من الرجال عند المغاضبة والغليظ ، وفيه امتحان للمرأة وهضم لحقها واطهار لعدم المبالاة بها ، فترك المقاربة الخاصة المعلومة ضرار ومعصية ، والحلف عليه حلف على مالا يرضى الله تعالى ، لما فيه من ترك التراحم والتواد بين الزوجين ، وما يترتب على ذلك من المفساد في أنفسهما وفي عيالهما وأقاربهما . والظاهر أن حكم هذا الابلاء (الحلف) يدخل في معنى الآية على الوجه الأول من الوجهين اللذين أوردناهما ، وهو أنه يجب على المولى أن يحث ويكفر عن يمينه ، ولكنه إذا لم يفعل هذا الواجب لم يكن آثما في نفسه فقط فيقال حسبه ما يلقى من جزاء إثمه ، بل يكون بأثمه هاضما لحق امرأته ، ولا يبيح له العدل هذا الهضم والظلم ، ولذلك أنزل الله فيه هذا الحكم وهو التربص مدة أربعة أشهر - وقيل إن هذه هي المدة التي لا يشق على المرأة البعد فيها عن الرجل ، وهي كافية لترؤى الرجل في أمره ورجوعه إلى رشده ﴿ فان قاموا ﴾ أي رجعوا إلى نسائهم بأن حشوا في اليمين وقاربوهن في أثناء هذه المدة أو أواخرها ﴿ فان الله غفور رحيم ﴾ يغفر لهم ما سلف برحمته الواسعة ، لأن الفيئة توبة في حقهم ﴿ وان عزموا الطلاق ﴾ أي صمموا قصده وعزموا على أن لا يعودوا إلى ملاسة نسائهم ﴿ فان الله سميع عليم ﴾ فليراقبوا الله تعالى عالين أنه سميع لا يلائهم وطلاقم ، عليم بنيتهم ، مجازيهم بأعمالهم . والمعنى أن من حلف على ترك غشيان امرأته فلا يجوز له أن يتربص أكثر من أربعة أشهر ، فإن تاب وعاد قبل انقضائها لم يكن عليه إثم ، وإن أتمها تعين عليه أحد أمرين : الفيئة والرجوع إلى المعاشرة الزوجية أو الطلاق ، وعليه أن يراقب الله تعالى فيما يختاره منهما ، فإن لم يطلق هو بالقول كان مطلقا بالفعل ، أي أنها تطلق منه بعد انتهاء المدة رغم أنفه منعا للضرار ، وقيل ترفع أمرها إلى الحاكم فيطلق عليه ، والمسألة خلافية في هذا ، ولكن لا خلاف في عدم جواز بقائها على عصمته وعدم إباحة مضارعتها .

﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ المراد بالمطلقات الأزواج اللواتي تحقق فيهن معنى الزوجية وعهدن أن يكن مطلقات وأن يتزوجن بعد الطلاق ، وهن الحرائر ذوات الحيض بقريئة السباق ، ومعنى التربص مدة ثلاثة قروء هو أن لا تتزوج المطلقة حتى يمر عليها ثلاثة قروء ، وهي جمع قروء ، ويطلق في اللغة على حيض المرأة

وعلى طهرها منه ، والأصل فيه الانتقال من الطهر إلى الحيض ، والمقصود من هذا التبرص العلم ببراءة الرحم من الزوج السابق ، وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاثة أطهار ، ومن النادر أن يستمر الحيض إلى آخر الحمل ، فكل من القولين موافق

لحكمة الشرع في المسألة ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ أمر تعالى بأن تعتد المرأة بعد فراق زوجها ليظهر أنها بريئة من الحمل ، ونهى أن تكتمن الحمل إذا علمت به ، واختار كثير من المفسرين أن خلق الله في أرحامهن يشمل الولد والحيض ، وهو المروى عن ابن عمر ، فقد تكتمت المرأة حيضها لتطيل أجل عدتها وذلك محرم

﴿إن كنَّ يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ وهذا وعيد شديد ، كأنه يقول إذا كن يعرفن من أنفسهن الإيمان بالله الذي أنزل الحلال والحرام لمصلحة الناس ، وباليوم الآخر الذي يكون فيه الجزاء بالقسطاس ، فلا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ، وإلا كن غير مؤمنات بما أنزل الله تعالى من هذه الأحكام ، وجعل في اتباعها المشوبة والرضوان وفي تركها الشقاء والخسران

﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا﴾ أى يكون بعل المرأة أى زوجها أحق بها في مدة العدة إذا قصد إصلاح ذات البين وحسن المعاشرة ، أما إذا قصد مضارتها ومنعها من التزوج بعد العدة حتى تكون كالمعلقة - لا يعاشرها معاشره الأزواج بالحسنى ، ولا يمكنها من التزوج - فهو آثم بينه وبين الله تعالى . والطلاق الذى تحل فيه الرجعة قبل انقضاء العدة يسمى طلاقا رجعيا ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة﴾ وهذه الآية قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية

للرجل في جميع الحقوق إلا أمرا واحدا عبر عنه بقوله ﴿ولللرجال عليهن درجة﴾ ، وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها ، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة ، وأنهما أكفأ ، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها - إن لم يكن مثله في شخصه فهو مثله في جنسه - فهما متماثلان في الحقوق والأعمال ، كما أنهما متماثلان في الذات والإحساس والشعور والعقل ، أى أن كلا منهما بشر تام له عقل يتفكر في مصالحه وقلب يحب ما يلائمه ويسر به ويكره ما لا يلائمه ويتنفر منه ، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذ عبدا يستذله ويستخدمه

في مصالحه ، لاسيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة التي لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه .

وخاطب الله تعالى النساء بالايان والمعرفة والأعمال الصالحة في العبادات والمعاملات كما خاطب الرجال ، وجعل لمن عليهم مثل ما جعله لهم عليهم ، وقرن أسماءهن بأسمائهم في آيات كثيرة ، وبابع النبي ﷺ المؤمنات كما بابع المؤمنين ، وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة كما أمرهم ، وأجمعت الأمة على ما مضى به الكتاب والسنة من أنهن مجزيات على أعمالهن في الدنيا والآخرة .

والآية تدل على اعتبار العرف في حقوق كل من الزوجين على الآخر ما لم يحلَّ العرف حراما أو يحرم حلالا مما عرف بالنصر ، والعرف يختلف باختلاف الناس والأزمنة .

(وللرجال عليهن درجة) فهو يوجب على المرأة شيئا وعلى الرجل أشياء . ذلك أن هذه الدرجة هي درجة الرياسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فالحياة الزوجية حياة اجتماعية ، ولا بد لكل اجتماع من رئيس يرجع إلى رأيه في الخلاف ، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ بقوته وماله ، ومن ثم كان هو المطالب شرعا بحماية المرأة والنفقة عليها ، وكانت هي مطالبة بطاعته في المعروف ، فإن نشزت عن طاعته كان له تأديبها بالوعظ والهجر والضرب غير المبرح إن تعين تأديبها ، ويجوز ذلك لرئيس البيت لأجل مصلحة العشيرة وحسن العشرة كما يجوز مثله لرئيس الأمة أو الخليفة أو السلطان لأجل مصلحة الجماعة ، وأما الاعتداء على النساء لأجل التحكم والتشفي أو شفاء الغيظ فهو من الظلم الذي لا يجوز بحال .

(والله عزيز حكيم) فكأن من لا يرضى بهذه الأحكام الحكيمة يكون منازعا لله تعالى في عزة سلطانه ، ومنكرا لحكمته في أحكامه ، فهي تتضمن الوعيد على المخالفة

الطَّلَقُ مَرَّتَيْنِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا

مَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يَبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَبْلُغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)

التفسير

(الطلاق مرتان) الطلاق هو عبارة عن مفارقة المرأة المدخول بها، ويحل الرجل عقدة الزوجية التي تربطه بها، وحده الله الذي حدده للطلاق ولم يخرج به العصمة من أيدي الرجال هو مرتان - أي طلقتان - وعبر بالمرتين ليفيد أن الطلقتين تكون كل منهما مرة تحمل بها العصمة ثم تبرم، لأنهما يكونان بلفظ واحد - إن شاء الطلاق ثلاثا بالقول ليس في قدرة الرجل إيقاعه مرة واحدة - ذلك أن الأمور العملية لا تتكرر بتكرار القول المعبر عنها، بل ولا القولية، فمن فسخ العقد مرة وعبر عنها بقوله ثلاثا فهو كاذب - ولو صح ذلك لصح أن يقال الواحد ثلاثة والثلاثة واحد - ومن سفه نفسه وجاء بهذا فقد خرج عن السنة واستحق التأديب، فقد ورد في الحديث

الصحيح : أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا فقام غضبان ثم قال : أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ ، حتى قام رجل فقال يا رسول الله أقتله ؟ ولم يكن طلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر إلا واحدة فلما كان عهد عمر تتابع الناس في الطلاق فأجازه عليهم وكان تأديبا لهم على مخالفة ما شرعه الله في الطلاق من كونه يوقع المرة بعد المرة ليرجعوا إلى السنة ، وإن المصلحة الآن تقضى بالرجوع إلى الكتاب وما قضت به السنة في عهد النبي ﷺ والخليفة الأول فرارا من مفسد التحليل التي هي من أكبر العار على المسلمين على أنها مخالفة لدينهم

(فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان) فيه وجهان : أحدهما معناه قالوا يجب عليكم إما امسك للمرأة مع المعاشرة بالمعروف وإما تسريحها بامضاء الطلاق مع الاحسان إليها واتقاء إهانتها والاساءة إليها . والوجه الثاني أنه ليس لكم بعد المرتين إلا أحد الأمرين : الامسك بالمعروف ، أو التسريح - أي الطلاق - بالاحسان . ويؤيده حديث أبي رزين الأسدي عند أبي داود وغيره أنه سأل النبي ﷺ سمعت الله يقول (الطلاق مرتان) فأين الثالثة ؟ فقال ﷺ : أو تسريح بإحسان . وعلى هذا يكون قوله (فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) في الآية الآتية بمعنى فان اختار الأمر الثاني وهو التسريح فطلقها بانتهائه ولا تحل له الخ ماسياقي مع حكمته ، لا أنه دليل على طلقة رابعة .

(ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا) ويدخل في ذلك المهر وغيره مما يعطيه الرجل امرأته على سبيل التملك ، بل يجب أن يتمتعها بشيء من ماله (فتعوهن وسرحوهن) ومحل هذا الحكم إذا كان الزوج هو الذي اختار فراق المرأة ورغب عنها ، وأما إذا كانت هي الراغبة عنه المطالبة لفراقه وخيف أن تتوسل إليه بالشوز وسوء العشرة - لكرهتها إياه ولسوء خلقها لا لمضارته لها - فلا جناح عليهما حينئذ فيما يأخذ منها لا طلاق سراحها إذ لا يكلف خسارة امرأته وماله بغير ذنب ، ولذلك قال الله تعالى (إلا أن يخاف أن لا يقيما حدود الله) التي حددها للزوجين من حسن المعاشرة والمائلة في الحقوق مع ولاية الرجل والتعاون على القيام بأمر المنزل وتربية الأولاد وعدم المضارة (فان خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به) لا جناح عليهما - أي لا حرج عليهما - فيما تعطيه إياه ليخلعها ، لأن طلبها الطلاق

إنما يحظر لغير هذا العذر ، ولا جناح عليه فيما يأخذ لأجل ذلك لأنه برضاها واختيارها في غير ما إكراه منه ولا مضارة . ويتجلى هذا بعرض حالات الزوجين الثلاث على العقل والعدل ، فهما إن أقاما حدود الله تعالى بحسن المعاشرة وأداء كل منهما حق الآخر - إلا ما كان من شذوذ يتسامح فيه عادة فلا خوف ولا فراق ، وإن عرض لها ما يمنع إقامتها فلا بد أن يكون العارض المانع من قبل أحدهما أو كليهما ، فإن كان من قبل الرجل بأن أبغض المرأة أو فتن بغيرها وأحب فراقها بغير ذنب منها أوجب ذلك وخاف أن لا يعاملها بما يجب من المعروف وأن تقابله بمثل ذلك فله أن يسرحها بأحسن ، لأن عقدة الزوجية بيده وليس له أن يأخذ بما كان أعطاها شيئا بالنص ، وإن كان طلب الطلاق من قبلها كأن أبغضته بغضا لا تستطيع الصبر عليه والقيام معه بحقوق الزوجية وخافت أن تقع في الشوز ويسرف هو في العقوبة فمن العدل أن تعطيه ما كانت أخذت منه باسم الزوجية ليحل عقدتها فلا يخسر ماله وزوجته عملا بالرخصة في الآية

﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ أي هذه الأوامر والنواهي هي حدود الله

للمعاملة الزوجية فلا تتجاوزوها بالخلافه ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ الذين صار الظلم وصفا لهم متمكننا من أنفسهم ، والظلم آفة العمران ومهلك الأمم ، والظالم هو الذي فعل ما ليس له فعله ووضع الشيء في غير موضعه

﴿ فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ﴾ أي فان طلقها بعد المرتين طليقة فالثالثة فلا يملك مراجعتها بعد ذلك إلا إذا تزوجت بأخر زواجا صحيحا مقصودا حصل به ما يراد بالزواج من الغشيان . وقال المفسرون والفقهاء في حكمة ذلك أنه إذا علم الرجل أن المرأة لا تحل له بعد أن يطلقها ثلاث مرات إلا إذا نكحت زوجا غيره فانه يرتدع لأنه مما تاباه غيره الرجال وشهامتهم ، لاسيما إذا كان الزوج

الآخر عدوا مناظرا للاول ﴿ فان طلقها ﴾ الزوج الثاني ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ أي لا إثم على الزوج الثاني والمرأة ﴿ أن يتراجعا ﴾ وحكمته بعد قوله تعالى ﴿ وبعولتهن أحق بردهن ﴾ وهي إزالة وهم من يتوهم أن الزوج الاول يكون أحق بها ، وعلى كلا القولين لا بد في التراجع من مراعاة شرطه وهو قوله تعالى ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود

الله ﴿ فلا بد من حسن القصد وسلامة النية من كل من الزوجين لأن الله ما وضع هذه الحدود للزوجين إلا ليصلح حالهما ويستقيم عملهما ، فإن كانت هناك نية سوء فإن هذا التراجع لا قيمة له عند الله تعالى : وإن صح عند القاضي أو المفق عملا بالظاهر ﴾ وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾ أى يبينها فى كتابه لأهل العلم بفائدتها وما فيها من المصلحة ومن علم المصلحة فى شيء كان مندفعاً بطبعه الى العمل به واقامته على الوجه الذى يتحقق به الفائدة منه ، ومن تزوج بامرأة مطلقة ثلاثاً بقصد إحلالها للأول كان زواجه غير صحيح ، بل هو معصية لعن الشارع فاعلمها ، وهو لا يلعب من فعل فعلاً مشروعاً ، ولا تحمل به المرأة للأول فإن عادت اليه كانت حراماً ، ومثال ذلك من طهر الدم بالبول وهو رجس على رجس ، وقد جاء فى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال « ألا أخبركم بالتيس المستعار ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال « هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له ، وسئل عليه الصلاة والسلام عن المحلل فقال « لا ، إلا نكاح رغبة ، لا دلسة ولا استهزاء بكتاب الله عز وجل ، ثم تذوق العسيلة ، وجاء فى الآثو عن عمر رضى الله عنه أنه قال : لا أوتى بمحلل ولا محال له إلا رجتهما ، فسئل ابنه عن ذلك فقال : كلاهما زان

﴿ وإن طلقت النساء فبلغن أجلهن ﴾ هو زمن العدة ، ومعنى « بلغن أجلهن » قاربن تمام العدة وهو مبنى على قاعدة ما قارب الشيء يعطى حكمه تجوزاً ، يقول المسافر : بلغنا البلد ، أو وصلنا ، إذا دنا منه وشارفه . وقوله ﴿ فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾ معناه فاعزموا أحد الأمرين : امسك المرأة بالمراجعة ، أو اطلاق سبيلها . ولكن ما تختارونه من أحد الأمرين بالمعروف الذى شرع لكم فى آية الطلاق مرتان ﴿ ولا تمسكوهن ضراً لتتعدوا ﴾ أى ولا تراجعوهن إرادة مضارتهن وإيذائهن للاعتداء عليهن بتعمد ذلك . والضرار بمعنى الضرر ﴿ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ فى الدنيا بساؤك طريق الشر والاعتداء التى لا راحة لضمير صاحبها ، ويجعل المرأة وعصبتها أعداء له يناصبونه ويناثونونه ، والعدو القريب أقدر على الإيذاء من العدو البعيد ، ويتغير الناس منه حتى يوشك أن لا يصابه أحد

وظلها في الاخرى أيضا بما خالف أمر الله وتعرض لسخطه وعقابه ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾ والمعنى لا تتهاونوا بحدود الله تعالى التي شرعها لكم في آية جريا على سنن الجاهلية ، فان هذا التهاون والاعتداء للحدود - بعد هذا البيان والتأكيد من الله تعالى - يعد استهزاء بآياته

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ ان جمهور المفسرين فسروا نعمة الله هنا بالدين أو الرسالة ، وجعلوا قوله : ﴿ وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ﴾ تفصيلا للنعمة المجملة . ذكرنا سبحانه أولا بنعمته علينا في أنفسنا بتمكين صلة الزوجية واحترامها وتوثيقها للمحافظة عليها ، وثانيا بهذا الدين القويم الذي هدانا إلى ذلك وحدد لنا كتابه الحدود ووضع الأحكام ، مبينا حكمها وأسرارها ، كي نجعله إماما وواعظا لنا في تقويم الفطرة على ما مضت به السنة وعززته الحكمة . وذهب بعضهم إلى ان النعمة هنا عامة تشتمل نعم الدنيا والدين .

ثم ختم الآية بقوله ﴿ واتقوا الله ﴾ بامثال امره ونهيه زيادة في العناية بأمر النساء وصلة الزوجية ، ﴿ واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ ، لا يخفى عليه شيء مما يسره العبد أو يعلنه ، فلا يرضيه إلا التزام حدوده والعمل بأحكامه ، على الاخلاص وحسن النية ، حتى يكون ظاهره كباطنه في الخير ، فانه عالم ومطلع عليه ، ولا يرضى منه إلا بتطهير قلبه وإخلاص نيته في معاملة زوجه وسائر المعاملات . وان منشأ فساد البيوت وشقاء المعيشة هو الإعراض عن هدى كتاب الله المبين ، ولا سبيل الى السعادة إلا بالرجوع اليه .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرْضَوْنَ بِبَيْنِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ ، ذَلِكَ يُعْظَىٰ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) وَالْوَالِدَتُ يُرْضَعْنَ

أَوْلَدُهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعُهَا لَا تُضَارُّ وَلَدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزْعِمُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا مَاتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)

التفسير

﴿ وَإِذَا طَلَقْتِ الْمَرْأَةَ فَبَلِّغِي أَجَلَهُنَّ ﴾ المراد ببلوغ الأجل انقضاء العدة لا قربه كما في الآية التي قبلها . وقال المفسرون إن الرجال المطلقين كانوا يفعلون ذلك يتحكم الرجل بمطلقاته فيمنعها أن تتزوج غيره أنفة وكبراً أن يرى امرأته تحت غيره ، فكان يصد عنها الأزواج بضروب من الصد والمنع ، كما كان يراجعها في آخر العدة لأجل العضل ، وقد أثبت الإسلام الولاية للأقربين ، وحرّم العضل وهو المنع من الزواج وأن يزوج الولي المرأة بدون إذنتها لجمع بين المصلحتين .

﴿ فَلَا تَعْضِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ العضل الحبس ، وقيل هو مأخوذ من المنع وقيل هو مأخوذ من الضيق والشدة . وعضل المرأة يعضلها عضلاً إذا منعها من التزويج ظلماً ، كأنه يقول : يا أيها الذين آمنوا إذا وقع منكم تطليق للنساء وانقضت عدتهن وأراد أزواجهن أو غيرهم أن ينكحوهن وأردن هن ذلك فلا تعضلوهن أن

يُنكِحَنِ ، أَى لَا تَتَمَعُوهُنَ مِنَ الزَّوْجِ . وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ حَظَّهُ مِنَ الْخُطَابِ لِلْمَجْمُوعِ ﴿ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بِأَنْ رَضِيَ كُلُّ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ بِالْآخِرِ زَوْجاً بِالْمَعْرُوفِ ، أَى بِمَا لَا يَكُونُ مُسْتَفْكَراً فِي عَادَةٍ وَلَا خُلُقٍ وَلَا عَقْلٍ . وَقَوْلُهُ « بَيْنَهُمْ » يَشْعُرُ بِأَنْ لَا نَفَرَ فِي أَنْ يَخْطُبَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ إِلَى نَفْسِهَا وَيَتَّفِقَ مَعَهَا عَلَى التَّزْوِجِ بِهَا ، وَيَحْرَمُ حِينَئِذٍ عَضْلُهَا أَى امْتِنَاعُ الْوَلِيِّ أَنْ يَزَوِّجَهَا مِنْهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ التَّرَاضَى فِي الْخُطْبَةِ بِالْمَعْرُوفِ شَرْعاً وَعَادَةً ، بِأَنْ لَا يَكُونُ هُنَاكَ مُحْرَمٌ وَلَا شَيْءٌ يَحْجُلُ بِالْمَرْوَةِ وَيُلْحِقُ الْعَارَ بِالْمَرْأَةِ وَأَهْلِهَا . وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْفُقَهَاءُ بِهَذَا عَلَى أَنَّ الْعَضْلَ مِنْ غَيْرِ الْكَفِّ غَيْرُ مُحْرَمٍ ، كَأَنْ تَرِيدَ الشَّرِيفَةُ فِي قَوْمِهَا أَنْ تَزَوِّجَ بِرَجُلٍ خَسِيسٍ يُلْحِقُهَا مِنْهُ الْفَضَاضَةَ وَيَمَسُّ مَا لِقَوْمِهَا مِنَ الشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ تَصْرِفَ عَنْهُ بِالْوَعْظِ وَالنَّصِيحَةِ ﴿ ذَلِكَ يَوْعُظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أَى ذَلِكَ الَّذِي تَقْدِمُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْحُدُودِ الْمَقْرُونَةِ بِالْحُكْمِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ يَوْعُظُ بِهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ فِي الْآخِرَةِ ﴿ ذَلِكَمُ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ الزَّكَاةُ النِّمَاءُ وَالْبَرَكَةُ فِي الشَّيْءِ ، وَاتِّبَاعُ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ فِي مَنَعَ عَضْلِ النِّسَاءِ ، وَفِي مُعَامَلَتِنِ بِالْمَعْرُوفِ فِي كُلِّ حَالٍ مَزِيدٌ فِي نِمَاءٍ مُتَّبِعِيهِ وَصَلَاحٍ حَالِهِمْ وَأَطْهَرُ لِأَعْرَاضِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ وَأَحْفَظُ لِشَرَفِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ ، لِأَنَّ عَضْلَ النِّسَاءِ وَالتَّضْيِيقَ عَلَيْهِنَ مَدْعَاةٌ لِفُسُوقِهِنَّ ، وَمُفْسَدَةٌ لِأَخْلَاقِهِنَّ ، وَسَبَبٌ لِفُسَادِ الْبَيُوتِ ، وَشَقَاءُ الذَّرَارِيِّ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِيهِ النِّفْعُ وَالصَّلَاحُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ لِقُصُورِ عِلْمِكُمْ .

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ أَى عَلَى جَمِيعِ الْوَالِدَاتِ مَطْلَقَاتُ كُنَّ أَوْ غَيْرَ مَطْلَقَاتُ أَنْ يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ مَدَّةَ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لَا زِيَادَةَ عَلَيْهِمَا ، وَقَدْ تَنَقَّصَ الْمَدَّةُ إِذَا رَأَى الْوَالِدَاتُ أَنَّ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةً ، وَالْأَمْرُ مُوَكَّوْلٌ إِلَى اجْتِهَادِهِمَا ، ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَى عَلَى الْوَالِدِ كِفَايَةُ الْمَرْضِعِ مِنْ طَعَامٍ وَكِسْوَةٍ لِتَقْوَمَ بِخِدْمَتِهِ كَمَا يَجِبُ وَتُرْعَاهُ حَقُّ الرِّعَايَةِ بِالْمَعْرُوفِ ، يَفْسِرُهُ مَا يَعْقِبُهُ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وَالْمَعْنَى أَنَّ الْمَطْلُوبَ التَّوَسُّعَ فِي النِّفْقَةِ مِنَ السَّعَةِ أَى بِحَيْثُ لَا يَنْتَهِي إِلَى ضَيْقٍ كَمَا قَالَ

تعالى ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴾ . ﴿ لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ﴾ وهذا أمر يمنع الضرار باعطاء كل ذي حق حقه بالمعروف وهو يتناول تحریم كل ما يأتي من أحد الوالدين بالإضرار بالآخر ، كأن تقصر الأم في تربية الولد البدنية أو النفسية لتغيظ الرجل ، وكأن يمنعه هو من أمه ولو بعد مدة الرضاع أو الحضانه ، والعبارة نهى عام عن المضارة بسبب الولد ، لا تقييد ولا تخصيص بوقت دون وقت أو حال دون حال أو شخص دون شخص ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ أي على وارث الصبي وهو قريبه الذي لا يجوز له أن يتزوج على تقدير أن يكون أحدهما ذكرا والثاني أنثى مثل ما وجب على الأب من الرزق أو الكسوة وأجرة الرضاع . وقيل المراد بالوارث وارث الصبي من الوالدين ، أي إذا مات أحد الوالدين فيجب على الآخر ما كان يجب عليه من إرضاعه والنفقة عليه ﴿ فان أرادا فصلا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ أي للوالدين صاحبي الحق المشترك في الولد والغيرة الصحيحة عليه أن يقطعا قبل هذه المدة أو بعدها إذا اتفق رأيهما على ذلك بعد التشاور فيه بحيث يكونان راضيين غير مضارين فيه ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف ﴾ أي وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم المراضع الأجنبية فلا ضير في ذلك إذا أعطيتنهن الأجور المتعارفة لأمثالهن ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ في المحافظة على ما شرع لكم في أجر الأطفال والمراضع فهو يحصى لكم عملكم ويجازيكم عليه ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ يتوفون أي يتوفاهم الله تعالى بأن يقبض أرواحهم ويميتهم ، ويذرون أي يتركون . والمعنى أن عدة النساء اللاتي يموت أزواجهن أربعة أشهر وعشرة أيام ، لا يتعرضن فيها للزواج بزينة ولا خروج من المنزل إلا للأعذار المبيحة لذلك ، ولا يواعدن الرجال بالزواج اهتماما بحقوق الزوجية وتعظيما لشأنها . وقد حرمت السنة الحداد على غير الزوج أكثر من ثلاثة أيام ، وهذا خاص بغير الحوامل فان الحامل التي يموت

ووجها تنقضي عدتها بوضع الحمل ولو بعد الموت بساعة كما قال تعالى ﴿ وأولات
الاحمال أجعلن أن يضعن حملهن ﴾ سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن ﴿ فاذا
بلغن أجلهن ﴾ أى أتمن عدتهن ﴿ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف ﴾
عما كان محظورا عليهن فى العدة من التزين والتعرض للخطاب والخروج من المنزل ،
وقيد ذلك بالمعروف أى شرعا وادبا عرفيا ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ لا يخفى عليه
شىء من اعمالكم .

ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو اكنتم في أنفسكم ، علم
الله انكم ستذكروهن ولكن لا توا عدوهن سرا إلا ان تقولوا قولا معروفا .
ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا ان الله يعلم ما في
أنفسكم فاحذروه واعلموا ان الله غفور حلیم (٢٣٥) لا جناح عليكم إن طلقتم
النساء ما لم تمسوهن أو تقرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى
المقتدر قدره متعا بالمعروف حقا على المحسنين (٢٣٦)

التفسير

﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو اكنتم في أنفسكم ﴾
أى لا إثم ولا حرج على الرجل أن يعرض للمرأة ويلوح لها فى أثناء عدة الزواج أو
عدة الطلاق البائن بأمر الزواج . وللناس فى كل عصر كسايات يستعملونها فى مثل
هذا . كذلك لا حرج عليه فيما يكتبه فى نفسه ويعزم عليه من الزواج بها بعد انتهاء
أجل العدة ، لأن مثل هذا مما يتعسر الاحتراز منه . ومن ثم ذكره الله تعالى على

وجه الترخيص بقوله ﴿ علم الله أنكم ستذكرونهن ﴾ في أنفسكم ويشق عليكم أن تكتموا رغبتكم وتصرون على أن تبوحوا لهن بما انطوت عليه جوا نحركم ومن ثم رخص لكم في التعريض دون التصريح ﴿ ولكن لا تواعدوهن سرا ﴾ أى ولكن لا تواعدوهن على السر لأن هذا مدعاة للفتنة ومظنة للقليل والقال . وذهب جمهور العلماء إلى أن السر هنا يراد به النكاح ، أى لا تتعدوا معهن وعدا صريحا على الزوج بهن ﴿ إلا أن تقولوا قولوا معروفا ﴾ أى واعدوهن بقول معروف لا يستجيبا منه في الجهر كذكر حسن العشرة وسعة الصدر للزوجات ونحو ذلك . والخلاصة أن الزوج بالمرأة في العدة محرم قطعاً ، بل الخطبة فيها محرمة والعقد فيها باطل باجماع المسلمين ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ أى أن الله يعلم ما تضمنزونه في قلوبكم على العزم بما لا يجوز فاحذروا أن تعزموا على ما حظر عليكم من قول أو فعل ﴿ واعلموا أن الله غفور حلیم ﴾ بين تعالى أن للانسان مخرجا بالتوبة اذا هو تعدى شيئا من الحدود وأراد الرجوع الى الله تعالى فانه غفور حلیم لا يعجل بعقوبته بل يمهله ليصلح بأعماله ما أفسده .

﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ﴾ المراد بالجناح هنا التبعة من المهر ونحوه ، أى لا يلزمكم شيء من المهر وغيره عند طلاقكم للنساء قبل الدخول بهن إلا إذا سميت لهن مهرا ، فان حصل المساس فعليه تمام المسمى في حال التسمية . أو مهر مثلها إن لم يسم لها مهرا ، وفي حال الطلاق قبل المسيس مع الفرض عليه نصف ما فرض وسمى .

﴿ ومتعهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ أى وأعطوا المطلقات شيئا من مالكم يتمتعن به على حسب حالكم في الثروة والغنى ، إلا أن الشارع حسب بسط الكف والسخاء للطلقة تطيبها لنفسها وعوضا عما لحقها من الضرر ﴿ متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ﴾ أى وجعل هذه المتعة حقا واجبا على من يريد الاحسان في معاملة المرأة بما يتعارفه الناس بينهم .

هذه المتعة واجبة للمطلقة قبل الدخول ولم يسم لها مهر وهي المذكورة في الآية
ومستحبة لسائر المطلقات

كأن المعنى إن كنتم مؤمنين بالله محسنين في طاعته فعليكم أن تجعلوا هذا المتاع
لائقا مؤديا إلى الغرض ، لأن في الطلاق غضاضة وإيهاما بأن الزوج ما طلقها إلا وقد
رأبه شيء فيها ، وإذا متعها متاعا حسنا تزول هذه الغضاضة ويكون هذا المتاع الحسن
بمنزلة الشهادة بنزاهتها والاعتراف بأن الطلاق كان من فعله أى اعذر يختص به ، والله
أمرنا أن نحافظ على الأعراض بقدر الطاقة .

وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفْ مَا فَرَضْتُمْ
إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدُهُ الزَّكَاحَ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا
تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ
وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قِيعِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا
أَمْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ
وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)
وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَعَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

التفسير — ير

﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفْ مَا فَرَضْتُمْ﴾

أى وإن حصل الطلاق قبل المسيس وقد سمي له مهر فلهن نصف المسمى المفروض ويرجع الى الزوج النصف الثانى ﴿إلا أن يعفون﴾ أى النساء المطلقات ﴿أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح﴾ وهو الولى مطلقا وعليه جماعة من المفسرين ، وقال كثير منهم : إن الذى بيده عقدة النكاح الزوج الذى بيده حلها ، ويستحب له العفو والسماح بكل ما كان قد أعطى وإن كان الواجب المحتم فيه نصفه ، فذلك تمهيد لقوله ﴿وان تعفوا اقرب للتعوى﴾ والخطاب على هذا خاص بالرجال ، وفيه وجه آخر أنه عام للنساء والرجال ، أى من عفا فهو المتقى ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ فسروا الفضل بالتفضل والأحسان ، وجعلوه للترغيب فى العفو . وقيل المراد به المودة والصلة ، أى ينبغى لمن تزوج من بيت ثم طلق أن لا ينسى مودة أهل ذلك البيت وصلاتهم ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ يرى عملكم فلا يخفى عليه شئ من أمركم فيجزىكم به الجزاء الأوفى على إحسانكم أو قصوركم

﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى﴾ أى اجتهدوا فى حفظها والمداومة عليها وحفظ الصلاة المرة بعد المرة على الاستمرار عبارة عن الإتيان بها كل مرة كاملة الشرائط والأركان العملية كاملة الآداب والمعانى القلبية . فالشئ الذى يتعاهد بالحفظ دائما هو الذى لا يلحقه النقص ، وإلا لم يكن محفوظا دائما والصلوة الوسطى هى احدى الخمس ، وقد اختلفوا فى أى الصلوات أفضل ، وأيتها المتوسطة ، وأصحها رواية مذهب الية الجمهور من كونها صلاة العصر

﴿وقوموا لله قانتين﴾ أى قوموا ملتزمين الخشية لله تعالى واستشعار هيئته وعظمته ، وهذا يتوقف على التفرغ من كل فكر وعمل يشغل عن حضور القلب فى الصلاة وخشوعه ، لما فيها من ذكر الله بقدر الطاقة . والمحافظة على الصلاة آية الايمان الكبرى ، والشرط فى صحة الإسلام والاخوة فى الدين وحفظ الحقوق . وقد ورد فى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ يقول «العهد بيننا وبينكم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر» ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة . وأثر الصلاة فى النفس اجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والامثال

لأوامر الله تعالى ، فلا يرى الانسان حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره ﴿ فان خفتهم
 فرجالا او ركبانا ﴾ أى إن خفتهم أى ضُر من قيامكم قانتين لله فصلوا كيف تيسر
 لكم راجلين أو راكبين ، فاذا تعذر بعض الأعمال البدنية فلا تسقط العبادة القلبية ،
 وهى الإقبال على الله مع الإشارة إلى تلك الأعمال بقدر المستطاع ، ويكون ذلك
 حين قتال العدو أو الفرار من أسد أو سبيل أو نحو ذلك ، فيصلى المكلف راجلا أو
 راكباً إن حان وقت الصلاة ، لا يمنع من ذلك الكرواقر والطن والضرب ، ويأتى
 من أقوال الصلاة وأفعالها بما يستطاع ، ويوىء بالركوع والسجود ولا يلتزم التوجه
 للقبلة ﴿ فاذا أمنتهم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أى فان زال خوفكم
 واطمأنتم فاذكروا الله لأنه علمكم كيف تعبدونه وتصلون له حين الأمن وحين الخوف ،
 وذلك ما لم تكونوا علمين به من قبل

﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً الى الحول
 غير إخراج ﴾ أى والذين يتوفون منكم ويتركون زوجات بعدهم فليوصوا لهن
 بوصية ، وليتعهوهن متاعاً الى آخر الحول ، غير مخرجات من بيوتهن ، فلا يمنع
 السكنى فيها والمراد أن على الأزواج أن يوصوا قبل نزول الموت بهم لأزواجهم بشئ من
 المال ينفقنه مدة الحول ، ولا يخرجن من البيوت سنة كاملة تمر فيها الفصول الأربعة التى
 يتذكرن أزواجهن فيها . وهذا أمر نذير واستحسان لأمر وجوب وإلزام تهاون فيه
 الناس كما تهاونوا فى كثير من المندوبات ﴿ فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى
 أنفسهن من معروف ﴾ أى فان خرجن من تلقاء أنفسهن فلا إثم عليكم أيها المخاطبون
 بالوصية فيما فعلن فى أنفسهن من المعروف شرعاً وعادة ، كالتعرض للخطاب بعد العدة
 أو التزوج ، إذ لا ولاية لكم عليهن ، فهن حرائر لا يمنعن إلا من المنكر الذى يمنع منه
 المكلف ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ أى والله عزيز غالب على أمره يعاقب من خالفه ،
 حكيم يراعى فى أحكامه مصالح عباده ﴿ وللبطقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾
 أى وشرعت المتعة لكل مطلقة على سبيل الوجوب اذا كانت غير مدخول بها ، وعلى
 سبيل الاستحسان لغيرها ، والذى يفعل ذلك من أشرب قلبه تقوى الله والخوف

من عقابه ، فهو الذى يهود بالمال تطيباً للقلوب وإزالة للضغائن ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ أى مضت سنته تعالى بأن يبين لكم آياته فى أحكام دينه مثل هذا النحو من البيان ، وهو أن يذكر الحكم وفائدته ويقرنه بذكر الله والموعظة الحسنة التى تعين على العمل به ليعتدكم بذلك لسكال العقل بتحرى الاستفادة من كل عمل فعليكم أن تعقلوا ماتخاطبون به لتسكنوا على بصيرة من دينكم ، عارفين بانطباق أحكامه على مصالحكم بما فيها من تزكية نفوسكم والتأليف بين قلوبكم ، فتكونوا حقيقيين بإقامتها والمحافظة عليها

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرجعون (٢٤٥)

التفسير

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ المعنى : ألم ينته علك إلى حال هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم ، لامن قتلهم ، فقد كانوا ألوفا أى كثيرين ، وإنما هو الحذر من الموت الذى يولده الجبن فى أنفس الجبناء فيريهم أن الفرار من القتال هو الواقع من الموت ، وما هو إلا سبب الموت بما يمكن من رقاب أهله . ولما خرجوا فارسين ﴿ قال لهم الله موتوا ﴾ أى أماتهم بامكان العدو منهم ، فالأمر أمر التكوين لأمر التشريع ، أى قضت سنته فى خلقه بأن يموتوا

بما أتوه من سبب الموت، وهو تمكين العدو المحارب من أقفائهم بالفرار، ففنتك بهم، وقتل أكثرهم، ولم يصرح بأنهم ماتوا لأن أمر التكوين عبارة عن مشيئته سبحانه فلا يمكن تخلفه والاستغناء عن التصريح بقوله بعد ذلك ﴿ثم أحياهم﴾ وإنما يكون الأحياء بعد الموت. والكلام في القوم لافي أفراد لهم خصوصية، لأن المراد بيان سنته تعالى في الأمم التي تجنب فلا تدافع العادين عليها، فعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لاتعد أمة، بأن تفرق شملها وذبيت جامعتها، فكان من بقي من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم مدغمين في غمهم لا وجود لهم في أنفسهم وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم. ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم، ذلك أن من رحمة الله تعالى في البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديباً لهم ومطهرراً لنفوسهم بما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة. أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم ووثقوا رابطتهم حتى عادت لهم وحدتهم قوية، فاعتزوا وكثروا، إلى أن خرجوا من ذل العبودية التي كانوا فيها إلى عز الاستقلال، فهذا معنى حياة الأمم وموتها: يموت قوم منهم باحتال الظلم ويذل الآخرون حتى كأنهم أموات، إذ لا تصدر عنهم أعمال الأمم الحية من حفظ سياج الوحدة وحماية البيضة بتكافل أفراد الأمة ومنعتهم، فيعتبر الباقيون فينهضون إلى تدارك مافات والاستعداد لما هو آت، ويتعلمون من فعل عدوهم بهم كيف يدفعون عنهم. قال على كرم الله وجهه إن بقية السيف هي الباقية التي يحيا بها الميتون، فالموت والأحياء واقعان على القوم في مجموعهم على ما عهدنا في أسلوب القرآن ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ والمراد بالفضل هنا الفضل العام وهو أنه تعالى جعل إمامة الناس بما يسلط على الأمة من الأعداء يتكلمون بها بمثابة هدم البناء القديم المتداعي والضرورة قاضية ببناء، فلا جرم تنبعث الهمة إلى هذا البناء الجديد فتكون حياة جديدة للأمة. تفسد الأخلاق في الأمم فسوء الأعمال فيسلط الله على فاسدى الأخلاق التكبكات ليتأدب الباقي منهم فيجهدوا في إزالة الفساد وإزالة الصلاح، ويكون ما هلك من الأمة بمثابة العضو الفاسد المصاب بالغرغرينا يتره الطبيب ليسلم الجسد كله ومن لا يقبل هذا التأديب الإلهي فإن عدل الله في الأرض يمحقه منها. ﴿ومال للظالمين من أنصار﴾ فهذه سنة من سنن الاجتماع بينها القرآن وكان الناس في

غفلة عنها ولهذا قال ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أى لا يقومون بحقوق هذه النعمة ولا يستفيدون من بيان هذه السنة ، أى هذا شأن أكثر الناس فى غفلتهم وجاهلهم بحكمة ربهم ، فلا تكونوا كذلك أيها المؤمنون . بل اعتبروا بما نزل عليكم وتأدبوا به لتستفيدوا من كل حوادث السكون حتى بما ينزل بكم من البلاء إذا وقع منكم تفريط فى بعض الشئون ، واعلموا أن الجبن عن مدافعة الأعداء أو تسليم الدار بالهزيمة والفرار هو الموت المحفوف بالخزي والعار ، وأن الحياة العزيزة الطيبة هى الحياة المليئة المحفوظة من عدوان المعتدين ، فلا تقصروا فى حماية جامعتكم فى الملة والدين والوطن

﴿وقاتلو فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ والقتال فى سبيل الله هو القتال لاعلاء كلمته وتأمين دينه ونشر دعوته والدفاع عن حربه كي لا يغلبوا على حقهم ولا يصدوا عن إظهار أمرهم ، فهو أعم من القتال لأجل الدين لأنه يشمل مع الدفاع عن الدين وحماية دعوته الدفاع عن الحوزة (الوطن) إذا هم الطامع باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا وأراد العدو الباغي إزلالنا والعدوان على استقلالنا ، ولو لم يكن ذلك لأجل قفنتنا فى ديننا ، فهذا الأمر مطلق كأنه أمر لنا بأن نتحلى بحمية الشجاعة ونسربل بسرايل القوة والعزة لتسكون حقوقنا محفوظة وحرمتنا مصونة لا تؤخذ من جانب ديننا ولا نقتال من جهة دنيانا ، بل نبقى أعزاء الجانبين جديرين بسعادة الدارين . ألم تر أن من ساق الله لنا العبرة بحالهم وذكرنا بسنته فى موتهم لم يذكر أنهم قوتلوا أو قتلوا لأجل الدين ، فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق كله جهاد فى سبيل الله .

ذكرنا الله تعالى بعد هذا الأمر بأنه سميع عليم لينبهنا على مراقبته فيما عسى أن نعتذر به عن أنفسنا فى تقصيرها عن امتثال هذا الأمر فى وقته ، وأخذ الأبهة له قبل الاضطرار إليه . أمرنا أن نعلم أنه سميع لأقوال الجبناء فى اعتذارهم عن أنفسهم : ماذا نفعل ، ما فى اليد حيلة ، ليس لها من دون الله كاشفه ، ليس لنا من الأمر شيء ، لو كان لنا من الأمر شيء ما قعدنا ههنا ! فهذه الألفاظ فى هذا المقام منفاخ الجبن وعلل الخوف والحزن ، فهى عند أهلها تعلات واعتذار ، وعند الله ذنوب وأوزار . وما كان منها حقاً فى نفسه فهو من الحق الذى أريد به الباطل ، وأنه عليم بما يأتيه مرضى القلوب وضعفاء الإيمان من الحيل والمراوغة والفرار من الاستعداد والمدافعة ، فإذا علمنا

هذا وحاسبنا به أنفسنا عرفنا أن كلا من المعتذر بلسانه والمتعل بفعاله مخادع لربه ولنفسه ولقومه .

« وكثير من الناس يهزأ بنفسه وهو لا يدري إذ يصدق ما يعتاده من التوهم ، وهذه شئنة الخذولين الذين ضربت عليهم الذلة وخيم عليهم الشقاء ، تعمل فيهم هذه الوسواس مالا تعمل الحقائق ، وقد أئذنا الله تعالى أن نكون مثلهم بتذكيرنا بأنه سميع عليم ، لا يخادع ولا يخفى عليه شئ . »

إن هذا التذكير كان بالامر بالعلم لا بمجرد القول أو التسليم ، فمن علم علما صحيحا أن الله سميع لما يقول عليم بما يفعل حاسب نفسه وناقشها ، ومن حاسب نفسه وناقشها تجلى له كل أن من تقصيرها ما يحمله على التشمير لتدارك ما فات ، والاستعداد لما هو آت فمن تراه مشمرا فاعلم أنه عالم ، ومن تراه مقصرا فاعلم أنه مغرور آثم ، (١)

(من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) إن الحث على الاتفاق في هذه الآية يراد به الاتفاق في المصلحة العامة ، وهو ينطبق على سائرها ، فإن القتال لحمايه الدين وتأمين دعوته والدفاع عن الأنفس والبلاد هو من سنن الله تعالى في الاجتماع البشرى ، فالانفاق يصح فيه أن يسمى إقراضا لله تعالى باعتبار إقامة سننه على وجه الحق الذي يرضيه جل شأنه ، أما كون القرض (حسنا) فالمراد به ما حل محله ووافق المصلحة ، لا ما وضع موضع الفخفة وقصد به الرياء والسمعة . نعم إن ما أنفق في المصالح العامة وإن أريد به الشهرة ولكنه لا يكون دالا على إيمان المنفق وثقته بربه وابتغاء مرضاته ، ولا على حب الخير لذاته لارتقاء نفسه وعلو همته بما استفاد من فضائل الدين وحسن التهذيب ، ويكون كل جزائه السمعة الحسنة ، فهجرته إلى ما جاز إليه (فيضا عفه له

أضعافا كثيرة) فهي تكون في الدنيا والآخرة ، وذلك أن المنفق لأعلاء كلمة الله ولتعزير الأمة وللدفاع عن الحق والحقيقة يكون مدافعا عن نفسه ومعزرا لها وحافظا لحقوقها ، لأن اعتداء المعتدين على الأمة إنما يكون بالاعتداء على أفرادها ، فضعف الأمة وإذلالها وضياع حقوقها لا يتحقق إلا بما يقع على أفرادها وهو منهم

والبلاء يكون عاما ، ثم الأمة التي يبذل أغنيائها المال وتقوم بفرصة التعاون على الأعمال فيكفل غنيها فقيرها ويحمي قويا ضعيفا تنسج دائرة مصالحها ومنافعها ، وتكثر مرافقها وتتوفر سعادتها وتدوم على أفرادها النعمة ما استقاموا على البذل والتعاون في المصالح العامة ، ثم أنهم يكونون بذلك مستحقين لسعادة الآخرة ومضاعفة الثواب فيها . ومن التفسير المأثور عن عمر بن الخطاب قوله : «القرض الحسن المجاهدة والانفاق في سبيل الله» وهو إجمال لما تقدم تفصيله ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي يقبض الرزق عن بعض الناس فيجهلون طرقة التي هي سنن الله تعالى فيه ويضعفون في سلوكها ، ويبسط لمن يشاء بما يهديهم إلى تلك السنن ويفتح لهم الابواب ويسهل لهم الأسباب ﴿وإليه ترجعون﴾ الرجوع إلى الله تعالى رجوع في هذا العالم إلى سنته الحكيمة ونظام خليقته الثابت ، بأن يعرف الناس أن الغنى بعمل العامل وتوفيق الله وتسخيرهم ، وأن البذل من فضل الله يأتي بالمنافع الخاصة للباذل وبالمنافع العامة لقومه الذين يعتز بهم ويسعد بسعادتهم ، وأن تركه للنفقة مفسد ومضار عامة وحاجته للأمم والأفراد ، وأن الإنسان لا يستقل بعمله مهما أوتي من راحة عقل ، بل له حاجة إلى معونة الله وتوفيقه وتسخيره ورجوع في الآخرة حين تظهر للمرء نتائج أعماله وآثار أفعاله .

مقدمة في المعنى العام

هذه القصة المفصلة فيها بيان لما في تلك القصة المجملة . فر أولئك من ديارهم فأتوا بذهاب استقلالهم واستيلاء العدو على ديارهم فالآية هناك صريحة في موتهم هذا المسبب عن خروجهم فارين بجنبهم ، ولم تصرح لسبب إحيائهم الذي تراخت مدته ، ولكن ما جاء بعدها من الأمر بالقتال وبذل المال الذي يضاعفه الله تعالى أضعافا كثيرة قد هدانا إلى سنته في حياة الأمم ، وجاءت هذه القصة الاسرائيلية تمثل العبرة فيه ، وتفصيل كيفية احتياج الناس إليه ، إذ بينت أن هؤلاء الناس احتاجوا إلى مدافعة العادين عليهم ، واسترجاع ديارهم وأبنائهم من أيديهم ، واشتد الشعور بالحاجة حتى طلبوا من نبيهم الزعيم الذي يقودهم في ميدان الجلال ، وقاموا بما قاموا به من الاستعداد ، ولكن الضعف كان قد بلغ من نفوسهم مبلغا لم تنفع معه تلك العدة فتولوا وأعرضوا للأسباب التي أشير إليها ، وألهم القليل منهم رشدهم واعتبروا فانتصروا .

قال تعالى ﴿ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى﴾ ألم ينته إلى علمك قصة الملائكة (القوم يجتمعون للتشاور، وسموا بذلك لأنهم يملئون العيون رواء والقلوب هيبة) وقال غيرهم: الملائكة الأشراف من الناس وهو اسم للجماعة ﴿إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله﴾ وهذا النبي لم يسمه القرآن، وقال أحدا المفسرين هو شمويل - وهو معرب صموئيل - وبعث الملك عيسا بن مريم عن إقامته وتوليته عليهم ﴿قال هل عسى أن أبعث عليكم القتال ألا تقاتلون﴾ والمعنى أتوقع منكم الجبن عن القتال إن هو كتب عليكم، فعسى للمقاربة أو التوقع ﴿قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أى أى داع لنا يدعونا أن لا نقاتل وقد وجد سبب القتال وهو إخراجنا من ديارنا باجلاء العدو إيانا عنها وإفرا دنا عن أولادنا بسببه إياهم واستعباده لهم ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم﴾ أى فلما فرض عليهم القتال أعرضوا وتحلفوا عن الجهاد، وضيعوا أمر الله بعد مشاهدة العدو وشوكته إلا قليلا منهم ﴿والله عليهم بالظالمين﴾ الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم وترك الجهاد دفاعا عنها وحفظا لحقها فهو يحزبهم وصفهم، فيكونون في الدنيا أذلاء مستضعفين، وفي الآخرة أشقياء معذبين.

وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم (٢٤٧) وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آله موسى وآل هرون تحمله الملكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم

مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوَا آلِهَةً كَمِ مَنْ فِتْنَةً قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً يَا ذَنَ اللَّهَ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ يَا ذَنَ اللَّهَ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهَ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

التفسير

(وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) قال المفسرون في استنكارهم لملك طالوت وزعمهم أنهم أحق بالملك منه إنه لم يكن من بيت الملك ، ولا من بيت النبوة . والعبرة في العبارة هي ما دلت عليه من طباع الناس ، وهي أنهم يرون أن الملك لا بد أن يكون وارثا للملك ، أو ذا نسب عظيم يسهل على شرفاء الناس وعظمائهم الخضوع له ، وذا مال عظيم يدير به الملك . والسبب في هذا أنهم اعتادوا الخضوع للشرفاء والأغنياء وإن لم يمتازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم الذاتية ، فبين الله تعالى فيما حكاه عن نبيه في أولئك القوم أنهم مخطئون في زعمهم أن استحقاق الملك يكون بالنسب وسعة المال بقوله (قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم) ومعنى

اصطفاه : فضله واختاره عليكم ، بما أودع فيه من الاستعداد الفطري للسلك . ولا ينافي هذا كون اختياره كان بوحى من الله ، لأن هذه الأمور هي بيان لأسباب الاختيار وهي :

١ - الاستعداد الفطري

ب - السعة في العلم الذى يكون به التدبير

ج - بسطة الجسم المعبر عن صحته وكمال قواه ، المستلزم ذلك لصحة الفكر على قاعدة العقل السليم في الجسم السليم ،

د - توفيق الله تعالى الأسباب ، وهو ما عبر عنه بقوله : ﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ بمقتضى سنته إنما يكون بجعله مستعدا للملك في نفسه وتوفيق الأسباب لسيّعه في ذلك ، أى هو الجمع بين أمرين : أحدهما في نفس الملك ، والآخر في حال الأمة التى يكون فيها . وفى الأحاديث المشهورة على السنة العامة : كما تكونون يولى عليكم ،

﴿ والله واسع عليم ﴾ واسع التصرف والقدرة إذا شاء شيئا اقتضته حكمته في نظام الخليقة فانه يقع لا محالة ، عليم بوجوه الأسباب فلا يضع سنته في استحقاق الملك عبثا ، ولا يترك أمر عباده في اجتماعهم سدى

﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سَكِينَةٌ من ربكم وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ أى وقال لهم نبيهم إن من علامة عناية الله بطالوت عود التابوت إليكم ، وفيه ما تطمئن به قلوبكم (وقد كان له عندهم شأن ديني خاص) وفيه بقيّة من رضاضة الألواح (فتاتهما) وعصى موسى وثيابه وشيء من التوراة وأشياء توارثها العلماء من أتباع موسى وهرون — وقد كان هذا التابوت عند أهل فلسطين أخذوه منهم بعد حرب انتصروا فيه عليهم ﴿ تحمله الملائكة ﴾ قيل إن البقرتين اللتين حملتا التابوت وجرتا العجلة (العربة) من بعض بلاد فلسطين إلى بني اسرائيل كانتا تسيران مسخرتين بالهام الملائكة وحرّاستهم ، ولم يكن لهما قائد ولا سائق —

﴿ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن في مجيء التابوت علامة على عناية الله بكم واصطفائه لكم هذا الملك الذى ينهض بشئونكم ويفعل بكم ، فعليكم أن ترضوا بملكه ولا تنفروا عنه

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود ﴾ فى الكلام حذف لدلالة ما بقى عليه ، وهو فأنهم التابوت بالصفة التى وعدوا بها فصدقوا وانقادوا لطالوت . فلما فصل طالوت أى خرج من مكانه وقطع الطريق بالجنود أى العساكر (قال) يعنى طالوت : ﴿ إن الله

مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ أخبر طالوت جنوده بأنهم سيمرون على نهر يمتحنهم به بإذن الله ، فمن شرب منه فلا يعد من أشياعه المتحددين معه فى أمر القتال ، إلا أن يكون ما يشربه قليلا فان الغرفة تؤخذ باليد مما يتساح فيه ولا يراه مانعا من الاتحاد به والاعتصام بجبله ، ومن لم يطعمه أى يذقه بالمرة فانه منه وهو الذى يركن إليه ويوثق به تمام الثقة ويعول على

جهاده ﴿ فشربوا منه إلا قليلا منهم ﴾ أى شق عليهم مخالفة الشهوة وإن كان فيها هوانهم ، ولم يبق فيهم من أهل الصدق فى الإيمان والغيرة على الملة والامة إلا نفر قليل ، والعدد القليل من أهل العزائم يفعل مالا يفعله الكثير من ذوى المآثم ، كما

يعلم من قوله تعالى ﴿ فلما جاوزوه هو والذين آمنوا معه ﴾ أى فلما جاوز طالوت النهر هو والذين آمنوا معه ﴿ قالوا ﴾ أى الجنود وهم أولئك الذين شربوا منه إلا

قليلا منهم ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ وجالوت هو أشهر أبطال أعدائهم الفلسطينيين وعربيه النصارى « جليات » ، والعبارة تشعر بأن جنود الفلسطينيين كانوا

أكثر من الاسرائيليين ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة

كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ أى قال الذين يستيقنون بلقاء ربهم بالبعث ، ويتوقعون ما عنده من الجزاء والثواب : كثيرا ما رأينا الجماعات القليلة غلبت الجماعات الكثيرة حين يكتب الله لهم التوفيق بمشيئته وقدرته ، والله لا يذل من نصره وإن قل عدده ، ولا يعز من خذله وإن كثرت آلاته وعدده ، والله مع الصابرين ينصرهم على عدوهم ويثبتهم عند لقائه ، وفى هذا حصص على الصبر المؤدى إلى الغلبة والثقة بالله عند

الشدائد . ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ أى ولما ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين لاعدائهم الفلسطينيين جالوت وجنوده ، وشاهدوا ما هم عليه من كثرة العدد والعدد لجأوا جميعا إلى الله يدعونه أن يفرغ على قلوبهم الصبر ويثبت أقدامهم فى القتال ويملا نفوسهم ثقة واطمئنانا وينصرهم على أولئك القوم الكافرين عبدة الاوثان الذين تعلقت قلوبهم بالآوهام ﴿ فبهزموهم بإذن الله ﴾ الذى أعظم ما سألوا ببركة التوجه إليه ، وتذكر ما يؤمنون به من قوته التى لا تغالب ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ قالوا إن جالوت جبار فلسطين طلب البراز فلم يجرؤ أحد من بنى اسرائيل على مبارزته حتى أن طالوت جعل لمن يقتله أن يزوجه ابنته ويحكمه فى ملكه ، ثم برز له داود بن يسسى وكان غلاما يرعى الغنم ، ولم يقبل أن يلبس درعا ولا أن يحمل سلاحا ، بل حمل مقلعا وحجارته ، فرماه داود بمقلعه فأصاب الحجر رأسه فصرعه فدنا منه فاحتر رأسه وجاء به فألقاه إلى طالوت ، فعرف داود ، وكان له الشأن الذى ورث به ملك بنى اسرائيل كما قال تعالى ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة وعليه بما يشاء ﴾ فقد ورث ملك بنى اسرائيل وآتاه الله النبوة وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع وعلوم الدين وفصل الخصومات ، كما قال تعالى ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ أى ولولا أن الله يدفع أهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد فى الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل والافساد فى الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتنفسد الأرض بفسادهم ، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين فى الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين ، وقد سمي هذا « دفاعا » باعتبار أنه منه سبحانه إذ كان سنة من سنته فى الاجتماع البشرى ، وسمى « دفاعا » فى قول آخر باعتبار أن كلا من أهل الحق المصلحين وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاومه

﴿ تلك آيات الله ﴾ يشير إلى قصة الذين خرجوا من ديارهم ، وقصة بني اسرائيل
التي بعدها ﴿ تتلوها عليك بالحق ﴾ فيه تعريض بأن ما يقوله بنو اسرائيل مخالف
لهذا فهو باطل ﴿ وإنك لمن المرسلين ﴾ إذ لولا الرسالة لما عرفت شيئا من هذا
القصص .

الجزء الثالث

من سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ
وَأَنبَأَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنْتَ وَأَيَّدَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ
مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيْنْتُ وَلَكِنْ ائْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ
كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
ءَاتُوا زَكَاةً مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ
فِي الظُّلُمَاتِ (٢٥٤)

التفسير

(تلك الرسل) أى المشار إليهم بقوله (وانك لمن المرسلين) ، (فضلنا بعضهم على بعض) أى امتاز بعضهم على بعض بما شاء الله من الخصائص فى أنفسهم وفى شرائعهم وأعمالهم . وقد بين هذا التفضيل فى بعض المفضلين فقال (منهم من كلم الله) وهذا التكليم كان من الله تعالى لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى فى سورة الاعراف (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) وهذا ما يدل على أن موسى قد خص بتكليم لم يكن لكل نبي مرسل ، وان كان وحى الله تعالى عاما لكل الرسل ، ويطلق عليه كلام الله تعالى . قال تعالى فى سورة الشورى (وما كان

لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء انه على حكيم ﴿ ونحن نؤمن بكلام الله تعالى ووحيه مع تنزيهه في ذاته وصفاته عن مشابهة خلقه ﴾ ورفع بعضهم درجات ﴿ ذهب جماهير المفسرين إلى أن المراد به نبينا محمد ﷺ ، وفي هذه الدرجات ما هو خصوصية في نفسه الشريفة ، ومنها ما هو في كتابه وشرائعه ، ومنها ما هو في أمته ، وآيات القرآن تنبيء بذلك كقوله تعالى ﴿ وإنك لعل خلق عظيم ﴾ ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ، ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ ، ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

﴿ وآتيناه عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ البينات هي ما يتبين به الحق من الآيات والدلائل ، وروح القدس هو روح الوحي الذي يؤيد الله به رسله ، وإفراده عليه السلام بما ذكر لرد ما بين أهل الكتابين في شأنه عليه السلام من التفريط والافراط ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ يجعل الله تعالى هداية الدين له أمراً اختياريا لا وصفا اضطرابيا ، فهي معروضة أمامه يأخذ منها بقدر استعداده وفكره كما هو شأنه في الأخذ بسائر أنواع الهداية والاستفادة من منافع الكون ، هذه سنته تعالى في الانسان وهي منشأ الاختلاف ، فهو يقول : لو شاء الله أن لا يجعل سنته في تبليغ الدين وعرضه على الناس هكذا بأن يجعله من إلهاماتهم العامة وشعورهم الفطري كشعور الحيوان وإلهامه ما فيه منفعة لكانوا في هدايته سواء يسعدون به أجمعين ، قمتهم بيناته أن يختلفوا فيقتلوا ، ولكنه خلق الانسان على غير ما خلق عليه الحيوان ، وكان ذلك سبب اختلاف أهل الأديان ، فمنهم من آمن بإيماننا صحيحا فأخذ الدين على وجهه إذ فهمه حق فهمه ، ومنهم من فهمه مقلوبا وحكم هواه في تأويله فكان كافرا به في الحقيقة ، وكان ذلك سبب التنازع والتقاتل ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ﴾ أي ولو شاء الله أن يعذر بعض المختلفين بعضا ، ويقتصر كل فريق على الانتصار لرأيه بالحجة ، لما اقتتلوا على ما يختلفون فيه ، ولكنه أودع في غرائزهم النضال عن مصالحتهم بكل ما قدروا عليه من قول أو فعل ، فمنهم من يقارع الحجة بالحجة ، ومنهم

القوى الذى يقاوم بالسيف ، فكان الاختلاف فى رأى والمصالح مع عدم العذر مؤديا إلى الاقتتال لا محالة ﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ أى أن اختصاص الناس بهذه المزايا هو أثر إرادته وتخصيصها فلا مرد له

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ والمعنى أنفقوا فإن الانفاق فى سبيل الخير والبر — وهى سبيل الله — هو الذى ينجيكم فى ذلك اليوم الذى لا ينجى الأشعة الباخلين فيه من عذاب الله تعالى فداء (وهو معنى البيع) فيفتدوا منه أنفسهم ، ولا خلة يحمل فيها خليل شيئا من أوزار خليله أو يهبه شيئا من حسناته ، ولا شفاعة يؤثر بها الشفيع فى إرادة الله تعالى فيحولها من مجازاة الكافر بالنعمة الباخل بالصدقة المستحق للمقت بالعقوبة بتدنيس نفسه وتدنيسها فى الدنيا ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ والمراد بالكافرين الكافرون بالنعمة لقرينة السياق ، وهم الذين لا ينفقون فى سبيل البر والخير ، وقد قصر الظلم عليهم لأنهم ظلموا أنفسهم ودنسوها برذيلة البخل ومنع الحق ، وظلموا الفقراء بمنعهم عما فرض الله لهم من الزكاة والصدقة ، وظلموا الأمة باهمال مصالحها المعبر عنه بسبيل الله ، ولا شئ أسرع فى إهلاك الأمة من فشو البخل ومنع الحق أفرادها

الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم (٢٥٥)

التنفس — ير

(الله لا إله إلا هو الحى القيوم) هذه الآية تثبت له تعالى وحدانية الألوهية مع الحياة التى تشهر بكل الوجود وكل الابداد بافاضة الحياة على الاحياء ، والقيومية وهى كونه قائما بنفسه ثابتا بذاته وكون غيره قائما به — أى ثابتا وموجودا بايجاده إياه وحفظه لوجوده بامداده بما يحفظ به الوجود من الأسباب . ومعنى « القيوم » هو القائم على كل شىء . وقالوا هو القائم بنفسه مطلقا لا بغيره ، وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يتصور وجود شىء ولا دوام وجوده إلا به . (لا تأخذه سنة ولا نوم) السنة النعاس وهو فتور يتقدم النوم ، والنوم معروف لكل أحد ، والجملة تأكيد لما قبلها مقررته لمعنى الحياة والقيومية على أكمل وجه ، فان من تأخذه السنة والنوم يكون ضعيف الحياة وضعيف القيام بنفسه أو على غيره . (له ما فى السموات وما فى الأرض) فهم ملوكه وعبيده ، مقهورون لسنته ، خاضعون لمشيئته ، وهو وحده المصرف لشئونهم والحافظ لوجودهم . (من ذا الذى يشفع عنده) منهم فيحمله على ترك مقتضى ما قضت به سنته وقضت به حكمته ووعدت به شريعته من تعذيب من دسى نفسه بالعقائد الباطلة ودنسها بالاخلاق السافلة ، وأفسد فى الأرض وأعرض عن السنة والفرض . من ذا الذى يقدم على هذا من عبيده . (إلا بأذنه) والأمر كله له صورة وحقيقة ، وليس هذا الاستثناء نصا فى أن الأذن سيقع وإنما هو كقوله . (يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بأذنه) فهو تمثيل لانفراده بالسلطان والملك فى ذلك اليوم . (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى ما قبلهم ، وما بعدهم أو بالعكس ، أو أمور الدنيا التى خلفوها وأمر الآخرة التى يستقبلونها ، وما يدركون وما يحملون . (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) أى إن أحدا من خلقه لا يحيط بما يعلمه الله إلا إذا شاء الله . والشفاعة تتوقف على إذنه تعالى ، وأنه لا يعلم منه إلا بوحى منه ، وإنما يعرف إذنه تعالى بما حددده من الأحكام فى كتابه ، فمن بين أنه مستحق لعقابه فلا يجرؤ أحد أن يدعو له بالنجاة ، ومن بين أنه مستحق لرضوانه

على هفوات ألم بها لم تحول وجهه عن الله تعالى إلى الباطل والفساد، ولم تدس روحه حتى تسترسل في الخطايا، فهو واصل إليه على ما وعد به في كتابه وما تفضل به على عباده ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ السياق يدل على أن الكرسي هو العلم الإلهي، أي أن عليه تعالى يحيط بما يعملون مما عبر عنه بقوله ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ وقيل إنه تمثيل للملك الله تعالى، وقيل كرسيه قدرته التي يمسك بها السموات والأرض، وقيل هو عبارة عن الملك، وهذا من عالم الغيب لا يعرف حقيقته إلا الله نؤمن به ولا نبحت عنه

﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ أي لا يشق له حفظ هذه العوالم بما فيها ولا يشق عليه ﴿وهو العلي العظيم﴾ أي وهو المتعالي عن الانداد والأشياء، العظيم على كل شيء سواه، فهو المنزه بعظمته عن الاحتياج إلى من يعمله بحقيقة أحوالهم أو يستنزله عن يريد مجازاتهم على أعمالهم

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطَّاغُوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢٥٧)

التفسير

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ كان معهودا عند بعض الملل — لا سيما النصراني — الدخول في دينهم بالإكراه، وهذه المسألة ألصق بالسياسة منها بالدين، لأن الإيمان

وهو أصل الدين وجوهره عبارة عن إذعان النفس ، ويستحيل أن يكون الإذعان بالالزام والاكراه ، وإنما يكون بالبيان والبرهان ، ولذلك قال تعالى بعد نفى الاكراه (قد تبين الرشد من الغي) أى قد ظهر أن في هذا الدين الرشد والهدى والفلاح والسير في الجادة على نور ، وأن ما خالفه من الملل والنحل على غي وضلال (من يكفر بالطاغوت) وهو كل ما تكون عبادته والايان به سبيلا للطغيان والخروج عن الحق من مخلوق يعبد ورئيس يقلد وهوى يتبع (ويؤمن بالله) فلا يعبد إلا إياه ولا يرجو غيره ولا يخشى سواه ، يرجوه ويخشاه لذاته وبما سنه من الأسباب والسنن في عبادته (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) أى فقد طلب أو تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكا بأوثق عرى النجاة وأثبت أسباب الحياة . والاستمسك بالعروة الوثقى هو الاستقامة على طريق الحق القويم الذى لا يضل سالكه ، كما أن المتعلق بعروة هى أوثق العرى وأحكمها فتلا لا يقع ولا يتفلت (والله سميع) لأقوال مدعى الكفر بالطاغوت والايان بالله (أستغنى عنهم) بما تكفيه قلوبهم بما يصدق ذلك أو يكذبه فهو يحزيهم وصفهم

(الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) المولى من الولى وهو القريب من غير فصل ، وهو الذى يكون أولى بالغير من غيره وأحق بتدبيره . والله تعالى ولى المؤمنين على ثلاثة أوجه أحدها أنه يتولاهم بالمعونة على إقامة الحجة والبرهان لهم فى هدايتهم كقوله (والذين اهتدوا زادهم الله هدى) وثانيها أنه وليهم فى نصرهم على عدوهم وإظهار دينهم على دين مخالفيهم . وثالثها أنه يتولاهم بالثبوت على الطاعة والمجازاة على الأعمال الصالحة . والمعنى هو أن المؤمن لا ولى له ولا سلطان لأحد على اعتقاده إلا الله تعالى ، ومتى كان كذلك فإنه يهتدى إلى استعمال الهدايات التى وهبها الله له على وجهها وهى الحواس والعقل والدين ، فهؤلاء المؤمنون كلما عرضت لهم شبهة لاح لهم بسلطان الولاية الإلهية على قلوبهم شعاع من نور الحق يطرد ظلماتها فيخرجون منها بسهولة (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات) أى لا سلطان على نفوسهم إلا لتلك المعبودات الباطلة

السائقة إلى الطغيان ، فان كانت من الأحياء الناطقة ورأت أن عابديها قد لاح لهم شعاع من نور الحق ينبهم إلى فساد ما هم فيه - بادرت إلى إطفائه وصرفه عنهم بإلقاء حجب الشبهات ، وان كانت من غير الأحياء فسدنة هياكلها وزعماء حزبيها لا يقصرون في تسميق هذه الشبهات ببيان أن الواجب الاعتقاد بتلك السلطة وبما ينبغي لأربابها من التعظيم ، وهو لا شك عبادة وإن سموه توسلا أو استشفاعا أو غير ذلك من الاسماء (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لأن النار هي الدار التي تليق بأهل الظلمات الذين لم يبق لنور الحق والرشاد مكان في نفوسهم يصلها بدار النور والرضوان ، فإيكون عليه الانسان في الآخرة هو عاقبة ما كانت عليه نفسه في الدنيا - والخوض في حقيقة تلك الدار التي سميت بالنار غير جائز ، وإنما نعتقد من مجموع النصوص أنها دار شقاء يعذب المرء فيها بما يقدم من عمله السيئ ، ونكل الحقيقة إلى الله عز وجل لأنها من عالم الغيب

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ
الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
(٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ
بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ
قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نَنْشُرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ

أَرْنِي كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيُظْمِنَ قَلْبِي قَالَ خُذْ
 أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصِرْهِنَّ إِلَىٰكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ
 يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنِ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

التفسير

لما بين سبحانه أنه ولي المؤمنين وأن الكفار لا ولي لهم سوى الطاغوت تسلياً
 لنبيه ﷺ قص عليه بعده قصة ابراهيم ونمرود فقال ﴿ ألم تر إلى الذي حاج ابراهيم
 في ربه ﴾ للتعجب من هذه المحاجة وغرور صاحبها وغياوته مع الانكار . أى ألم
 ينته الى علمك ورؤيتك الى الذي حاج أى خاصم وجادل ابراهيم في ربه أى في رب
 ابراهيم الذي يدعو الى توحيدهِ وعبادته . وقوله ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ معناه أن
 الذي حمله على هذه المحاجة هو إيتاؤه الملك ، فكان منشأ إسرائفه في غروره وسبب
 كبريائه وإعجابه بقدرته ﴿ إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت ﴾ وكأنه كان
 قد سأل عن ربه الذي يدعو الى عبادته وقد كسر الأصنام التي تعبد من دونه وسفه
 أحلام عابديها لأجله ، فأجاب بهذا الجواب ، فأنكره الملك الطاغية الذي حكى عنه
 ادعاء الألوهية لنفسه ﴿ قال أنا أحيي وأميت ﴾ أحي من أحكم عليه بالاعداد بالعفو
 عنه ، وأميت من شئت بالأمر بقتله . ولما رأى ابراهيم أنه لم يفهم مراده بالذي يحيي
 ويميت وأنه مصدر التكوين الذي يحيا كل حي بأحيائه ويموت بقطع امداده له بالحياة
 ﴿ قال فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ والمعنى أن ربي الذي
 يعطي الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته هو الذي يطلع الشمس من المشرق ، أى هو
 المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نشاهدها عليها ، فإن كنت
 تفعل كما يفعل فغير لنا نظام طلوع الشمس وأت بها من الجهة المقابلة التي جرت سنته

تعالى بظهورها منها ﴿ فبیت الذی کفر ﴾ أى أدركته الحيرة وأخذة الحقد من
فصوع الحجّة فلم یحر جوابا ﴿ والله لا یهدى القوم الظالمین ﴾ المراد بالظلم فی هذا
المقام الاعراض عن النور الالهی وهو نور العقل الذی یسیر به المرء فی طریق الدین ،
فن ظلم نفسه باطفاء هذا المصباح فسار یتخبط فی الظلمات فانه لا یمتدی فی سیره إلى
الصرائط المستقیم الموصول الى السعادة ، بل یضل عنه حتی یهلك دون الغایة ﴿ أو ﴾
رأیت ﴿ كالذی مر على قرية ﴾ أى مثل الذی مر على قرية د وعبّر عن القرية
بالأمة والجماعة أى أو هل رأیت كالذی مر ، ومعناه ان شئت فانظر فی قصة الذی
حاج ابراهیم ، وإن شئت فانظر الى قصة الذی مر على قرية ﴿ وهی خاویة على عروشها ﴾
معناه وهی خالیة من السكان واقعة على عروشها . أى ساقطة على عروشها أى خراب
﴿ قال أنى یحیی هذه الله بعد موتها ﴾ یتعجب من ذلك وبعده غریبا لا یکاد یقع
﴿ فأما نه الله مئة عام ثم بعثه ﴾ أى فجعله الله فاقد الحس والحركة دون أن تفارق
الروح البدن ثم أعاده إلى ما كان علیه أولا ﴿ قال کم لبثت ؟ قال لبثت یوما أو بعض
یوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامک وشرابک لم یتسنه ﴾ أى قال له بعد
مبعثه کم لبثت أى کم مکثت ؟ قال لبثت یوما أو بعض یوم بناء على ظنه وتخمينه ،
فقال له : ما لبثت هذا المقدار بل لبثت مدة متطاولة ، ومع ذلك لم یلحق طعامک
وشرابک تغیر ما بما تجرى العادة بمثله حین مرور الزمان وتناول الأعوام ﴿ وانظر
إلى حمارک ﴾ کیف نخرت عظامه وتقطعت أوصاله لیستقیم لك طول لبثک وتطمئن
نفسک ﴿ ولنجعلک آية للناس ﴾ أى نریک آیاتنا فی نفسك وطعامک وشرابک
ولنجعلک آية للناس برهاننا واضحا على البعث ﴿ وانظر إلى العظام کیف ننشزها ثم
نکسوها لحما ﴾ أى أن القادر على أن یکسو هذه العظام لحما ویعدها بالحياة ویجعلها
أصلا لجسم حی ، قادر على أن یعید الخصب والعمران للقرية . وكذلك القادر على
الاحیاء بعد لبث مائة عام ، قادر على الاحیاء بعد لبث الموتی آلاف السنین . فبعض

فعله تعالى تشبیه بعضاً ﴿ فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ أى لما ظهر واتضح له ما ذكر قال : أعلم علماً يقينياً مؤيداً بآيات الله فى نفسى والآفاق أن الله على كل شيء من الأشياء قدير لا يستعصى عليه أمر . النشر بالراء : خلاف الطى . والنشر بالزأى : المرتفع من الارض

﴿ وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟ ﴾ أى واذكر وقت قول ابراهيم لربه أرنى كيف يكون إحياء الموتى وما وقع حينئذ من عجيب صنعه لتقف على هدايته تعالى للمؤمنين وولايته لهم . وخلاصة المعنى يا رب أرنى بعينى كيفية إحيائك للموتى ﴿ قال أو لم تؤمن قال بلى ﴾ أى قال : ألم تعلم ذلك وتؤمن بأنى قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألنى إراءته ؟ قال : بلى علمت ذلك وصدقت بالخبر ، ولكن تأقت نفسى للخبر والوقوف على هذا السير ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ بالبيان بعد خبر الوحى . وليس فى سؤال ابراهيم ما يشعر بالشك ، فالإنسان قد جبل على طلب المزيد فى العلم والرغبة فى الوقوف على أسرار الخلق ، وأكمل الناس علماً أشدهم رغبة فى طلب الوقوف على المجهولات ﴿ قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل

على كل جبل منهم جزءاً ثم ادعهم يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ قال تعالى لابراهيم أن يأخذ أربعة من الطير فيقطعهن أجزاء ثم يفرقها على عدة جبال ثم يدعوها فتجيبه مسرعة . وقد فعل ابراهيم ، والله بعزته غالب على أمره وبحكمته قد جعل أمر الاعادة موافقاً لحكمة التكوين . هذا ملخص معنى الآية عند الجمهور ، وخالفهم أبو مسلم المفسر الشهير - قال : فى القرآن كثير من الأمر الذى يراد به الخبر ، والكلام هنا مثل لأحياء الموتى ومعناه خذ أربعة من الطير فضمها إليك وأنسها حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك فإن الطيور من أشد الحيوان استعداداً لذلك ، ثم اجعل كل واحدة منها على جبل ثم ادعها فانها تسرع إليك لا يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها من ذلك ، كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين (كونوا أحياء) فيكونوا أحياء كما كان شأنه فى بدء الخلق إذ قال للسموات والأرض انقيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين . والغرض منه ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح

إلى الاجساد على سبيل السهولة

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنْسًا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

التفسير

(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) وهي ما يوصل إلى مرضاته من المصالح العامة لا سيما ما كان نفعه أعم وأثره أبقي (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) أي كمثال أبرك بذر في أخصب أرض نعماً أحسن نمو بجاءات غلته مضاعفة سبع مائة ضعف، وذلك منتهى الخصب والنماء، أي أن هذا المنفق يلقى جزاءه في الدنيا مضاعفاً أضعافاً كثيرة فالتشبيه للتكثير لا للحصر ولذلك قال (والله يضاعف لمن يشاء) فيزيد على ذلك زيادة لا تقدر ولا تحصر، وقيل يضاعف تلك المضاعفة التي ضرب لها المثل (والله واسع) لا ينحصر فضله ولا يحدد عطاؤه (عليم) بمن يستحق المضاعفة من المخلصين الذين يهديهم لإخلاصهم إلى وضع النفقات في مواضعها التي يكثر نفعها وتبقى فائدتها زمناً طويلاً، كالمنفقين في إعلاء شأن الحق وتربية الأمم على آداب الدين وفضائله التي تشوقهم إلى سعادة المعاش والمعاد، حتى إذا ما ظهرت آثار نفقاتهم النافعة في قوة ملتهم وسعة انتشار دينهم وسعادة أفراد أمتهم عاد عليهم من بركات ذلك وفوائده ما هو فوق ما أنفقوا بدورات لا يمكن حصرها

﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى ﴾
 أن هذه الآية لبیان ثواب الانفاق في الآخرة بعد التنويه بمنفعة الدنيا ، وقد شرط
 لهذا الثواب ترك المن والأذى ، فأما المن فهو أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن
 إليه ، أو أن يعتقد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب بذلك عليه حقاً .
 وأما الأذى فهو أعم ، ومنه أن يذكر المحسن إحسانه لغير من أحسن إليه بما ربما
 يكون أشد عليه مما لو ذكره له ، أو أن يتناول عليه بسبب إنعامه عليه . إن من
 يقرن النفقة بالمن والأذى أو يتبعها أحدهما أو كليهما عاجلاً لا يستحق أن يدخل في
 الذين ينفقون في سبيل الله أو يوصف بالسخاء المحمود عند الله ﴿ لهم أجرهم عند
 ربهم ﴾ يشعر بأن هذا الأجر عظيم من رب قادر كريم ، فقد أضافهم إليه تشریفاً
 لهم وإعلاءً لشأنهم ﴿ لا خوف عليهم ﴾ يوم يخاف الناس وتفزعهم الأهلوال ،
 ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ يوم يحزن البخلاء المسكون عن الانفاق في سبيل الله

﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ﴾ القول المعروف يتوجه
 تارة الى السائل إن كانت الصدقة عليه ، ويتوجه الى المصلحة العامة كما إذا هاجم البلد
 عدو وأرادوا جمع المال للاستعانة على دفعه فن لم يكن له مال يمكنه أن يساعد بالقول
 المعروف الذي يحث على العمل وينشط العامل ويبعث عزيمة الباذل ، والمغفرة أن
 تغضى عن نسبة التقصير في الانفاق اليك ، وأن تظهر في هيئة لا ينفر منها المحتاج ولا
 يتألم من فقره أمامك . والمعنى أن مقابلة المحتاج بكلام يسر وهياة ترضى خير من
 الصدقة مع الإيذاء بسوء القول أو سوء المقابلة ، ولا فرق في المحتاج بين أن يكون
 فرداً أو جماعة ، وإن أضمن شيء لمصلحة الأمة وأقوى معزز لها هو أن يكون كل
 واحد من أفرادها في عين الآخر وقلبه في مقام المعين له وإن لم يعنه بالفعل . وإن
 هذه الآية مقررة لقاعدة « دره المفاسد مقدم على جلب المصالح » التي هي أعظم
 قواعد الشريعة ، ومبينة أن الخير لا يكون طريقاً ووسيلة إلى الشر ، ومرشدة إلى
 وجوب العناية بجعل العمل الصالح خالياً من الشوائب التي تفسده وتذهب بفائدته
 كلها أو بعضها ﴿ والله غني ﴾ بذاته وبما له من ملك السموات والأرض عن صدقة

عباده ، وهو غنى عن قبول صدقة يتبعها أذى لأنه لا يقبل إلا الطيبات ﴿ حلیم ﴾ لا يجعل بعقوبة من يمن ويؤذى ، وهذا انذار لهم أن لا يغتروا بحلم الله ولأهماله إياهم وعدم معاجلتهم بالعقاب على كفرهم بنعمه عليهم بالمال ، فانه يوشك أن يسلبها منهم فى يوم من الأيام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَ صُلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)

وَمِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفُتَّتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

أَيُّودُ أَحَدِكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

التفسير

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ أى ان المن والأذى هادم للمائدة المقصودة من الصدقة ومبطل لها ، وهو تخفيف بؤس المحتاجين وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، وتنشيط القائمين بخدمة الأمة ومساعدتها إذا كانت الصدقة فى مصلحة عامة ، إذ أن كل عمل لا يؤدى إلى الغاية منه فقد حبط

وبطل كأن لم يكن (كالذى ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) أى لا تبطلوا صدقاتكم بأى هاتين الرذيلتين فتكونوا مشبهين من ينفق ماله مرائياً الناس أى لأجل أن يروه فيحمدوه لا لابتغاء مرضاة الله ببحرى ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين، وترقية شأن الأمة بما يصلح شئونها، وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر حتى يرجو ثواباً أو يخشى عقاباً (فتله كمثل صفوان عليه تراب

فأصابه وابل فتركه صليداً) أى إن صفة عمل المنافق المرائى كصفة تراب على حجر أملس نزل عليه ماء مطر شديد فأزاله وترك الحجر صليداً نقياً لا تراب عليه.

والوجه المشترك بينهما أن الناس يرون أن هؤلاء المرائين أعمالا كما يرى التراب على الصفوان، فإذا جاء يوم القيامة وصاروا إلى الله اضمحل ذلك كله وذهب لأنه لم يكن لله، كما يذهب الوابل المطر ما كان على الصفوان فيتركه أملس لا شيء عليه.

(لا يقدر على شيء مما كسبوا) أى لا ينتفعون بشيء من صدقاتهم ونفقاتهم ولا يجنون ثمراتها في الدنيا ولا في الآخرة، لأن المن والأذى مما ينافى غاية الصدقة ومن فعلهما كان أبغض إلى الناس من البخيل الممسك، والرياء لا يخفى على الناس، وأما في الآخرة فلا ثواب فيها إلا للخلصين في أعمالهم الذين يتحرون بها سنن الله تعالى في

تزكية نفوسهم وإصلاح حال الناس (والله لا يهدي القوم الكافرين) فالكافر محروم من الهداية التى تجمع لصاحبها بين صلاح القلب والعمل وسعادة الدنيا والآخرة.

(مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم) أى لطلب رضوان الله ولتثبيت أنفسهم وتمكينها في منازل الإيمان والاحسان حتى تكون مطمئنة في بلذها لا ينازعها فيه زلزال البخل ولا اضطراب الحرص لا يثارها حب

الخير عن أمر الله على حب المال عن هوى النفس ووسوسة الشيطان (كمثل جنة ربوة) أى كجستان يمكن مرتفع من الأرض. واختار بعضهم أن المراد بالربوة الأرض المستوية الجيدة التربة بحيث تربو بنزول المطر عليها وتنمو. ويؤيده كون

المثل مقابلاً لمثل الصفوان الذى لا يؤثر فيه المطر (أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين) أى أصابها مطر فكان ثمرها مثلى ما كانت تثمره في العادة أو أربعة أمثاله على القول

بأن ضعف الشيء مثله مرتين ، والأكل كل ما يؤكل ﴿ فإن لم يصيبها وابل فطل ﴾ أى فالذى يصيبها طل وهو المطر الخفيف المستدق القطر يكفيها لجودة تربتها وكرم منبتها وحسن موقعها . ووجه الشبه أن المنفق ابتغاء مرضاة الله والتبذير من نفسه هو فى إخلاصه وسخاء نفسه وإخلاص قلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر العظيمة الخصب فى كثرة بره وحسنه ، فهو يجود بقدر سعته ، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الانفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدره ، بخيره دائم وبره لا ينقطع ، لأن الباعث عليه ذاتى لا عرضى كأهل الرياء وأصحاب المن والإيذاء ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ يذكرنا بأنه لا يخفى عليه الخالص من المرأتى ، فانه يقول : ان الله لا يخفى عليه ما تنطوى عليه سريرتك أيها المنفق ، فعليك أن تخلص له . وأما المثل الثانى فقولہ ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها

الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه السكر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ﴾ الاستفهام لانكار وقوع أن يود الانسان لو تكون له جنة معظم شجرها من الكرم (العنب) والنخل اللذين هما أجمل الشجر وأنفعه ، كثيرة المياه حاوية لأنواع من الثمرات الكثيرة ، قد نيطت بها آماله ورجا أن ينتفع بها عياله ، ويصيبه السكر الذى يقعه عن الكسب فى حالة كثرة ذريته وضعفهم عن أن يقوموا بشأنه وشأنهم حتى لا يبقى له ولا لهم مورد للرزق غير هذه الجنة ، وبينما هو كذلك إذا بالجنة قد أصابها الإعصار (ربيع عاصفة) فأحرقها بما فيه من سيموم النار . أما وجه التمثيل فقد خصوه بالمرأتى ، والمثل ينطبق أيضا على من أبطل صدقته بالمن والأذى وأنه ليس خاصا بالآخرة ، فإن باذل المال للفقراء وفى المصالح العامة يكون له من الجاه والمكانة عند الناس ما يشبه تلك الجنة التى وصفها المثل فى رونقها ومنافعها ، ويوشك أن يذهب مال هذا المنفق وتشدد حاجته وتقصير يده حتى لا يكون له مرتزق إلا ما غرسته يده من جنته تلك ، فيحاول أن يجنى منها فيحول دون ذلك إعصار من المن والأذى أو من ظهور الرياء فيحرقها حتى تكون كالصريم لا تؤتى ثمرتها ولا تسر رؤيتها ، كذلك عاقبة أهل الرياء وذوى المن والإيذاء ينبذهم الناس عند شدة حاجتهم إلى الناس ، ولذلك أرشدنا تعالى بعد المثل إلى التفكير فى عاقبة هذا

العمل انفصال ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات ﴾ أى أنه تعالى يبين لكم الآيات الدالة على حقائق الأمور وغاياتها وفوائدها وغوائلها مثل هذا البيان الباسر في أبهى معارض التمثيل ﴿ لعلمكم تتفكرون ﴾ في العواقب فتضعون نفقاتكم في المواضع التي يرضاها مع الاخلاص وقصد تثبيت النفس حتى لا يستخفها الطيش والاعجاب فيدفعها إلى المن والاذى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَسَّعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُوْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩) وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَتُ فَنِعْمَا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتَوْتَوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

التفسير

كانت الآيات السابقة في إرشاد ما يتعلق بالبذل والبذل ، ثم أراد تعالى أن يبين لنا ما ينبغي مراعاته في المبدول ليكمل الإرشاد في هذا المقام فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا ﴾ أى تصدقوا ﴿ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أى من حلال ما كسبتم بالتجارة

والصناعة ﴿وبما أخرجنا لكم من الأرض﴾ أى أنفقوا وأخرجوا من الحبوب
والتجار والمعادن، والمراد بالانفاق أن يكون فى سبيل الخير وأعمال البر والمنافع
العامّة التى ترفع شأن الأمة لمحاربة الفقر والمرض والجهل وإيجاد مؤسسات قومية من
صناعية وتجارية واجتماعية لرفع مستوى المعيشة ونهوض الأمة وتقديمها فى نوع ما
يبدل وينفق ووصفه، فهو أن يكون من الطيبات، والطيب هو الجيد المستطاب
وضده الخبيث المستكره، ولذلك قال فى مقابل هذا الأمر ﴿ولا تيمموا الخبيث منه

تفقرون﴾ أصل تيمموا تيمموا، والمعنى أنفقوا من جياذ أموالكم ولا تيمموا أى
تقصدوا الخبيث فتجعلوا صدقتكم منه خاصة دون الجيد، فهو نهى عن حصر الصدقة

فى الخبيث، ولا يدل على منع التصديق به من غير تعمد ولا حصر ﴿ولستم بأخذيه

إلا أن تغمضوا فيه﴾ وهذا يشعر بالتقريع والتوبيخ، أى كيف تقصدون الخبيث
منه تصدقون ولستم ترضون مثله لأنفسكم إلا أن تتساهلوا فيه تتساهل من أغض
عينيه عنه فلم ير العيب فيه، ولن يرضى ذلك لنفسه أحد إلا ويرى أنه مغبون

مغموض الحق ﴿واعلموا أن الله غنى حميد﴾ فلا يصح أن يتقرب إليه بما لا يقبله
لردائه إلا فقير اليد أو فقير النفس الذى لا يسأل أن يرضى بما ينافى الحمد كقبول
الردى الذى يدل على عدم التمظيم والاحترام

أمانوع ما يكسب فهو بعض ما يجنيه المرء بعمله ككسب الفعلة والتجار والصناع
والمهندسين والأطباء والمحامين، وبعض ما يخرج من الأرض من غلات الحبوب
وعمرات الشجر، والمعادن والركاز وهو ما كان دفن فى الأرض قبل الاسلام، وكل
ذلك فضل من الله يجب شكره له بنفقة بعض الجيد منه فى سبيله وابتغاء مرضاته.
والآية لم تخصص ولم تعين مقدار ما ينفق، بل وكلته إلى رغبة المؤمن فى شكر الله تعالى
فان ورد دليل آخر يعين بعض النفقات فله حكمه.

﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ معناه أنه يخيل إليكم بوسوسته أن الانفاق يذهب بالمال
ويفضى إلى سوء الحال، فلا بد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لما يولده الزمن
من الحاجات، وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾ فان الأمر هنا عبارة

عما تولده الوسوسة من الإغراء ، والفحشاء البخل وهى فى الأصل كل ما غش أى اشتد قبحه ، وكان البخل عند العرب من أخش الفحش (والله يعدكم) بما أنزله من الوحي وبما أودعه فى النفوس الذكية من الإلهام الصحيح والعقل الرجيع من حب الخير والرغبة فى البر (مغفرة منه وفضلا) فانه جعل الاتفاق كفارة لكثير من الخطايا ، وسببا يفضل به المرء قومه ويسودهم أو يسود فيهم بما يجذب إليه من قلوب من يكون سببا فى رزقهم ، وهذا الفضل من الجاه بالحق (والله واسع عليم) فهو إذا وعد أنجز لسعة فضله ثم يعلم أين يضع مغفرته وفضله . وقول آخر أن اسم (عليم) يفيد هنا أنه سبحانه وتعالى يعلم غيب العبد ومستقبله ، والشيطان لا يعلم ذلك فوعده تغير لا يعبا به العاقل النحرير .

(يؤتى الحكمة من يشاء) الحكمة هنا العلم الصحيح يكون صفة محكمة فى النفس حاكمة على الإرادة توجهها إلى العمل ، ومتى كان العمل صادرا عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح النافع المؤدى إلى السعادة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) ان الله جعل الخير الكثير مع الحكمة فى قرن فهما لا يفترقان كما لا يفترق المعلول عن علته التامة ، فالحكمة هى العلم الصحيح المحرك للإرادة إلى العمل النافع الذى هو الخير ، وآلة الحكمة هى العقل السليم المستقل بالحكم فى مسائل العلم ، فهو لا يحكم إلا بالدليل ، فتى حكم حزم فأمضى وأبرم ، فكل حكيم عليم عامل مصدر للخير الكثير ، فلذلك قال تعالى (وما يذكر إلا أولو الأبالباب) أى وقد جرت سنته تعالى بأنه لا يتعظ بالعلم ويتأثر به تأثرا يبعث على العمل إلا أصحاب العقول الخالصة من الشوائب والقلوب السليمة من المعاييب .

(وما أنفقتم من نفقة) يستحل قليلها وكثيرها سرها وعلايتها ، ما كان منها فى حق وما كان منها فى شر ، ما كان عن إخلاص وما كان رثاء الناس ، وما أتبع منها بالمن والأذى وما لم يتبع بشئ منها (أو نذرت من نذر) والنذر هو التزام فعل الشئ بلفظ يدل عليه ، كقول الناظر : لله على كذا ، وعلى كذا ، أو نذرت

لله كذا ، ويذنبى أن يكون فى طاعة ، لانه لا يتقرب إليه تعالى الا بالطاعة ، فإن نذر فعل معصية حرم عليه أن يفعلها . وإن نذر مباحا فعله ، لأن فسخ العزائم من النقص (فإن الله يعليه) أى فانه تعالى يعلم ما ذكر من النفقة أو النذر ، ويجازى عليه إن خيرا خيرا وإن شرا فشر ، فالجمله وعد ووعد وترغيب وترهيب ، ثم أكد ما فيها

من الوعد بقوله (وما للظالمين من أنصار) ينصرونهم يوم الجزاء فيدفعون عنهم العذاب بجاههم أو يفقدونهم بجاههم ، كقوله (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) والظالمون فى مقام الاتفاق هم الذين ظلموا أنفسهم اذ لم يذكروها ويطهروها من هذه الفحشاء (البخل) أو من رذائل الرياء والمن والاذى - فظلموا الفقراء والمساكين بمنع ما أوجبه الله لهم ، وظلموا الملة والأمة بترك الاتفاق فى المصالح العامة وبما كانوا قدوة سيئة لغيرهم ، فظلمهم عام شامل ، فهل يعتبر بهذا أغنياء المسلمين وهم يرون أمتهم قد صارت يبخلهم أبعد الامم عن الخير بعد أن كانت خير أمة أخرجت للناس ؟ أم انهم لا يجهلون أن المال هو القطب الذى تدور عليه جميع مصالح الأمم فى هذا العصر ، وأنهم لو شاءوا لا تنشأوا هذه الامة من وهدتها ، وعادوا بها الى عزتها ، ولكنهم

قوم ظالمون قساة لا يتوبون ولا يتذكرون . (ان تبدوا الصدقات فنعما هي) أى فنعم شيئا إبدائها ، وأصلها نعم ماهى أى فنعم الشيء ونعم الأمر اظهارها واعلانها ،

أى ليس فى إبدائها كراهة (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) أى إن إعطاءها للفقراء فى الخفية والسر أفضل من الإبداء ، لما فى الاخفاء من البعد عن شبهة الرياء ومثاره ، ومن إكرام الفقير وتحامى إظهار فقره وحاجته . وقيل خير لكم من الخيور وليس بمعنى التفضيل ، ويؤيد الأول زيادة الجزاء بقوله (ويكفر عنكم

من سيئاتكم) أى ويمحو عنكم بعض سيئاتكم (والله بما تعملون خبير) أى لا يخفى عليه نياتكم فى الإبداء والاخفاء ، فإن الخير هو العالم بدقائق الأمور

إن الصدقات فى الآية عامة تشتمل الزكاة والتطوع ، وفى هذا المقام خاصة بالتطوع لأن الفرائض لارياء فيها ، وهى شعائر لا يبنى إخفاؤها ، لأنها لو أخفيت لتوهم منعها ، وظهور الاسلام وقوته باظهار شعائره وفرائضه ، ولما كان القدوة

أطلق في الآية لفظ الفقراء . والفقهاء لم يمنعوا صدقة التطوع عن غير المسلم ، وإنما قالوا إن الزكاة التي هي أحد أركان الإسلام خاصة بالمسلمين ، وكذلك زكاة الفطر . ولم يمنعوا صدقة التطوع عن مسلم ولا كافر ولا بر ولا فاجر ، بل قالوا إذا اضطر الذي أو المعاهد إلى القوت وجب على المسلمين سد رمقه ، كما يجب عليهم سد رمق المسلم المضطر ، إلا من أهدر الشرع دمه . وعموم نصوص القرآن والاحاديث تدل على أن الله كتب الرحمة والاحسان على كل شيء ، ومن ذلك حديث الصحيحين « في كل كبد رطبة أجر » ، يعني في جميع الأحياء (إنسان وحيوان)

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِقُكُمْ
وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ
(٢٧٢) للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض
يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس لخافاً وما
تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) الَّذِينَ
يَاْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ
فَاتَّهَبَ مِنْهَا مَسَلَفًا وَمَرَّهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
(٢٧٥) يَحِقُّ لِلَّهِ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)

التفسير

﴿ ليس عليك هدام ﴾ نزلت هذه الآية لإرشاد المسلمين الى عدم التخرج من الانفاق على المشركين لانهم غير مهديين ، ومن شأن المؤمن أن يكون خيره عاما إذ كان النبي ﷺ لم يكلف بهداية الكافرين بالفعل وإنما كلف البلاغ فقط .

واعلم أن أمر الناس في الاهتداء مفوض إلى ربهم بما وضعه لسير عقولهم وقلوبهم من السنن ، فغيره أولى بأنه يكلف ذلك ، فليس علينا إذا أن نمنع الخير عن الكافر عقوبة له على كفره أو جذبا له إلى الإيمان واضطرازا إلى الهداية فإن الهداية ليست

علينا ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ بتوفيقه إلى النظر الصحيح المؤدى إلى الاعتقاد الجازم الذي يثمر العمل ، وأما الباعث على الانفاق فيجب أن يكون ما أرشدنا اليه

سبحانه ﴿ وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم ﴾ أى أن نفعه عائد عليكم في الدنيا ، ومعنى كونه خيرا في الدنيا أنه يكف شر الفقراء ويدفع عنهم أذاهم ، فان الفقراء إذا ضاق بهم الأمر واشتدت بهم الحاجة يدفعون على أهل الثروة بالسرقه والنهب والايذاء بحسب استطاعتهم ، ثم يسرى شرهم إلى غيرهم ، وربما صار فسادا عاما بسوء القدوة

فذهب بالأمن والراحة من الأمة ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ أى لا تنفقون لأجل جاه أو مكانة عند المنفق عليه ، وإنما تنفقون لوجه الله ، فلا فرق بين معطى ومعطى إذا كان الفقير مستحقا يتقرب بازالة ضرورته إلى الرزاق

الرحيم الذى لم يحرم أحدا من رزقه لاعتقاده ﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم ﴾ أى في الآخرة لا ينقصكم منها شيء . وعد أولا بأن خير الانفاق على المنفقين في

الدنيا بقوله ﴿ فلا أنفسكم ﴾ ثم وعد عليه بالجزاء عليه في الآخرة موفى تاما وقال

﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ أى لا تنقصون من الجزاء عليه شيئا ولو نقيرا أو قتيلا

﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ﴾ الاحصار في سبيل الله يدل :

(١) على أن المراد بالاحصار المانع من الكسب ما كان ترك الكسب فيه لسبب اضطرارى ، ويفهم منه أن حبس النفس في سبيل الله — أى في الأعمال المشروعة

التي تقوم بها المصالح كالجهاد والعلم — لا ينبغي أن يمنع الإنسان عن الكسب الذي يستطيعه للقيام بأدائه ، بل يطلب منه أن يعمل للمصلحة العامة في أوقات الفراغ من العمل الذي به قوام معيشته ، فإن ترك الكسب مختاراً لم يحل له أن يأخذ الصدقة ، وأما إذا كان الكسب متعذراً وجب عليهم ترك الكسب وحبس أنفسهم في سبيل الله ، وكانوا بذلك محصرين بالاضطرار الشرعي ، ووجبت نفقتهم في بيت المال وإلا فعلى أغنياء الأمة .

(٢) ﴿ لا يستطيعون ضرباً في الأرض ﴾ أي أنهم عاجزون عن الكسب .
والضرب في الأرض هو السفر لنحو التجارة ، وبذلك فسرهُ المفسرون هنا

(٣) ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ أي إذا رآهم الجاهل بحقيقة حالهم يظنهم أغنياء لما هم عليه من التعفف ، وهو المبالغة في التزهد عن الطمع فيما في أيدي الناس

(٤) ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ أي بعلاماتهم الخاصة بهم ، وهذه تترك لفراسة المؤمن الذي يتحرى بالانفاق أهل الاستحقاق ، فصاحب الحاجة لا يخفى على المتفرس مهما تستر

(٥) ﴿ لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ أي لا يسألون الناس شيئاً مما في أيديهم سؤال إلحاح كما هو شأن الشحاذين .

والسؤال محرم في الإسلام لغير ضرورة . ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : المسألة لا تحل إلا لثلاثة : (١) لذي فقر مدقع ، (٢) أو لذي غرم مفطع (كدفع مظلمة وحفظ مصلحة) ، (٣) أو لذي دم موجد ، (الذي يتحمل الدية عن الجاني) . وقال أيضاً : من سأل وعنده ما يغنيه فأنما يستكسر من جمر جهنم ، قالوا يا رسول الله وما يغنيه قال : ما يغديه أو يعيشه ،

﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ لا يخفى عليه حسن النية فيه وتحري النفع به ووضعه في موضعه وإيتاؤه أحق الناس فأحقهم به فهو يحاذى عليه بحسب

ذلك ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ﴾ وفيه بيان عموم
الأوقات مع عموم الأحوال من الاظهار والاختفاء ، وفي تقديم الليل على النهار
والسر على العلانية إيدان بتفضيل صدقة السر ولكن الجمع بين السر والعلانية يقتضى
أن لكل منهما موصفا يقتضيه الحال وتفضله المصلحة لا يحل غيره محله ﴿ فلم أجزم
عند ربهم ﴾ يشعر بأن هذا الأجر عظيم ، وفي إضافتهم إلى الرب ما فيها من التكريم
﴿ ولا خوف عليهم ﴾ يوم يخاف البخلاء المسكون من تبعه بخلمهم ﴿ ولا هم
يخزون ﴾ يوم لا ينفع مال ولا بنون . لما حث الله تعالى على الانفاق وبين ما يحصل
للمنفق من الأجر العاجل والآجل ، عقبه بذكر الربا الذى ظنه الجاهل زيادة فى
المال وهو فى الحقيقة محق فى المال فقال : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما
يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ بتنفير من الربا وتبشيع لحال آكله ، والمراد
بالأكل الأخذ لأجل التنفير عنه ، وأكثر مكاسب الناس تنفق فى الأكل . (الربا)
فى اللغة الزيادة ، وكان أكلهم ذلك فى جاهليتهم ، والرجل كان يكون له على الرجل
مال إلى أجل فاذا حل الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذى عليه المال : آخر عني
دينك وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافا مضاعفة ، فنهاهم
الله عز وجل فى إسلامهم عنه . أما قيام آكلى الربا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان
من المس فان أولئك الذين فتنهم المال واستعبدهم حتى ضريت نفوسهم بجمعه ،
وجعلوه مقصودا لذاته ، وتركوا لأجل الكسب به جميع موارد الكسب الطيبعى ،
تخرج نفوسهم عن الاعتدال الذى عليه أكثر الناس ، ويظهر ذلك فى حركاتهم
وتقلبهم فى أعمالهم ، كما تراه فى حركات المولعين بأعمال البورصة المغرمين بالقمار ،
يزيد فيهم النشاط والانهاك فى أعمالهم حتى يكون خفة تعقبها حركات غير منتظمة ،
وهذا هو وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط المسوس ، فان التخبط من الخبط وهو
ضرب غير منتظم وكخط العشواء . وإذا كان ما شنع به على المراهين من خروج
حركاتهم عن النظام المألوف هو أثر اضطراب نفوسهم وتغير أخلاقهم كان لا بد أن
يعتثوا عليه فان المرء يبعث على مامات عليه ، لأنه يموت على ما عاش عليه . وهناك

تظهر صفات النفس الخسيسة في أخس مظاهرها كما تتجلى صفات النفس الزكية في أبهى مجاليها ﴿ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ﴾ أى ذلك الاكل للربا مسبب عن استحلالهم له وجعله كالبيع وما هو كالبيع فان البيع معاوضة بين شيئين ، وأما الربا الذى كانوا يأكلونه فهو زيادة عن دينهم يزيدونها عند تأخير الاجل لا يقابلها شئ ، وما يؤخذ بغير مقابل فهو من الباطل ، لذلك حرم الله الربا دون البيع

﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ ولو كانا متساويين لما اختلف في حكمهما عند أحكم الحاكمين ، فكل ما فيه معاوضة صحيحة خالية من أكل أموال الناس بالباطل الذى لا يقابله عوض فهو بيع حلال ، وانما تحرم الزيادة التى يأخذها صاحب المال لاجل التأخير فى الاجل وهى لا معاوضة فيها ولا مقابل لها فهى ظلم ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾ تقدم الكلام عن الوعظ وكون أحكام القرآن مقرونة بالوعظ ، فمن بلغه تحريم الله تعالى للربا ونهيه عنه وترك الربا فوراً بلا تراخ ولا تردد انتهاه عما نهى الله عنه فله ما كان أخذه فيما سلف من الربا لا يكلف رده إلى من أخذه منهم بل يكتفى فيه بأن لا يضاعف عليهم بعد البلاغ شيئاً ﴿ وأمره إلى الله ﴾ يحكم فيه بعدله ، ومن العدل أن لا يؤخذ إلا بما أكل من الربا قبل التحريم وبلوغه الموعظة من ربه ، ولكن العبارة تشعر بأن إباحة أكل ما سلف رخصة للضرورة وتوىء الى أن رد ما أخذ من قبل النهى الى أربابه الذين أخذ منهم من أفضل العزائم ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ومن عاد الى ما كان يأكل من الربا المحرم بعد تحريمه هم أهل النار الذين يلزمونها كما يلزم الصاحب صاحبه فيكونون خالدين فيها ﴿ يحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ المراد بالحق هو ما يلاقى المرابى من عداوة الناس ، وما يصاب به فى نفسه من الوسوس وغيرها ، أما عداوة الناس فمن حيث هو عدو المحتاجين وبغيض المعوزين ، وقد تقضى العداوة والبغضاء الى مفاسد ومضرات واعتداء على الاموال والانفس والثروات ، وقد ظهر أثر ذلك فى الأهم التى فشا فيها الربا إذ قام الفقراء فيها يعادون الأغنياء ويتألب العمال عليهم ، حتى صارت هذه المسائل أعقد المسائل عندهم ، ولو قرأنا ما يكتبه

الاشتراكيون عن أصحاب رؤوس الأموال فهم لا يرضون إلا بمحققهم وسلبهم لأموالهم الذين يرون أنهم ما أخذوها الا سرقة واغتصابا من أجورهم وتنمية أموالهم بالباطل وأما إرباء الصدقات فهو زيادة فائدتها وثمرتها في الدنيا وأجرها في الآخرة . فعنى يمحى الله الربا ويربى الصدقات أن سنته قضت في عابد المال الذى لا يرحم معوزا ولا ينظر معسرا إلا بما لا يأخذه ربا بدون مقابل أن يكون محروما من الثمرة الشريفة للثروة ، وهى كون صاحبها ناعما عزيزا شريفا عند الناس لكونه مصدرا لخيرهم والتفضل عليهم واعانتهم على زمنهم ، كما يكون محروما في الآخرة من ثواب المال ، فهو في عدم انتفاعه بماله هذا الضرب من الانتفاع كمن محق ماله وهلاك ، وقضت سنته في المتصدق أن يكون انتفاعه بماله أكبر من ماله (والله لا يحب كل كفار أثيم) قالوا لا يحب لا يرضى ، والكفار المستحل للربا ، والأثيم المقيم على الأثم ، والكفار هنا هو المتأذى على كفر نعم الله عليه بالمال ، اذ لا ينفق منه في سبيله ولا يواسى به المحتاجين من عباده ، والأثيم هو الذى جعل المال آلة لجذب ما فى أيدي الناس الى يده فافترض اعسارهم لاستغلال اضطرارهم (١) .

(١) نتج عن استغلال أصحاب رؤوس الأموال للفقراء والمعوذين مذهب الاشتراكية ، وهم يقولون ان الاموال الوافرة التى فى أيدي الأغنياء أخذت فى الغالب خلسة من ألوف البائسين . والاشتراكيون يعلمون أن المساواة فى الرزق لا تتحقق ، ولكنهم يرجون أن تتم المساواة فى الفقر على أيديهم

مذاهب الاشتراكية متعددة الأنواع مختلفة فى الاشكال . ولكن أشيع مذاهب الاشتراكية متحدون فى أحقادهم على المجتمع ورأس المال وأصحاب الأعمال ، ويقترحون للقضاء على هذه الأمور ايجاد وسائل واحدة . فسليم القلب منهم يرغب فى نزع الاموال من أيدي أصحابها ، وأما المغالى فيضيف الى ذلك إبادة المغوليين (راجع كتاب روح الاشتراكية تأليف الدكتور غستاف لوبون تعريب الاستاذ زعيتر)

وما مشا كل العصر الحاضر من الناحية المالية والنزاع القائم بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال إلا صدق آيات الربا الذى حذر منه القرآن الكريم وأندر . وقد تتحقق وعيده . وهذه آية من آيات صدقه وأنه تنزيل من علم خير

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن
كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَإِن تُصَدِّقُوا خَيْرَ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)
وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
(٨١٣)

التفسير

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أى صدقوا تصديق لإذعان بما جاء من عند الله فى هذه المسألة
كغيرها (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أى الأعمال التى تصلح بها نفوسهم وشأن من يعيش
معهم ، ومنها مواساة المحتاجين والرحمة بالبائسين وإظهار المعسرين ، ومن سنة
القرآن أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح فى مقام الوعد ، لأن الإيمان الحقيقى المقرون
بالإذعان يتبعه العمل الصالح حتما لا يتخلف عنه ، وهذا برهان على ما قلناه فى تفسير
الآية السابقة (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) التى تذكر المؤمن بالله تعالى فتزيد فى إيمانه وحبه
لربه ومراقبته له حتى يسهل عليه طاعته فى كل شئ (وَأَتَوُا الزَّكَاةَ) التى تزكى النفس
من رذيلة البخل والحرص وتميزتها على أعمال البر حتى تسهل عليها ويكون ترك
أموال الناس بالربا أسهل . وذكر الصلاة والزكاة بعد الأعمال الصالحة التى تشملهما
لأنهما أعظم أركان العبادة النفسية والمالية ، فمن أتى بهما كاملتين سهّل عليه كل عمل
صالح (فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) تقدم نظير هذا

الجزء قريبا فلا حاجة لاعادة التذكير بمعناه ، وجملة الآية تعريض بأكل الربا كأنه يقول لو كان من هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكف عنه لكنه كفار أثيم وتمييدا لما بعدها وهو ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ﴾ وصفهم بالايمن وذكرهم بالتقوى ، ثم انتقل إلى الأمر بترك ما بقى من الربا لمن كانوا يرايون منهم عند غرماهم ، ثم وصل ذلك بقوله ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن كان إيمانكم تاما شاملا لجميع ما جاء به محمد ^{صلى الله عليه وسلم} من الأحكام فذروا ما بقى من الربا ﴿ فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ أى فإن لم تتركوا ما بقى لكم من الربا كما أمرتم فاعلوا واستيقنوا بأنكم على حرب من الله ورسوله ، إذ نبذتم ما جاءكم به رسوله عنه - وحرب الله طم بغضبه وانتقامه - وهذا الانتقام أو هذه الحرب وقعت بالفعل بين أصحاب ردوس الأموال والعمال وفيما بين أصحاب ردوس الأموال بعضهم مع بعض وقد نشأ عن ذلك الاستعمار لتنمية ردوس الأموال ، ثم النزاع بين الدول المستعمرة ، بما أدى إلى الحرب العالمية الأولى والثانية ، فأتت الحروب على محق هذه الأموال بما أعدته من أدوات الحرب من طيارات ودبابات وغواصات ، فنسفت الديار وخربت الأوطان وأهلكت الحرث والنسل ، ولا يزال العداء مستحكما بين أصحاب ردوس الأموال (المرايين) وبين العمال الذين يستغلون من ناحية ، وفيما بين أصحاب ردوس الأموال بعضهم مع بعض لا يجاد أسواق لشمير أموالهم عن الربا وعن طريق الاستعمار البغيض الذى أصبح على وشك الزوال ﴿ وإن تبتم ﴾ ورجعتم عن الربا امتثالا وخضوعا ﴿ فلكم ردوس أموالكم لا تظلمون ﴾ غرماكم بأخذ الزيادة ﴿ ولا تظلمون ﴾ بنقص شيء من رأس المال بل تأخذونه كاملا ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ أى وإن وجد غريم معسر من غرمائكم فأنظروه وأمهلوه إلى وقت يسار يتمكن فيه من الأداء ﴿ وأن تصدقوا خير لكم ﴾ أى وتصدقكم على المعسر بوضع الدين عنه وإبرائه منه خير لكم من إنظاره فهو ندب إلى الصدقة والسماح للمدين المعسر لما فيه من التعاطف والتراحم بين الناس وبر بعضهم ببعض ، وذلك من أعظم أسباب هناء المعيشة وحسن حال الأمة ، ولذلك نيه إلى العلم بذلك فقال ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ لأن من لا يعلم وجه الخيرية في شيء لا يعمل

ومن علم عمل حتما ، فعليكم بالعلم الذي يهديكم الى خير العمل الذي يقرب بعضكم من بعض ويجعلكم متحابين متوادين ﴿ و اتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ﴾ أى لا يشغلكم حب الدنيا بتكثير المال وجمعه من حرام وحلال عن التفكير فى سلطان الله وقدرته والتعرب اليه بما فيه تمام حكمته — التذكير بيوم القيامة — الذى تبطل فيه هذه الشواغل وتلاشى هذه الصوارف ، حتى لا يشغل الانسان فيه شئ ما عن الله تعالى وما أعده من الجزاء للعباد على قدر أعمالهم ، ولذلك قال بعد التذكير ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت ﴾ أى تجازى على ما عملت فى الدنيا جزاء وافيا ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أى ولا ينقصون من أجورهم شيئا ، بل قد يزداد المحسنون منهم فيعطون أكثر مما يستحقون على إحسانهم .

يا أيها الذين آمنوا إذا تدانيتُم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليمال الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الاخرى ولا ياب الشهداء إذا ماعدوا ولا تسموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم اقتسط عند الله واقوم للشهادة وادنى الا ترتابوا إلا أن تكون تجرة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ
تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُودِ الَّذِي أَوْثَقَ أَمْنَهُ وَلْيَتَّقِ
اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ مِثْلُ حُورِ الْقُلُوبِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ
(٢٨٣) اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ
يَحْصِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبَ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

التفسير

لما أمر سبحانه بانظار المعسر وتأجيل دينه عقبه ببيان أحكام الحقوق المؤجلة

وعقود المدائنة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
فَاكْتُبُوهُ﴾ تداينتم دايين بعضكم بعضا ، وهو يأني بمعنى تعاملتم بالدين ، والمراد
بالدين المال الذي يكون في الذمة ، والدين عام يشمل القرض والسلم وبيع الأعيان
إلى أجل وهو الصواب ، والأجل الوقت المضروب لانتهاى شيء ، والمسمى المعين
بالتسمية كشهر وسنة مثلا ، فاكتبوه معناه فاكتبوا الدين في صك لئلا يقع فيه
غشيان أو جهود ، وليكون ذلك توثقة للحق ، لأن ذلك أدفع للنزاع وأقطع للخلاف .

بعد أن أمر بالكتابة إجمالا بين كيفيتها ومن يتولاها فقال ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ
بِالْعَدْلِ﴾ أى ليسكن فيكم كاتب للديون عادل في كتابته يساوى بين المتعاملين وهو
أمر للمتدائنين بتخير الكاتب ، وأن لا يستكتبوا إلا فقيها دينا ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبُ أَنْ
يَكْتُبَ كَمَا عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ ومعنى هذا أن يكون كاتب الديون عادلا عارفا بالحقوق والأحكام
فيما لا يقع التنازع بعد فيما يكتبه ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبُ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَيْهِ اللَّهُ﴾
دليل على أن العالم بما فيه مصلحة الناس يجب عليه إذا دعى إلى القيام اليها أن يجيب

الدعوة ، ولذلك لم يكتف بالنهي عن الإيذاء عن الكتابة بل أمر بها أمرا صريحا فقال ﴿ فليكتب ﴾ وهذا ظاهر أنه تأكيد ، لأن الموضوع غريب في نظر الأئمة الذين خوطبوا به أولا ﴿ وليلل الذي عليه الحق ﴾ أى ويليق على الكاتب ما يكتبه من عليه الحق من المتعاملين لئلا يكون إملاله حجة عليه تبينها الكتابة وتحفظها ﴿ وليتق الله ربه ﴾ فى إملاله بأن يبين الحق الذى عليه كاملا ﴿ ولا يبخس منه شيئا ﴾ أى ولا ينقص منه شيئا ما وإن قل ، ﴿ فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل ﴾ ففسروا السفيه بضعيف الراى أى من لا يحسن التصرف فى المال بضعف عقله ، والضعيف الصبي والشيخ الهرم ، ومن لا يستطيع الاملال هو الجاهل والألكن والأخرس ، وولى الانسان من يتولى أموره ويقوم بها عنه ، وقد اكتفى فى أمر الولي بالعدل . ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾ أى اطلبوا أن يشهد على ذلك رجلان من حضر ذلك منكم أو أشهدوهما على ذلك ، والشهيد من شهد الشيء وحضره بأمان من رجالكم ، والخطاب للمؤمنين يدل على أنهم لا يستشهدون من لم يكن منهم ﴿ فان لم يكونا ﴾ أى من تستشهدونهما ﴿ رجلين ﴾ جعل المفسرون الضمير للشاهدين بحسب الإرادة والقصد ﴿ فرجل وامرأتان ﴾ يستشهدان ، أو فليستشهد رجل وامرأتان ﴿ بمن ترضون من الشهداء ﴾ قالوا أى بمن ترضون دينهم وعدالتهم حال كونهم من الشهداء ﴿ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ وشهادة المرأتين شهادة واحدة فإذا تركت إحداهما شيئا من الشهادة كأن نسيتها أو ضل عنها تذكرها الأخرى وتتم شهادتها ، وللقاضى بل عليه أن يسأل إحداهما بحضور الأخرى ويعتد بجزء الشهادة من إحداهما وبقايتها من الأخرى ﴿ ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ إلى تحمل الشهادة وظاهر النهي أن الامتناع عن الشهادة تحملا وأداء محرم وأن الاجابة واجبة ، وقد صرح من قال بذلك بأنه فرض كفاية لا يجب على من دعى اليه إلا إذا لم يوجد غيره يقوم به ﴿ ولا تساموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ﴾ أى لا تمهلوا ولا

تضجروا ولا تكسوا من كتابة الدين أو الحق سواء كان صغيرا أو كبيرا مبينا ثبوته
 في الذمة إلى أجله المسمى ﴿ ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ﴾
 الخطاب للمؤمنين والاشارة إلى جميع ما ذكر من الأحكام لا لواحد منها ، وتلك سنة
 القرآن في بيان حكمة الحكم وعليه الأمر والنهي . ومعنى كونه أقسط عند الله أنه
 أعدل في حكمه أى أخرى باقامة العدل بين المتعاملين . ومعنى كونه أقوم للشهادة أنه
 أعون على إقامتها على وجهها ﴿ وأدنى ألا ترتابوا ﴾ بينكم معناه وأقرب إلى انتفاء
 ارتياب بعضكم ببعض ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح
 أن لا تكتبوها ﴾ والمعنى الاستثناء من الكتابة ذلك مطلوب أو أحب إلا أن تكون
 المعاملة تجارة حاضرة أو إلا أن تكون توجد تجارة حاضرة تدار بين المتعاملين
 بالتعاطى بأن يأخذ المشتري المبيع والبائع الثمن فلا حرج في ترك كتابتها ولا إثم .
 وفي نفي الجناح إشارة إلى أن كتابة ذلك أولى ، وهو إرشاد إلى استحباب ضبط
 الإنسان لماله وإحصائه لما يرد عليه وما يصدر عنه . ﴿ وأشهدوا إذا تباعتم ﴾ قيل
 معناه هذا التباع المذكور هنا وهو التجارة الحاضرة ، واكتفى بالشهادتين لأن ما
 عساه يقع منهما من المجاحدة ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ نهى الكاتب والشهيد أن
 يضر أحد المتعاملين بعدم الاجابة أو التحريف والتغيير ونحو ذلك ، ومعنى آخر نهى
 المتعاملين عن ضرر الكاتب أو الشهيد بأن يدعي إلى ذلك وهما مشغولان بهم لهما
 فيكلفان تركه ، والمتبادر من النهي أنه عن مضارة المتعاملين للكاتب والشهيد ﴿ وإن
 تفعلوا ﴾ ما نهيت عنه من ضرر الكاتب والشهيد ﴿ فانه فسوق بكم ﴾ أى فان هذا
 الفعل خروج بكم عن حدود طاعة الله تعالى إلى معصيته ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله والله
 بكل شئ عليم ﴾ أى اتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه وهو يعلمكم ما فيه
 قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم فانكم لولا هدايته لا تعلمون ذلك ، وهو
 سبحانه العليم بكل شئ فاذا شرع شيئا فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد
 وجلب المصالح لمن اتبع شرعه

ثم ذكر سبحانه حكم الوثيقة بالرهن عند عدم الوثيقة بالأشهاد فقال : (وإن كنتم)

أيها المتداینون المتبايعون (على سفر ولم تجدوا كتابا فرهان مقبوضة) رهان جمع رهن بمعنى مرهون ، وليس تمليق مشروعية أخذ الرهن بالسفر وعدم وجود كاتب يكتب وثيقة الدين لاشتراطهما معا ، وإنما المراد بيان الرخصة في ترك الكتابة لعذر ، وكون الرهن يقوم مقام الكتابة في الاستيثاق عند عدم تيسرهما كما يكون في

حال السفر ، وإلا فقد رهن النبي ﷺ درعه في المدينة ليهودي (فإن أمن بعضهم

بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته وليتق الله ربه) والمعنى ان اتفق أن أحدا منكم ائتمن آخر على شيء فعلى المؤمن أن يؤدي الأمانة إلى من ائتمنه وليتق الله ربه فلا يتخون الأمانة شيئا انه لا حجة عليه بها ولا شهيد ، فإن الله ربه خير الشاهدين ، فهو أولى بأن يتق ويطاع

(ولا تكتموا الشهادة من يكتمها فإنه آثم قلبه) القلب لب الانسان وآلة عقله وشعوره ، وكتمان الشهادة عبادة عن حبس ذلك فيه ، وقد جعله الآثم أي موضع الآثم في هذا الكتمان . ودلت الآية على أن الانسان يؤاخذ على ترك المعروف كما يؤاخذ على فعل المنكر ، لأن الترك في الحقيقة فعل للنفس يعبر عنه ما يكتم والكتمان في مثل هذه الشهادة وبالكف في غيرها ، ولكل مقام مقال ، فكل ذلك يعبر فعلا وعملا فلذلك قال (والله بما تعملون عليم) وفي هذا من الوعيد ما مر بيان مثله

(لله ما في السموات وما في الأرض) الآية متصلة بما قبلها ، ويصح أن تكون متممة لها لأن مقتضى كونه علما بكل شيء أن له كل شيء ، فهذا كالدليل على كونه عالما بكل شيء ، أي انه عليم به لأنه وهو خالفه فهو كقوله ألا يعلم من خلق ، ولهذا الاستدلال يتقرر النهي عن كتم الشهادة وكونه آثما يعاقب عليه وأكده بقوله

(وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) كأنه يقول إن تساهلتم في هذه الأحكام وأضعتم الحقوق فتظاهرت بالأمانة مع انطواء النفس على الخيانة وغالطتم الناس وأكلتم أموالهم بذلك أو أضعتموها بكتمان الشهادة ونحو ذلك فإن الله يحاسبكم

ويعاقبكم على ذلك ، لأن له ما في السموات والأرض ، ومنها أنتم وأعمالكم النفسية
والبدنية ، وجعلها بعضهم متعلقة بأحكام السورة كلها ، والمراد بقوله ﴿ ما في أنفسكم ﴾
الاشياء الثابتة في أنفسكم وتصدر عنها أعمالكم كالحقد والحسد وألفسة المنكرات التي
يقرتب عليها ترك النهي عن المنكر ، فان السكوت عن النهي عن أمر كبير يحل الله
عقوبته في الأمة بسببه ، أما إبداء ما في النفس فهو إظهاره بالقول أو الفعل ، وأما
إخفاؤه فهو ضده ، والابداء والاختفاء سيان عند الله لأنه ﴿ يعلم خائنة الأعين وما
تخفي الصدور ﴾ والمراد في مرضاته على تزكية النفس وطهارة السريرة لا على لوك
اللسان وحركات الأبدان ، وأما المحاسبة فهي على ظاهرها ، ذلك أن للنفوس على
اعتقاداتها وملكاتهما وعزائمها وإرادتها موازين - يعرف بها يوم الدين رجحان الحق
والخير أو الباطل والشر - هي أدق مما وضع البشر من موازين الأعيان وموازن
الأعراض كالحرق والبرد ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا
وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ . ﴿ فيغفر لمن يشاء
ويعذب من يشاء ﴾ أي فهو بما له من الملك المطلق يغفر لمن يشاء أن يغفر له ويعذب
من يشاء عذابه ، وشأن الله تعالى في المحاسبة أن يذكر الانسان أو يسأله لم فعلت ،
فبعد أن يرى العهد أعماله الظاهرة والباطنة يغفر أو يعذب ، فن الناس من لم تصل
أعماله المنكرة الى أن تكون ملكات له ، فالتة سبحانه يغفرها له ومنها من تكون ملكات
فهو يعاقبه عليه ، وهو يفعل ما يشاء ويختار ، والآية إنذار وتخويف ليس فيها موضع
للقطع بمغفرة ذنب ما وان كان صغيرا ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ أي فهو بقدرته
ينفذ ما تعلق به مشيئته

هَامِنُ الرُّسُولِ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمِلَّةَكَ
وَكُتِبَ وَرَسُولُهُ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا

اَكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لِاتِّخَاذِنَا اِنْ نَّسِينَا اَوْ اَخْطَاْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا اِكْرَامًا
حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ
لَنَا وَارْحَمْنَا اَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

التفسير

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى صدَّقَ الرسول بما أنزل
إليه فى هذه السورة وغيرها من العقائد والأحكام والسنن والبيئات والهدى تصديق
إذعان واطمئنان ، وكذلك المؤمنون من أصحابه عليهم الرضوان ، ﴿ كل آمن بالله
وملائكته وكتبه ورسله ﴾ أى كل منهم آمن بوجود الله ووحدانيته ونزليه وكمال
صفاته وحكمته وسننه فى خلقه ، وبوجود الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين
الرسل من البشر ينزلون بالوحي على قلوب الأنبياء ، وأما البحث عن ذواتهم ما هى
وعن صفاتهم وأعمالهم كيف هى فهو بما لم يأذن به الله فى دينه ، والمراد بالايمن
بالكتب والرسل جنسها أى يؤمنون بذلك إيماناً إجمالياً فيما أجمله القرآن وتفصيلاً
فما فصله لا يزيدون على ذلك شيئاً ويقولون ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ والمعنى
أن من شأن المؤمنين أن يقولوا هذا معتقدين أنهم فى الرسالة والتشريع سواء كثر
قوم الرسول أو قلوا وكثرت الأحكام المنزلة عليهم أم قلت وتقدمت البعثة أم تأخرت
﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ أى تلقنا القول فسمعنا سماع وعى وفهم ، وأطعنا ما أمرنا
به فيه إطاعة إذعان وانقياد ﴿ غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ أى يسألونه تعالى
أن يغفر لهم ما عساه يطرأ على أنفسهم فيعوقها عن الرقى فى معارج الكمال الذى دعاها
إليه الايمان ، والغفران والمغفرة الستر وستر الذنب يكون بعدم الفضيحة عليه فى الدنيا
وترك أجزاء عليه فى الآخرة ، وإنما يطلب هذا بالتوبة واتباع الديانة الحسنة مع
الدعاء الذى يزيد فى الايمان ، وبذلك يمحى أثر الذنوب من النفس فى الدنيا فيرجى

أن تصير اليه تعالى في الآخرة نقيّة زكية، لأن هذا المصير وحده هو الذي يكون وراء
الجزاء بحسب درجات النفوس في معارج الكمال

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ولا يحاسبها إلا على ما كلفها . والتكليف هو
الإلزام بما فيه كلفة ، والوسع ما تسعه قدرة الإنسان من غير حرج ولا عسر . والمعنى
أن شأنه تعالى وسننه في شرع الدين أن لا يكلف عباده ما لا يطيقون . ﴿ لها ما كسبت
وعليها ما اكتسبت ﴾ الآية تدل على أن فطرة الإنسان مجبولة على الخير ، وأنه يتعود
الشر بالتكلف والتأسي ، والمعنى أن لها ثواب ما اكتسبت من الخير وعليها عقاب
ما اكتسبت من الشر لا يؤاخذ بذنوبها غيرها ولا يثاب غيرها بطاعتها . ﴿ ربنا
لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ المراد بالنسيان هنا لازمه وهو ترك الامتثال ،
وكذلك الخطأ ينشأ من التساهل وعدم الاحتياط والتزوي ، فهذا الدعاء لا يدل على
أن حكم الله في النسيان والخطأ أن لا يؤاخذ عليهما ، بل قصارى ما يؤخذ فيه أنه بما
يرجى العفو عنهما ، إذا وقع العبد فيهما بعد بذل جهده والاحتياط والتجري والتفكر
والتذكر وأخذ الدين بقوة وشعر بتقصيره فلجأ إلى الدعاء الذي يقوى في النفس
خشية الله تعالى والرجاء بفضله .

﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصرا ﴾ الإصر العبء الثقيل يأصر صاحبه أى يحبس
مكانه لا يستقل به لثقله ، وحمله أكثر المفسرين على التكليف الشاقة ﴿ كما حملته على
الذين من قبلنا ﴾ أى من الأمم التي بعث فيها الرسل ، وهو يتضمن الامتنان علينا
وإعلاهما ، فإن كان يجوز أن يحمل علينا الإصر ذاته فإنه يجب علينا الشكر لذلك
﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ من العقوبة أو من البلايا والفتن والمحن .
ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد به الشرائع والأحكام ، والمعنى ربنا لا تحمل
علينا ما يشق علينا من الأحكام بل حملنا اليسير الذي يسهل علينا حمله ، ربنا ووفقنا
لحل ما حملتنا والنهوض به كما تحب وترضى لكيلا نستحق بمقتضى سننك أن تحملنا
ملا طاقة لنا به من عقوبة المفرطين في دينهم المسرفين في أهوائهم ﴿ واعف عنا ﴾

بمعنى أن ما عسانا أن نلم به في أنفسنا وعدم العقوبة عليه ﴿ واغفر لنا ﴾ أي لا
تفضحننا باظهاره بذاته ولا بالمؤاخذه عليه ﴿ وارحمنا ﴾ في كل حال بما توفقنا له
من إقامة دينك والسير على سننك التي جعلتها بحكمتك طرقا للسعادة ﴿ أنت مولانا ﴾
الذي منحتنا أنواع الهداية ، وأبدتنا بالتوفيق والعناية ، فلا نعبد إلا إياك ، ولا
نستمع إلا لسواك ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ انصرنا على الجاحدين لآياتك ،
وسننك وأحكامك ، وعلى المرتابين منهم بالحجة والبرهان ، وعلى المعتدين منهم
بالسيف والسنان ، وغير ذلك من أسباب حماية الحق التي تختلف باختلاف الزمان
إن الله سبحانه ما علمنا هذا الدعاء لأجل أن نلوكه بألسنتنا ونحرك به شفاهنا
فقط ، بل علمنا إياه لأجل أن ندعوه به مخلصين له ، لاجئين اليه ، بعد أخذ ما أنزله
بقوة العمل به على قدر الطاقة ، واستعمال ما يصل اليه كسبنا من الوسائل والذرائع
التي هي وسائل الاستجابة في الحقيقة . فن دعاه بلسان مقالته ولسان حاله معاً فإنه
يستجيب له بلا شك ، ومن لم يعرف من الدعاء إلا حركة اللسان مع مخالفة الأحكام
وتكذب السنن فهو بدعائه كالمساخر من ربه الذي لا يستحق إلا مقتته وخذلانه .
وتوقف الدعاء على العمل يستلزم توقفه على العلم . فلا يكون الداعي داعياً حقيقة كما
يحب الله ويرضى إلا اذا كان قد عرف ما يجب عليه من الشريعة وسنن الاجتماع ،
واتبعه بقدر استطاعته . فاذا اتخذت الأمة الوسائل التي أمرت بها ، ودعت الله تعالى
أن يثبتها ويتم لها ما ليس في وسعها من أسباب النصر فإن الله يستجيب لها حتماً كما قال
تعالى ﴿ ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ونصر الله التزام طاعته واتباع
شريعته وأخذ العدة لكل أمر - فاذا صدقت النية وحسن العمل كان الله لدعائه عباده
السميع المجيب . ونصره منهم قريب . فنسأله تعالى الهداية والتوفيق الى أقوم طريق

الخاتمة

سورة البقرة

مكانتها - أهدافها - أثرها

كان ليبيد بن ربيعة من شعراء الجاهلية الفصحاء البلغاء الحكماء ، أدرك الإسلام وحسن إسلامه ، وسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشدته فقرأ عليه سورة البقرة ، فقال : انما سألتك عن شعرك ، فقال : ما كنت لأقول بيتاً من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران . فأعجب عمر قوله ، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقال كثير من أهل الأخبار أن ليبيداً لم يقل شعراً منذ أسلم .

هذه القصة على إيجازها وقصرها فيها الدلالة الكافية على مكانة القرآن من الفصاحة التي أعجزت الفصحاء ، والبلاغة التي دانت لها البلغاء ، والحكمة التي صمت أمامها الحكماء .

قال ابن العربي سمعت بعض أشياخي يقول : ان في سورة البقرة ألف أمر وألف نهى وألف حكم وألف خبر . وتعلمها عمر رضي الله عنه بنقدها وما تحتوي عليه في اثنتي عشرة سنة ، وابنه عبد الله في ثمان سنين . ويقال لها فسطاط القرآن ، وذلك لعظمها وبهائها وكثرة أحكامها ومواعظها . وهي أول سورة نزلت بالمدينة .

الأهداف التي ترمى إليها وآثارها

لو أن محي الإصلاح من المسلمين وغير المسلمين اجتمعوا في صعيد واحد ، وبحسوا عن قانون شامل ، ومنهج واضح لانقاذ الانسانية الحاضرة مما حل بها من البلاء ولدفع ما نزل بها من الشقاء ، ولتنهيرها طريق السعادة والهناء ، لما وجدوا خيراً من سورة البقرة بأن يحفظوها ويعلموها للناس ويعملوا بها ، فهي سورة جامعة لسعادة الدارين ، والفوز بالحسنين ، لأنها محيط بواعد الإصلاح الشامل للأفراد والجماعات ، مبيئة الطريق السوي وما فيه من جهد ومشقة ، وماذا

يجب أن يعرف المصلح من أخلاق الناس ، وماذا يجب أن يكونوا عليه من أخلاق ومعاملات :

(١) افتتحت هذه السورة بأن هذا الكتاب وهو القرآن الكريم الذي نزل على سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ ، فهو دليل الهداية والرشاد ، مبين طرق الخير والسيادة في هذه الحياة وما بعدها . ثم بعد ذلك عرف سبحانه الرسول ما تلقاه الهداية والاصلاح من قبول ولعراض ومقاومة وعدوان ، فأبان سبحانه أن البشرية تنقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول أصحاب الفطرة السليمة والعقول الراجحة ، وهم الذين يتقبلون دعوة المصلح ويعينونه ويؤازرونه بأنفسهم وأموالهم ، وهم المؤمنون المستجيبون للدعوة . والقسم الثاني وهم الذين انغمسوا في شهواتهم وملذاتهم فطمست قلوبهم وصمت آذانهم فاصبحوا عبيدا لنزواتهم وضلالاتهم ، فهم يجحدون كل دعوة تحالف هواهم ، وهم حرب على كل إصلاح ، أعداء سافرون لكل مصلح ، وهؤلاء هم الكافرون . والقسم الثالث هم الضعفاء المذبذبون الذين يعيشون لمنافعهم ، فهم مع داعي الاصلاح ظاهرا لتلس المنفعة وتجنب الأذى من أتباعه ، غير مؤتمنين بالدعوة في سرائرهم ، وهم مع شياطينهم من الرؤساء والمنايذين للدعوة ، وهم المتأفقون ، وهم عنصر خطر جدا على نجاح الدعوة فيجب أن يحذروا

هذا التقسيم الحكيم لم يكن خاصا بزمان الرسول ﷺ ، وإنما هو تعريف من الله سبحانه لطبائع الخلق الذين يوجدون في كل زمان وفي كل بيئة كبرت أو صغرت ، فكل من أراد أن يسير بسيرة الرسول ويدعو إلى الاصلاح - وهو ما يطالب به كل قادر عليه في أي ناحية من نواحي الحياة الدينية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية - عليه أن يعرف ما ستلقاه دعوته فلا ييأس ولا يتبرم ولا يقول صعب الطريق وطال الانتظار ، بل يجب أن يسير قدما مستهيناً بكل تضحية مهما كبرت حتى يحقق الخير المنشود لسعادة الهيئة الاجتماعية . وقد قص القرآن الكريم من عبر الماضي ما فيه المقتنع تسليية وحضا على الثبات والمثابرة والصبر والجلد في مقاومة الباطل . والاصلاح مطلوب في كل زمان وفي كل بيئة ، والقرآن يدعو اليه ويحض عليه .

ثم انتقل الكتاب الكريم بعد هذه المقدمة التي لا بد أن يعرفها كل مصلح وكل

داع إلى الإصلاح إلى أساس وحدة الإصلاح ، وهي قائمة على التوحيد وتكريم الانسان .

التوحيد

كرم الله الانسان وأبان له عن الحقيقة العليا بأنه لا إله إلا الله وأنه لا رب سواه ، فخره بذلك من أسر المعبودات ، وقد أقام له الحججة تلو الحججة والبرهان تلو البرهان حتى يعرف عن يقين ويستبين له الطريق القويم ، وكانت هذه الدعوة الخالدة أساسا يراد به تكريم الانسان وتنظيم العمران وتعميم الخير وتحقيق السعادة من طريق التوحيد ، والمؤاخاة ، والمساواة ، والحرية ، والسلام . فالتوحيد سبيل القوة ، والمؤاخاة سبيل التعاون ، والمساواة سبيل العدل ، والحرية سبيل الكرامة ، والسلام سبيل الرخاء . وتلك هي الغايات التي ترجو الانسانية بلوغها عن طريق العلم والمدنية .

« والتوحيد من الكلم الجوامع التي وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل مجتمع وأمة . هو توحيد الله ، وتوحيد العقيدة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد اللغة ، وتوحيد الحكم ، وتوحيد التفريع ، وتوحيد الدين والدنيا . »

وفكرة الوحدة الانسانية هي من أبرز جوانب السورة وفي سبيلها صدق الاسلام بكل دين أنزل ، وبكل نبي أرسل ، ودعا الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إلى خطة واحدة وكلمة سواء ، ثم وصل الدين بالدين - وكانت اليهودية والنصرانية تفصل بينهما ، فالأولى كان ههما الصفق والاجترار (التجارة والعمل) ، والأخرى كان سبيلها الرهبانية والتنسك - ولكن الاسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجسد ، فلا تعمل إلا بوجيه ، ولا تسير إلا بهديه . ثم آخى بين المؤمنين ليجتمعوا على صدق المودة ويتعاونوا على لاواء العيش ، فلا يبغي قوى ، ولا يبخل غنى ، ولا يظلم متسلاط . ثم وثق عرى الأخاء بين المجاهدين في سبيل الله ، حتى صار « المؤمن للؤمن كالبنين يشد بعضه بعضا ، وأصبح هؤلاء الإخوان القلائل الضعاف في بضع سنين أئمة الناس ، وورثة لكسرى وقيصر ، وفي سبيل الوحدة الانسانية والاخوة الاسلامية فرض الاسلام الزكاة وشرع الحج وأمر بالاحسان والبر ، ثم سوى بين الناس على

اختلاف ألسنتهم وألوانهم في الحقوق والواجبات بمحو العصبية الوطنية ، وقتل
 النعرة الجنسية . وجعل التقديم والتكريم للتقوى ، فقال الرسول الكريم في خطبة
 الوداع « إن ربكم واحد ، وأن أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب . » إن
 أكرمكم عند الله أتقاكم ، . لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ،

في هذه الأصول الإسلامية كما ترى أفضل ما في الديمقراطية ، وأعدل ما في
 الاشتراكية ، وأجمل ما في المدنية . فهي حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس ،
 وتقيم ما اعوج من نظام الدنيا . ولقد كانت كذلك يوم كان لحماها دولة ، ولدعاتها
 صوت ، ولعقديها يقين ،

هذه الدعوة التي تحمل الإنسانية اليوم بتحقيقها ، وقد تحققت في سالف الزمان في
 ناحية من نواحي المعمورة ، وهي أمنية مستقبل الأيام ، كان لإحدى دعائمها الجهاد
 حامى ذمارها ومعللى منارها ، هذا الجهاد وقد فرضه سبحانه في هذه السورة على كل
 قادر من المؤمنين ، ولم تكن وجهته الاستعمار والعدوان ، وإنما دفع الأذى وتوطيد
 الأمن وحماية العقيدة من كل بغى وطغيان ، وقد شرع بعد الهجرة - أى بعد أن تحمل
 المسلمون من الاضطهاد والعنف والعنت أكثر من ثلاث عشرة سنة أودوا فيها : في
 أنفسهم ، وفي أموالهم ، بكل أنواع الأذى ، وأخرجوا من ديارهم . وهذا الجهاد
 له أصول وحدود ، فهو مشروع لحماية الحق ، وتوطيد الحق ، على شرط أن لا يحيف
 ولا يجور ولا يعتدى ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا
 يحب المعتدين ﴾ فهو لا يأمر بقتل النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ، ولا بحرق
 الزرع ، وإهلاك الضرع . ولا يقاتل من لا يقاتله . وحدوده حماية العقيدة والأهل
 والوطن من كل عدوان حتى يعيش المسلمون أعزة في أوطانهم أحرارا في عباداتهم
 وعقائدهم .

وكان من تكريم الإنسان تلك القصة التي أبانت لنا في جلاء ووضوح خلق آدم
 أبى البشر وأن الله سبحانه جعله خليفة في أرضه ، وخلق كل ما يحيط به من سما
 وأرض لمنافعه ، وأن أساس هذا الاستمتاع وهذه الخلافة هو العلم ، إذ علم سبحانه
 آدم الأسماء كلها قبل أن يستخلفه فأصبح العلم شرطا وأساسا لدعوة كل إصلاح وكل

سعادة ، كما قال ﷺ : إذا أردت الدنيا فمليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فمليك بالعلم ، وإذا أردتهما معا فمليك بالعلم ، فكل من تخلف عن تحصيل العلم فقد تخلف عن ركب الحضارة ، وقعد به الجهل عن التقدم والرقى ، بل ساقه إلى الرق والاستعباد وقد ساد المسلمون الأولون لما أخذوا بهدى القرآن الكريم ، فكانت حياتهم بين تحصيل العلم والجهاد ، وهما الدعامتان القويتان في نهضة الأمة وصلاحها .

نرى في هذه السورة الكريمة كيف تبني الأسرة على خير أساس وأحكم وضع ، وما يجب على الرجل من إكرام زوجته ومعاملتها معاملة النظير للنظير والند للند (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة) وهذه الدرجة هي السياسة الرشيدة ، وإدارة دفة الأمور بحكمة وسداد . وإذا صلحت الأسرة صلح الوطن ، وإذا صلح الوطن صلحت الانسانية بصلاحهما .

نرى في هذه السورة أيضا أنه سبحانه أعلن الحرب على أعداء الانسانية الثلاثة : الجهل ، والمرض ، والفقر . أما الجهل فبدعوته إلى العلم ، والمرض فبأكل الطيبات وتحريم الخبائث والاعتدال في المأكل والمشرب في غير إسراف ولا تقتير ، ومحاربة الفقر بدعوة الموسرين إلى بذل الصدقات والانفاق في سبيل الله وذلك محض الرحمة . وثنى بالنهي عن الربا الذي هو محض القساوة ، محض المدالة ، فقد أمرنا الله ببذل المال حيث ينبغي البذل وهو الزكاة والصدقة والانفاق في سبيله ، وبتركه حيث ينبغي الترك وهو الربا ، وبتأخيره حيث ينبغي التأخير وهو انظار المعسر وبحفظه حيث ينبغي الحفظ وهو كتابة الدين والاشهاد عليه وعلى غيره من المعارضات ، وأخذ الرهن اذا لم يتمسر الاستيثاق بالكتابة والاشهاد ، ذلك بأن من يضيع ماله باهمال المحافظة عليه لا يكون محمودا عند الناس ولا ماجورا عند الله ، قال عبد الرحمن بن عوف ، يا حبذا المال اصون به عرضي وأتقرب به الى ربي . قالت الحكماء : لا خير فيمن لا يجمع المال يصون به عرضه ويحمي به مروءته ويصل به رحمه . وقال خالد بن صفوان لابنه يابني أوصيك باثنتين لن تزال بخير ما تمسكت بهما : درهمك لمعاشك . ودينك لمعادك . وقال سفيان الثوري : المال سلاح المؤمن في هذا الزمان

وإذا اتقلنا من هذه الاهداف العليا التي ذكرناها موجزة من غير تفصيل ولا إسهاب لنرى أثرها في صاحب الدعوة ﷺ ومن تابعه من المسلمين الأولين رضوان

الله عليهم فانا نرى عجباً : نرى العزيمة القوية في أكبر مضائها ومظاهرها ، فقد كانت غزواته صلى الله عليه وسلم وبعوثه وسراياه في عشر سنين أى منذ أنزلت هذه السورة واستجابوا لداعى القتال والجهاد في سبيل دفع الأذى وحماية الدعوة من العدوان هى ما يأتى : فالغزوات سبع وعشرون ، وقيل خمس وعشرون ، وقيل تسع وعشرون ، وقيل غير ذلك . قاتل منها فى تسع : بدر وأحد والخندق وقرىظة والمصطلق وخيبر والفتح وحنين والطائف . أما سراياه وبعوثه فقريب من ستين . والغزوات الكبار الامهات سبع : بدر وأحد والخندق وخيبر والفتح وحنين وتبوك . وفى شأن هذه الغزوات نزل القرآن وكان الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس جيشه لا يمتاز عن أصحابه لافى مطعم أو مشرب أو مجلس وكان من أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم قط . وإن فضل شئ . ولم يجد من يعطيه وفا جاء الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى أن يحتاج اليه . وكان لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير .

كان النبي صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة في كل أقواله وأفعاله يميل إلى التقشف لينتسبه الناس به فيقبلوا على العمل ، ويتعدوا عن البطالة والكسل ، فكان يخفف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويحمل حاجياته ، ويخدم أهله .

وكان يعامل أصحابه باللين والحسنى : يمزح ولا يقول إلا حقاً . لم يتخذ من نوع اثنين لا قيصين ولا ردائين . يأكل ما يجد ، وإذا لم يجد شيئاً صبر ، حتى شد الحجر على بطنه الشريف ، وطوى الليالى المتتابة ، وما أكل من خبز ولا من لحم مرتين في يوم واحد ، ولا من خبز في ثلاثة أيام متتالية . وكان أكثر خبزه الشعير ، وأكثر طعامه التمر والماء ، وقد عرضت عليه خزائن الأرض فقال : يارب أجوع يوماً وأشبع يوماً أتضرع اليك وأدعوك إذا جمعت ، وأحمدك وأثنى عليك إذا شبع ، هذا قليل من كثير من أخلاق سيد المجاهدين وإمام المسلمين ، والذي دعانا الله سبحانه إلى أن نفتدى به فقال تعالى ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾

وقد تابعه فى سيرته الكثير من المسلمين ، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر بن الخطاب والتاريخ حافل بما قاما به من جلائل الأعمال ، ويعتبر عصرهما العصر الذهبى فى الإسلام الذى تحققت فيه المبادئ الانسانية العليا من العدل الكامل وحرية الفكر

والعمل في دائرة الحق والجمال والخير ، وهذا ما نسميه اليوم بالديمقراطية التي شاد
يذكرها المنصفون من كبار كتاب الغرب .

قال الفيلسوف الانجائزي الكبير توماس كارليل : « لقد أخرج الله العرب
بالاسلام من الظلمات الى النور ، وأحيا به من العرب أمة هامدة وأرضا جامدة . وهل
كانت إلاقنة من جواللة الأعراب خاملة فقيرة تجوب القلاة منذ بدء العالم ، لا يسمع لها
صوت ، ولا تحس منها حركة فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ،
فاذا الخول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعف رفعة ، والضعف قوة ،
والشرارة حريقا . وسع نوره الانحاء ، وعم ضوءه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال
بالجنوب ، والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة
العرب رجل في الهند وأخرى في الأندلس ، وأشرقت دولة الاسلام حقبسا عديدة
ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس ورونق الحق والهدى على نصف
المعمورة . وكذلك الايمان العظيم وهو مبعث الحياة ، ومنبع القوة . وما زال للأمة
رقى في درج الفضل وتعرج الى ذرى المجد ، مادام مذهبها اليقين ، ومنهاجها الايمان
السليم . »

إن دعوة الاسلام دعوة الى إخاء شامل ، وعدل كامل ، لا تدخل فيه الفروق
الجنسية ، بعيد كل البعد عن التحيز الى العصبية ، فدعوته دعوة لإنسانية عامة تدعو الى
السلام العام بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى ، وهي كما قال بحق الأستاذ
(الياس خليل زخريا) أمين السر العام لمنظمة الغساسنة المؤلفة من نصارى العرب
بليشان في احتفال مولد النبي ﷺ قال : « ليس مولد ابن عبد الله القرشي العربي مولداً
للبيضاء بين العرب ، ولكنه مولد لقوة ، وتححر وجهاد ، وتسور لتعاون وتكاتف ،
لوضوح وصفاء ، لطمأنينة وثقة ، لجوار ووفاء في الجوار ، لأخوة عربية مقدسة
هي أنقى أخوة عرفها بشرى في عين بشرى . والذين يعميهم التعصب والجهل فيجعلون
من مولد محمد العربي مولداً لحقد وضيعة ، لعداوة وقطيعة ، لاحتباس وتربص ،
لتذؤب وتناحر ، لغدر في الجوار ، هم الذين كفروا (منا ومنكم) مرتين : مرة بدينهم
ومرة بقوميتهم ، والذين يكفرون بدينهم وقوميتهم هم الذين يمسحون جباههم بأقدام
المستعمر ، وفي الوثنية (وحدها) يقبل الناس أقدام الناس . »

إلى أن قال : إن مصيرنا ومصيركم (مصير النصارى ومصير المسلمين) واحد موحد في ضمير القومية : إن القومية هي التوحيد ، والتوحيد وثبة التحرر والتحرير ، وإن الأمة التي لا تنبإ إلى التحرر والتحرير هي الأمة التي تحتقر العبقريّة والعظمة وجوهر الوجود . وهي التي تقدس المسكنة ، والعبودية وفضلات الموائد .

ثم قال : إن أم القرى (مكة) بذت لي (أنا اللبناني العربي) ملكا ، ومجدا ، وقبة تاريخ ، وأجدية ما أكل الدهر من حروفها حرفا .

إن الإيمان الحق والاعتصام بدين الله تعالى المنزل يقتضى الوحدة والاتفاق ، وترك الاهتداء يورث الاختلاف والشقاق . وإن الوسيلة الى النهوض بمهمات الأمور هو الجهاد كما قال تعالى ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ والجهاد يتضمن العمل للمصلحة العامة والصبر والمواظبة على الصلاة كما قال تعالى ﴿ واستمعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ وترك التقليد للآباء والأجداد والمشايخ والمعلمين إذا كان في غير حق أو يدعو إلى باطل لأنه جهل وعصية جاهلية .

إن الاستهداء بالقرآن واجب على كل مكلف في كل زمان ومكان ، فعلى كل قارىء أن يتلو القرآن بالتدبر ، وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به . ولا شك أن كل من له معرفة — ولو قليلة — باللغة العربية فانه يفهم من القرآن ما يهتدى به ، ومن كان أميا أو أعجميا فانه ينبغي له أن يسأل القارئ أن يقرأوا له القرآن ويفهموه معناه . فاذا أقبل كل منا على تلاوة الكتاب الكريم وتدبره وعمل بما جاء به : العالم في درسه ، والزارع في حرثه ، والصانع في صنعته ، والتاجر في تجارته ، والطبيب والقاضى والمحامى والعامل والمرأة والصبي كل في دائرة عمله ، واقتدوا برسول الله صلوات الله عليه ، فحياته من قول وعمل هي المفسرة والمبينة لمعانى القرآن ، لتغير حال المسلمين ، واستبدلوا بضيقهم قوة وبذلهم عزا وباسترقاقهم حرية واستقلالاً ومجدا ، وأصبحوا المثل المعالى لهداية الإنسانية الى أقوم طريق وأشرف غاية ، وانه لا يصلح الله حال المسلمين إلا بما صلح عليه حال أولهم . والله الهادى والموفق لخير العباد ، بما فيه الخير والسداد .

القرآن

بقلم فقيده البلاغة العربية السيد مصطفى صادق الرافعي

آيات منزلة من حول العرش ، فالأرض بها سماء هي منها كواكب ، بل هي الجنود الإلهي قد نشر له من الفضيلة علم ، وانضوت إليه من الأرواح مواكب

أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقطابها ، وامتنعت عليه د أعراف ، الضمائر ، فابتزأ أنفاله ، (١)

وكم صدوا عن سبيله صدأ ، ومن ذا يدفع السيل إذا هدر ؟ واعترضوه بالأسنة رداً ، ولعمري من يرد على الله القدر ؟ وتخاطروا له بسفهاهم كما تخاطرت الفحول بأذنان (٢) ، وفتحوا عليه من الحوادث كل شديق فيه من كل داهية ناب ، فما كان إلا نور الشمس لايزال الجاهل يطمع في سراجه ، ثم لا يضع منه قطرة في سقائه . ويلقى الصبي غطاءه ليخفيه بحجاب ، ثم لايزال النور ينبسط على غطاءه

وهو القرآن ، كم ظنوا بما انطوى تحت ألسنتهم وانتشر ، كل ظن في الحقيقة آثم ، بل كل ظن بالحقيقة كافر ، وحسبوه أمراً هيناً لأنه أنزل في الأرض على بشر ، كما يحسب الأحق في هذه السماء أرضاً ذات دواب نورانية .. لأن هلالها كأنما إسقط من حافر

(١) الأعراف : الأمكنة العالية . والانفال : الغنائم

(٢) إذا نصارت الفحول من الأبل تخاطرت بأذنانها كأنها يهدد بعضها بعضاً

ولكم أبرقوا وأرعدوا حتى سال بهم وبصاحبهم السيل ، وأثاروا من الباطل
في بيضاء ليها كسهارها ليجعلوا نهارها كالليل ، فما كان لهم إلا ما قال الله ﴿ بل
نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل ﴾

ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هي لانت فأنفاس
الحياة الآخرة

تذكر الدنيا فيها عمادها ونظامها ، وتصف الآخرة فيها جنتها وضرامها .
ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب ، وإن
أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب

ومعان بينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسيم
الجنان ، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الامان ، وبيننا هي ترف بندى
الحياة على زهرة الضمير ، وتخلق في أوراقها من معاني العبرة معنى العبير ،
وتهب عليها بأنفاس الرحمة فتتم بسر هذا العالم الصغير ، ثم بينا هي تتساقط من
الافواه تساقط الدموع من الأجفان ، وتدع القلب من الخشوع كأنه جنازة
ينوح عليها اللسان ، وتمثل للمذنب حقيقة الانسانية حتى يظن أنه صنف آخر
من الانسان ؛ إذا هي بعد ذلك إطباق السحاب وقد انهارت قواعده ، والتمعت
ناره وقصفت في الجور وواعده ، وإذا هي السماء وقد أخذت على الأرض
ذنوبها ، واستأذنت في صدمة الفزع ربها ، فكادت ترجف الراجفة ، تتبعها
الرادفة ، وإنما هي عند ذلك زجرة واحدة ، فاذا الخلق طعام الفناء ، وإذا
الأرض « مائدة »

توهموا السحر ما توهموه ، فلما أنزل الله كتابه قالوا هذا هو السحر المبين .
وكانوا يأخذون في ذلك بباطل الظن ، فأخذوا في هذا بحق اليقين . ﴿ أفسحر
هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ ومن الشعر ما تسمعون به أم أنتم لا تسمعون ؟

بلى إنه لسحرٌ يغلب حتى يفرق بين المرء وعادته ، وينفذ حتى يتصرف بين القلب وإرادته ، ويجرى في الخواطر كما تصعد في الشجر قطرات الماء ، ويتصل بالروح فكأنما يمدُّ لها بسبب إلى السماء

وإنه لسحر ، إذ هو ألحاظ لم تعهد من كلم أحداقها ، وثمرات لم تنبت في قلم أوراقها ، ونور عليه رونق الماء ، فكأنما اشتعلت به الغيوم ، وماء يتلأل كالنور فكأنما عصر من النجوم

وبلى إنه لشعر ، ولكن زنة مبانیه في معانيه ، وزينة معانيه في مبانیه ، فكل معنى ولا جرم من بحر ، وكل لفظ كلؤلؤة في النحر وإنه لشعر ، إذ هو آيات لا يجانس كلامها البديع غير كالماء ، وحقيقة في الوجود لم يكن يعرف غير خيالها ، ومرآة في يد الله تقابل كل روح بمثلها

يقولون مجنونٌ بعضُ آلهتنا اعتراه (١) ، وأساطير الأولين اكتبها أم يقولون اقتراه

بلى ، إن العقل الكبير في كاله ، ليشمل في العقول الصغيرة كأنه جنون . وإن النجم المنير فوق هلاله ، ليظهر في العيون القصيرة كأنه نقطة فوق نون . وهل رأوا إلا كلاماً تضيءُ ألفاظه كالمصابيح ، فعصفوا عليه بأفواههم كما تعصف الرياح . يريدون أن يطفئوا نور الله ، وأين سراج النجم من نفخة ترتفع إليه كأنما تذهب تطفئه . ونور القمر من كف يحسب صاحبها أنها في حجمه فيرفعها كأنما يخفيه . وهيات ، هيات ، دون ذلك درجُ الشمس — وهي أم الحياة — في كف ، وإنزالها بالأيدي — وهي روح النار — في قبر من كهوف الزمن

لا جرم أن القرآن سرُّ السماء ، فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول ، ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول

(١) أى اعتراه بسوء

فهرست المجلد الاول من هداية القرآن لبنى الانسان

موجز منتخب لتفسير القرآن

صفحة	صفحة
٢٤ الذى جعل لكم الارض فراشا	٣ مقدمة الكتاب
٣٥ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا	١٨ تفسير الفاتحة
٣٦ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا	٢٢ سورة البقرة
٣٧ وبشر الذين آمنوا	٢٢ تفسير ألم
٣٨ ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا	٢٣ ذلك الكتاب لا ريب فيه
٣٩ الذين ينقضون عهد الله	٢٤ الذين يؤمنون بالغيب
٤٠ كيف تكفرون بالله	٢٤ والذين يؤمنون بما أنزل إليك
٤٠ هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا	٢٤ أولئك على هدى من ربهم
٤٢ وإذا قال ربك للملائكة	٢٦ إن الذين كفروا
٤٣ وعلم آدم الاسماء كلها	٢٦ ختم الله على قلوبهم
٤٣ قالوا سبحانك لا علم لنا	٢٨ ومن الناس من يقول آمنا
٤٣ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم	٢٨ يخادعون الله والذين آمنوا
٤٥ وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم	٢٨ فى قلوبهم مرض
٤٦ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة	٢٩ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض
٤٧ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما	٣٠ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس
كانا فيه	٣٠ وإذا لقوا الذين آمنوا
٤٧ فقلقى آدم من ربه كلمات	٣٠ الله يستهزئ بهم
٤٨ قلنا اهبطوا منها جميعا	٣١ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى
٤٨ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا	٣١ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا
٤٩ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى	٣٢ صم بكم عمى فهم لا يرجعون
٥٠ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم	٣٢ أو كصيب من السماء
٥١ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة	٣٣ يا أيها الناس اعبدوا ربكم

صفحة

٥١ ولا تلبسوا الحق بالباطل
 ٥٢ أقمرون الناس بالبر
 ٥٣ واستعينوا بالصبر والصلاة
 ٥٤ الذين يظنون أنهم ملائكة ربهم
 ٥٥ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي
 ٥٤ وانقوا أيوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا
 ٥٥ وإذ نجيناكم من آل فرعون
 ٥٥ وإذ فرقنا بكم البحر
 ٥٥ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة
 ٥٥ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك
 ٥٦ وإذ آتيناهم موسى الكتاب
 ٥٦ وإذ قال موسى لقومه
 ٥٧ وإذ قلتم يا موسى لن تؤمن بك
 ٥٧ ثم بعثناكم من بعد موتكم
 ٥٧ وظللنا عليكم الغمام
 ٥٩ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية
 ٦٠ فبذل الدين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم
 ٦٠ وإذ استسقى موسى لقومه
 ٦٠ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر لك على
 طعام واحد
 ٦٢ إن الذين آمنوا
 ٦٢ وإذ أخذنا ميثاقكم
 ٦٣ ثم قوليت من بعد ذلك
 ٦٤ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت
 ٦٤ فجعلناهم نكالا لما بين يديها

صفحة

٦٤ وإذ قال موسى لقومه — إلى قوله —
 فذبحوها وما كادوا يفعلون .
 ٦٥ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها
 ٦٧ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك
 ٦٨ أفنطمعون أن يؤمنوا لكم
 ٦٨ وإذ لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا
 ٦٨ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون
 وما يعلنون
 ٦٩ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب
 ٦٩ فويل للذين يكتبون الكتاب
 ٦٩ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة
 ٧٠ بلى من كسب ميثقه وأحاطت به خطيئته
 ٧١ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل
 ٧٣ وإذ أخذنا ميثاقكم
 ٧٣ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم
 ٧٤ أولئك الذين اشترى الحياة الدنيا
 بالآخرة
 ٧٥ ولقد آتيناهم موسى الكتاب
 ٧٦ وقالوا اقلوبنا غلف
 ٧٦ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق
 لما معهم
 ٧٧ بثبنا شترنا به أنفسهم
 ٧٧ وإذ قيل لهم آمنوا بما أنزل الله
 ٧٨ ولقد جاءكم موسى بالبينات
 ٧٩ وإذ أخذنا ميثاقكم

٧٩ قل إن كانت لكم الدار الآخرة
 ٧٩ ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم
 ٨٠ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة
 ٨١ قل من كان عدواً لجبريل - إلى قوله -
 فان الله عدو للكافرين
 ٨٢ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات
 ٨٣ أو كلما عاهدوا عهداً
 ٨٣ ولما جاءهم رسول من عند الله
 ٨٣ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان
 ٨٥ ولو أنهم آمنوا واتقوا
 ٨٥ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا
 ٨٦ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب
 ٨٦ ما ننسخ من آية أو ننسها
 ٨٧ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض
 ٨٨ أم تريدون أن تسألوا رسولكم
 ٨٩ ود كثير من أهل الكتاب
 ٩٠ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة
 ٩٠ وقالوا لن يدخل الجنة
 ٩٠ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن
 ٩١ وقالت اليهود ليست النصراني على شيء
 ٩٢ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن
 يذكر فيها اسمه
 ٩٢ والله المشرق والمغرب
 ٩٤ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه
 ٩٤ بديع السماوات والأرض

٩٤ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله
 ٩٥ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً
 ٩٥ ولن ترضى عنك اليهود
 ٩٦ الذين آتيناهم الكتاب
 ٩٨ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي
 أنعمت عليكم
 ٩٨ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس
 شيئاً
 ٩٩ وإذا تبلى إبراهيم ربه بكلمات فآمن
 ٩٩ وإذا جعلنا البيت مثابة للناس
 ١٠٠ وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً
 آمناً
 ١٠١ وإذا رفع إبراهيم القواعد من البيت
 وإسماعيل
 ١٠١ ربنا واجعلنا مسلمين لك
 ١٠٢ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم
 ١٠٣ ومن يرغب عن ملة إبراهيم
 ١٠٣ إذا قال له ربه أسلم
 ١٠٤ ووصى بها إبراهيم بنيه
 ١٠٤ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت
 ١٠٥ تلك أمة قد خلت
 ١٠٦ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا
 ١٠٦ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا
 ١٠٨ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا
 ١٠٩ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة

صفحة

صفحة

١٠٩ قل أنما جئنا في الله
١٠٩ أم تقولون إن إبراهيم واسماعيل
واسحاق

١١٠ ومن أظلم ممن كنتم شهادة عنده
١١٠ تلك أمة قد خلت

(الجزء الثاني)

١١٢ سيقول السفهاء من الناس

١١٢ وكذلك جعلناكم أمة وسطا

١١٣ وما جعلنا القبلة التي كنتم عليها

١١٤ قد نرى تقلب وجهك في السماء

١١٤ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب

١١٥ الذين آتيناهم الكتاب

١١٦ الحق من ربك

١١٦ ولكل وجهة هو موليها

١١٧ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر

المسجد الحرام

١١٧ لئلا يكون للناس عليكم حجة

١١٨ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم

١١٩ فاذكروني أذكركم

١٢٠ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر

١٢١ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله

١٢١ ولنبلو نكم بشئ من الخوف

١٢٢ الذين إذا أصابتهم مصيبة

١٢٣ إن الصفا والمروة من شعائر الله

١٢٤ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات

١٢٥ إلا الذين تابوا وأصلحوا

١٢٥ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار

١٢٥ وإلهمكم إله واحد

١٢٦ إن في خلق السماوات والأرض

١٢٨ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا

١٢٩ إذ تبرأ الذين اتبعوا - إلى قوله -

وما هم بخارجين من النار

١٣١ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض

١٣١ إنما يامركم بالسوء والفحشاء

١٣٢ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله

١٣٢ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق

١٣٣ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات

ما رزقناكم

١٣٤ إنما حرم عليكم الميتة

١٣٥ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من

الكتاب

١٣٦ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى

١٣٦ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق

١٣٧ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل

المشرق والمغرب

١٤١ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم

القصاص

١٤٣ ولكم في القصاص حياة

١٤٤ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت

١٤٤ فمن بدله بعد ما سمعه

١٦٥ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة في

الإثم

١٦٦ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء

مرضاة الله

١٦٧ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة

١٦٧ فإن زلتم من بعد ما جاءكم البينات

١٦٨ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في

ظلل من الغمام

١٦٨ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية

١٧٠ زين الذين كفروا الحياة الدنيا

١٧١ كان الناس أمة واحدة

١٧٢ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة

١٧٣ يسألونك ماذا ينفقون

١٧٣ كتب عليكم القتال وهو كره لكم

١٧٥ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه

١٧٦ إن الذين آمنوا والذين هاجروا

١٧٧ يسألونك عن الخمر والميسر - إلى قوله -

إن الله عزيز حكيم

١٨١ ولا تتحكوا المشركات حتى يؤمن

١٨٣ ويسألونك عن المحيض

١٨٤ نسألكم حرث لكم

١٨٥ ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم

١٨٦ لا يؤاخذكم الله في اللغو في إيمانكم

١٨٦ الذين يؤلون من نسائهم - إلى قوله -

فإن الله سميع عليم

١٤٤ فمن خاف من موص جنافا

١٤٥ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام

١٤٦ أياما معدودات فمن كان مريضا أو

على سفر

١٤٧ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن

١٤٨ وإذا سألك عبادي عني

١٤٩ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم

١٥١ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل

١٥٢ يسألونك عن الآلهة

١٥٣ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم

١٥٣ واقتلوه حيث تقفتموه

١٥٤ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم

١٥٥ وقاتلوه حتى لا تكون فتنة

١٥٥ الشهر الحرام بالشهر الحرام

١٥٦ وأنفقوا في سبيل الله

١٥٧ وآتموا الحج والعمرة لله

١٥٩ الحج أشهر معلومات

١٦٠ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا

من ربكم

١٦١ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس

١٦١ فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله

١٦٢ ومنهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا حسنة

١٦٢ أولئك لهم نصيب مما كسبوا

١٦٣ واذكروا الله في أيام معدودات

١٦٤ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة

الدنيا

صفحة

١٨٧ والمطلقات يترصن بأنفسهن ثلاثة

قروء

١٩٠ الطلاق مرتان

١٩٢ فان طلقها فلا تحل له من بعد

١٩٣ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن

فأمسكنهن بمعروف

١٩٥ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا

تعضوهن

١٩٦ والوالدات يرضعن أولادهن حولين

كاملين

١٩٧ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا

١٩٨ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من

خطبة النساء

١٩٩ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم

تمسوهن

٢٠٠ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن

٢٠١ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى

٢٠٢ فان خفتم فرجالا أو ركباناً

٢٠٢ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا

وصية لأزواجهم

٢٠٢ وللطلقات متاع بالمعروف - إلى

قوله - لعلكم تعقلون

٢٠٣ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم

وهم أوف

٢٠٥ وقاتلوا في سبيل الله

٢٠٦ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً

صفحة

٢٠٨ ألم تر إلى الملائم من بني إسرائيل

٢٠٩ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لکم

طالوت ملكاً

٢١٠ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه

٢١١ فلما فصل طالوت بالجنود

٢١٢ ولما برزوا لجالوت وجنوده

٢١٢ فهزموهم باذن الله

٢١٢ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض

٢١٣ تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق

(الجزء الثالث)

٢١٤ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض

٢١٦ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم

٢١٧ الله لا إله إلا هو الحي القيوم

٢١٨ لا إكراه في الدين

٢١٩ الله ولي الذين آمنوا

٢٢١ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه

٢٢٢ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على

عروشها

٢٢٣ وإذا قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي

الموتى

٢٢٤ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله

٢٢٥ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله

٢٢٥ قول معروف ومغفرة

٢٢٦ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم

بالمن والأذى

- ٢٢٧ مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء
مرضاة الله
- ٢٢٨ أيود احدكم ان تكون له جنة من نخيل
وأعناب
- ٢٢٩ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما
كسبتم
- ٢٣٠ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء
- ٢٣١ يوق الحكمة من يشاء
- ٢٣١ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر
- ٢٣٢ إن تبدوا الصدقات فنعما هي
- ٢٣٤ ليس عليكم هدام لكن الله يهدي من
يشاء
- ٢٣٤ للفقراء الذين أحصروا
- ٢٣٦ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار
- ٢٣٦ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما
يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس
- ٢٣٧ يحق الله الربا ويربي الصدقات
- ٢٣٩ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
- ٢٤٠ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا
ما بقى من الربا
- ٢٤٠ وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة
- ٢٤١ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله
- ٢٤٢ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين
الى أجل مسمى فاكتبوه
- ٢٤٥ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً
فرهان مقبوضة
- ٢٤٥ لله ما فى السموات وما فى الأرض
- ٢٤٧ آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه
- ٢٤٨ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها
- ٢٥٠ الخاتمة ، سورة البقرة :
- مكائنها - أهدافها - أثرها
- ٢٥٨ وصف القرآن - بقلم الرافعى

للمؤلف

الشمس

(خلاف أجرة البريد)

- ١ - أركان الاسلام الخمسة ، وأثرها في حياة الأفراد والجماعات ،
٢٥ وموقف الاسلام من الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية
- ٢ - مكانة العلم في القرآن
٢٥
- ٣ - التعاون
١٥
- ٤ - كيف نعلم القرآن لأبناء المسلمين (٣ أجزاء) :
٣ (الدرس الاول) : في العقائد والعبادات
٣ (الدرس الثاني) : حقوق الله وحقوق الوالدين
٣ (الدرس الثالث) : مكانة المرأة في القرآن
- ٥ - حياة محمد ﷺ
٣
- ٦ - الحج
٣
- ٧ - الصوم
- ٨ - هداية القرآن لبني الانسان : وهو (موجز منتخب لتفسير القرآن)
صدر منه المجلد الاول ، وفيه ثلاثة أجزاء من القرآن من أول الفاتحة
٣٠ الى آخر سورة البقرة

في عالم التأليف

ظهر كتاب

الركائز الإسلامية الخمسة

وأثرها في حياة الأئمة والجماعات

و

موقف الاسلام من الاشتراكية والشيوعية والرأسمالية

لحضرة الاستاذ الدكتور

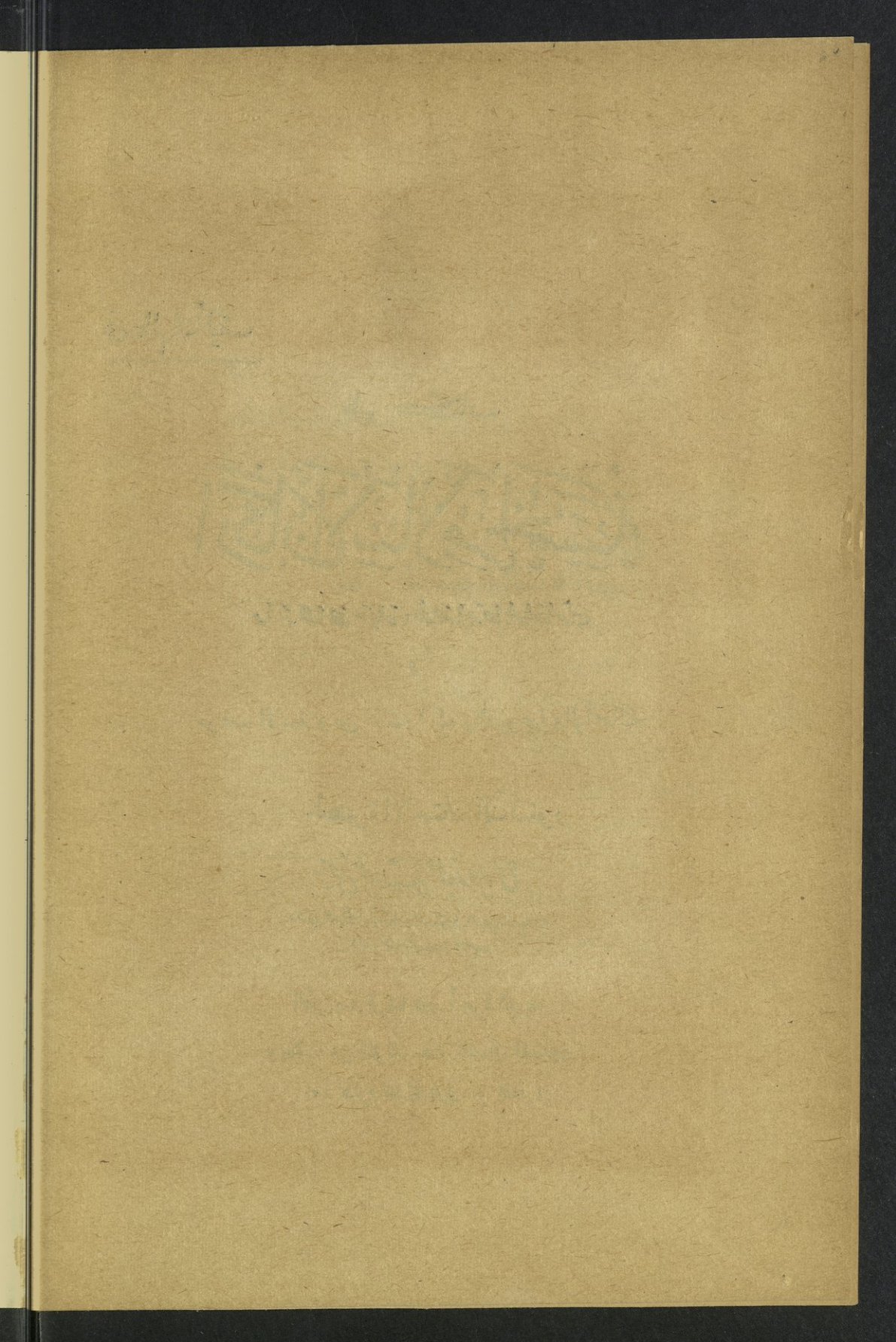
يحيى أحمد الذري

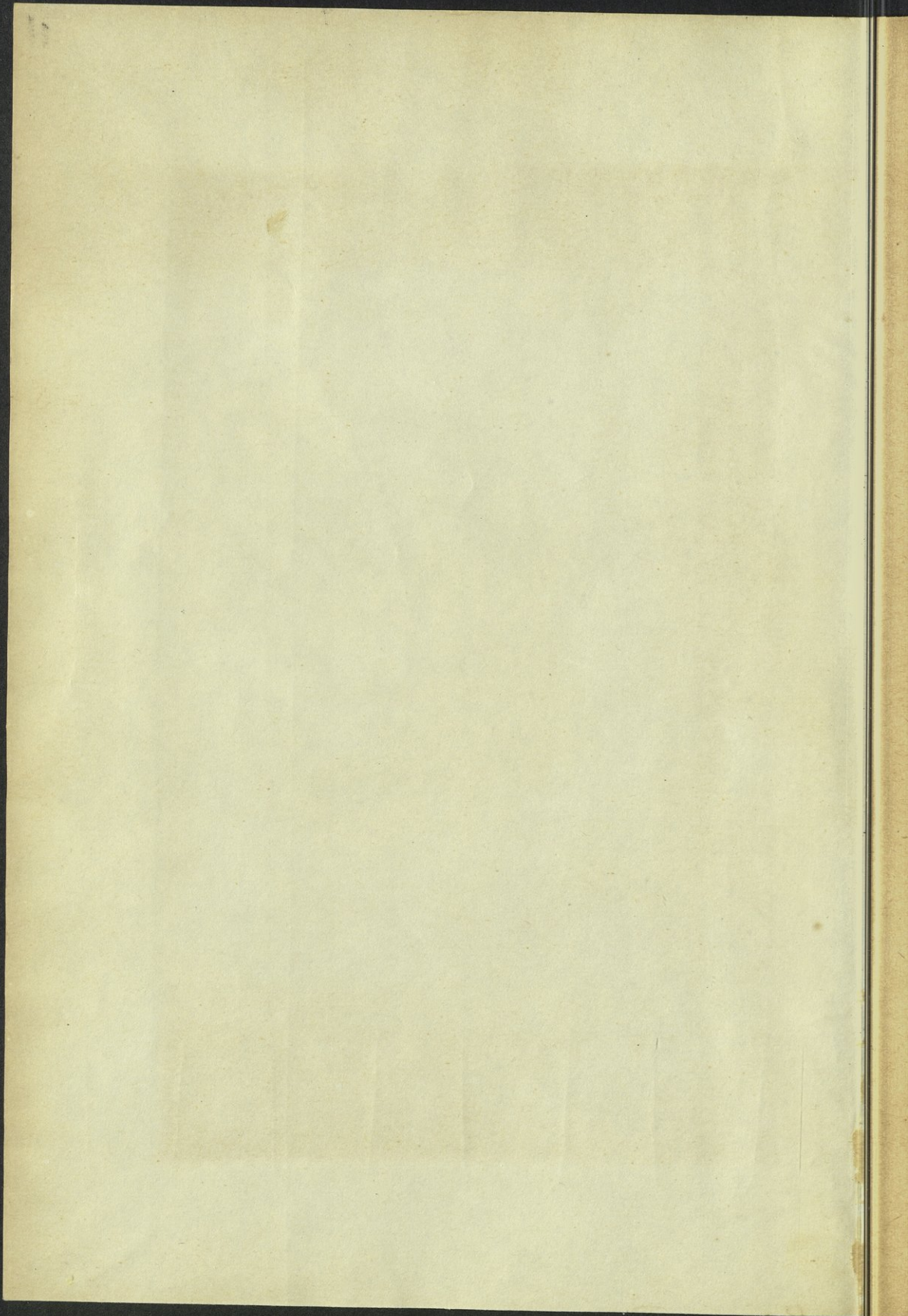
دكتور في الحقوق ولغته في العلوم السياسية
والأدب، أستاذ في جامعة القاهرة

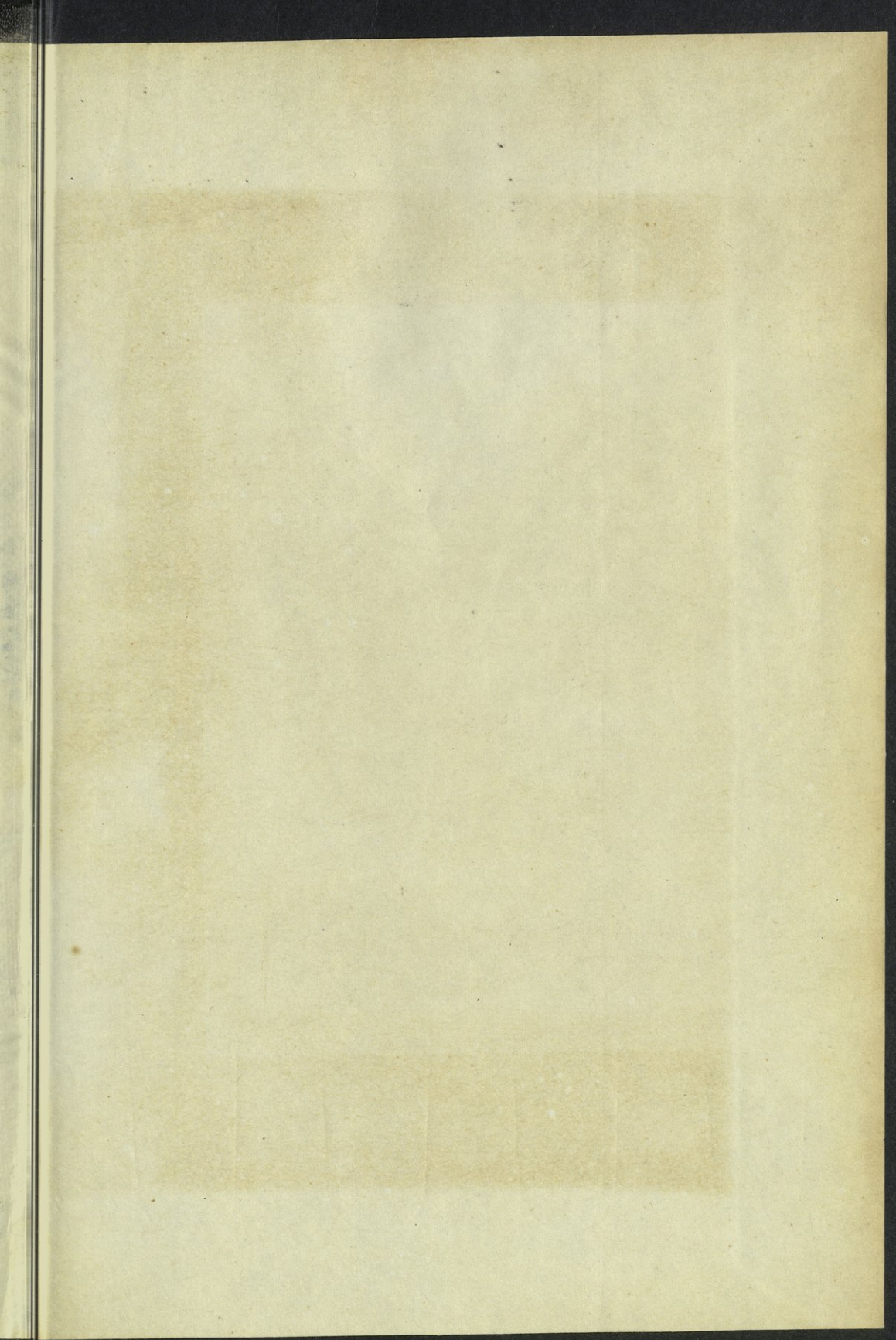
الثنى ٢٥ قرشا غير أجرة البريد

ويطلب من المؤلف بدار الشبان المسلمين

١٢ شارع الملكة نازلي - القاهرة







297.207:D21hA:v.1:c.1

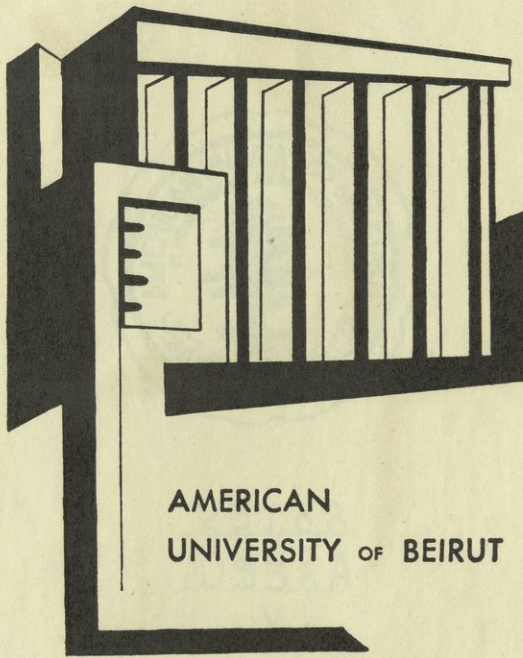
الدرديري، يحيى / احمد

هداية القرآن لبنى الانسان

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01003191



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

297.207
D21hA
v.1
c.1